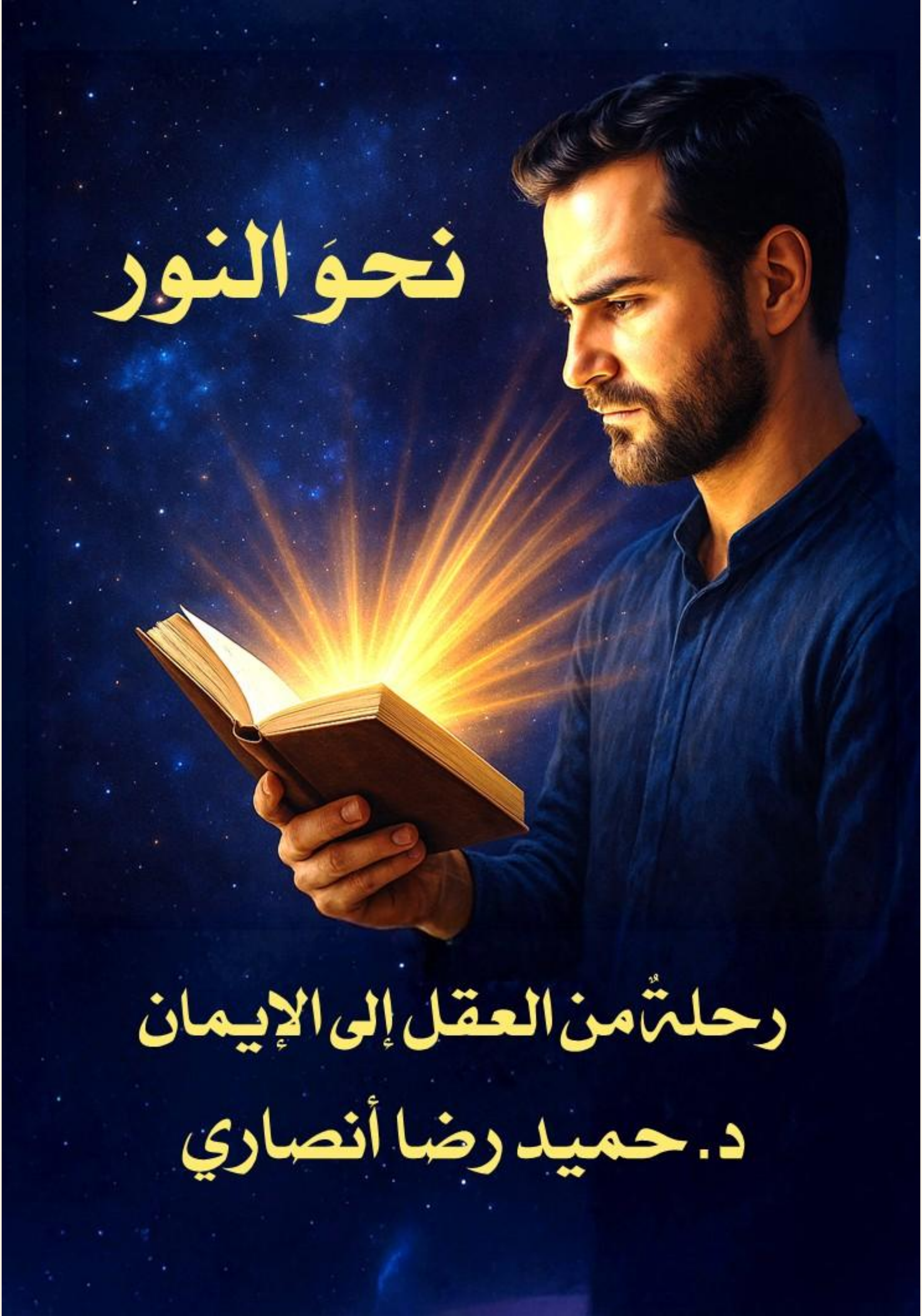


# نحوَ النور

## رحلةٌ من العقل إلى الإيمان

د. حميد رضا أنصاري

**أخي القارئ / أختي القارئة،**

**إذا كنت مهتمًا بالحصول على هذا الكتاب بلغات أخرى أو بكتب أخرى ذات صلة، يُرجى التواصل مع مؤلف الكتاب عبر الواتساب أو البريد الإلكتروني الموضح أدناه.**

رابط واتساب 👇

https://wa.me/9647731718421

رابط تلغرام 👇

https://t.me/noorvarahma

البريد الإلكتروني 👇

hamidrezaansari1103@gmail.com

# كلمةُ المؤلِّف

صديقي العزيز، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته،

لقد جلستَ كثيرًا إلى أشخاصٍ تحدّثوا إليك عن الله والدين والعوالم الغيبية، وكان معظمهم من رجال الدين أو المشتغلين في هذا المجال.

لكن هذه المرّة ستستمع إلى إنسانٍ لم يكن اختصاصه هذا المجال أصلًا، بل دفعه حبّ الحقيقة والبحث العلميّ إلى هذا الطريق.

أنا أحمل شهادة الدكتوراه، ولكن تخصّصي ليس في الفلسفة أو العلوم الدينية، بل في الهندسة.

وبفضل الله كنت وما زلت ناجحًا في عملي نجاحًا كبيرًا. وأرجو أن تعذرني، فقصدي ليس التفاخر، وإنما التوضيح: أنني لم ألجأ إلى الدين أو إلى الإيمان بدافع الفراغ أو اليأس أو طلب الشهرة، بل بدافع العطش إلى معرفة الحقيقة.

كنت طوال مسيرتي الدراسية من المتفوّقين؛ فقد كنتُ الأوّل في امتحان القبول الجامعي في الهندسة الميكانيكية، ثم تخرّجتُ بدرجة الدكتوراه في الهندسة من جامعة ميامي في أمريكا بمعدّل (٤ من ٤)، ولذلك فأنا لست إنسانًا ساذجًا أو منجرفًا بالعواطف في المسائل العقلية.

على عكس بعض الناس الذين يسلكون الطريق الإلهي لأنهم اعتادوا عليه، أو لأنهم لم يجرّبوا بدائل أخرى، فأنا – مثل كثيرٍ منكم - جئتُ من حياةٍ غير دينية، بلا إيمانٍ سابق، ووصلتُ إلى الإيمان بالله من خلال البحث والتفكّر الحرّ.

كنتُ مثلكم أملك نظرياتٍ عن فلسفة الخلق ودور الإنسان في المجتمع ورسالته، لكنّي اكتشفتُ أن الأنانية وحبَّ الذات كانا دومًا يشوّهان رؤيتي لله وللكون، فكنتُ أرى الأمور من خلال مرآة نفسي لا من خلال حقيقتها.

وكنتُ مثل كثيرٍ من الناس أقومُ بأعمالٍ خيريةٍ وإنسانية،

لكنني حين نظرتُ إليها لاحقًا أدركتُ أن كثيرًا منها كان مخلوطًا بحبِّ الذات والرغبة في الظهور. كنتُ أُعطي السائلَ من غير قصدٍ خالصٍ لله، بل رغبةً في شعورٍ بالرضا عن النفس أو الإحساسِ بالتفوّق عليه. ثمّ فهمتُ أنَّ الصدقة قد ترفع الإنسان إلى الجنة أو تُسقطه في النار، وأنّ العمل والبناء قد يقودان الإنسان إلى الهلاك، كما أنَّ المهندسَ الذي شيّد القصور لفرعون الظالم ذهبَ بعمله إلى النار.

ولم أكن أنتمي إلى خلفيةٍ دينيةٍ معيّنة، بل كانت بدايتي في التقرّب إلى الله منذ أكثر من ثلاثين سنة، حين كنتُ في أمريكا أُكمل دراستي للدكتوراه في الهندسة.

أتذكّر أنني كنتُ أعمل على مشروعٍ بحثيٍّ حول انتقال الرواسب باستخدام مجهرٍ إلكترونيٍّ يُعرف باسم "المجهر الإلكتروني الماسح" وكان يمتاز بقدرةٍ على التكبير تصل إلى سبعين ألف مرّة؛ فجسمٌ صغيرٌ قطرُه مليمترٌ واحدٌ يصبح تحت العدسة بحجم سبعين مترًا!

كنتُ أضع أحيانًا ذرّاتٍ من المرجان أو الكائنات البحرية تحت المجهر، فأرى أنَّ جسيمًا أصغرَ من رأس الإبرة بعشرات المرات يحمل نظامًا ودقّةً وتعقيدًا مذهلين يُدهشان العقل الإنساني.

كنتُ أفكّر يوميًّا طويلًا في مَن الذي أبدع هذا الخلق، وكانت فكرةُ "الخلق العشوائي بلا خالقٍ" تبدو لي سخيفةً تمامًا.

ثمّ اعتدتُ أن أتأمّل التفاصيل الصغيرة في الطبيعة:

كيف يحرّك البعوض جناحيه عشرات المرات في الثانية؟

كيف لا ينفصل مفصل جناحه في تلك السرعة الهائلة؟

كيف يعمل قلبه الصغير؟ وكيف تنسّق صمّاماته؟

هذا التأمّل قادني تدريجيًّا إلى يقينٍ بأنّ هذا النظام المحكم لا يمكن أن يصدر إلا عن عقلٍ عظيمٍ ذكيٍّ واعٍ — هو الذي نُسمّيه الله سبحانه وتعالى.

وفي يومٍ من الأيام قلت لنفسي:

أنا الذي أقضي الساعات في قراءة الكتب لأفهم حقيقةً

علمية، وأُضيّع الأوقات في أحاديث لا فائدة منها، أفلا يجدر بي أن أبحث عن معرفة هذا الوجود العظيم الذي ترتبط به كلُّ الكائنات والظواهر؟

وهكذا بدأتُ رحلتي في البحث عن الله، بعقلٍ علميٍّ متحرّرٍ من الخرافة، حتى وصلتُ إلى حقائق كثيرة كنتُ قد سمعتُ بها من قبل، لكنني لم أكن أُصدِّقها لأنّها لم تكن ثمرةَ تجربتي وبحثي الشخصي.

أمّا الآن، فبعد أن تأكَّدتُ منها بالأدلّة العلميّة، فقد أصبحتُ على يقينٍ تامٍّ بها.

إنّ الكونَ والموجوداتِ والإنسانَ خُلِقوا جميعًا على يدِ وجودٍ طاهرٍ مُقدّس، هو الله سبحانه وتعالى.

لقد كان اللهُ أزليًّا قبل كلّ شيء، وهو الذي أوجد الوجود لأجلِ هدفٍ عظيمٍ وحكمةٍ سامية.

والإنسانُ من أكرمِ مخلوقاتِ الله، منحهُ طاقاتٍ عقليّةً وروحيّةً فريدةً، حتى إنّ الله تعالى قال في شأن خلقه:

"فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ."

فالإنسانُ يحتاجُ إلى مُرشِدٍ ومربٍّ يُنمّي قدراتِه ويهديه إلى الطريقِ المستقيم، ومن رحمتهِ تعالى أنْ اختارَ من البشرِ أنبياءَ ورسلاً ليقودوا الإنسانيّةَ نحو النور.

لقد كانت الرسالاتُ الإلهيّة متتابعة، وكلّ نبيٍّ في زمانهِ قدّم الحججَ والبراهين على صدقِ رسالته، وبعضهم أنزل اللهُ عليهم كتباً مُقدّسةً، وأيّدهم بمعجزاتٍ ظاهرة.

ومع مرور الزمان، تبدّلت تلك الكتب وتغيّر الكثير من محتواها، حتى لم يبقَ من بينها كتابٌ واحدٌ يمكن الجزمُ بأنّه كلامُ الله الخالص، إلّا القرآن الكريم — كتابُ آخرِ الأنبياءِ، الذي حفظهُ اللهُ من التحريف، ليبقى شاهدًا على الوحيِ الإلهيّ وصدقِ الخالقِ جلّ شأنه.

**قد يتساءل أحدكم: ما فائدةُ كلّ هذا لنا اليوم؟**

الجواب أنّه برهانٌ على أنّ الإنسانَ ليس مخلوقًا عابرًا، بل

هو أسمى مخلوقاتِ الوجود، خُلقَ لأهدافٍ عظيمةٍ، والله تعالى يُراقبُه ويُحبّه، ويريدُ له الكمالَ والرقيّ.

فإذا تابَ الإنسانُ إليه، غفرَ له كلَّ ذنوبه، بل يُحوّلُ سيئاته إلى حسناتٍ كما وعدَ في كتابه الكريم.

وقد بيّن اللهُ لنا طريقَ القربِ منه، ومن يسلكهُ بإخلاصٍ يجدُ في قلبه نشوةً روحيّةً وسعادةً سماويّةً، تُبدّدُ الحزنَ والقلقَ والخوفَ من الحياة.

القربُ من الله يمنحُ الإنسانَ نورًا في قلبه، فيرى العالمَ بعينِ الحبّ والطمأنينة، ويعيشُ كالعاشقِ في لذّةِ الوصالِ الدائم.

ومن صدقَ في سعيه، يُكرمهُ اللهُ بنفحاتٍ من الغيب، ويُفيضُ عليه من كراماتِ أوليائه، فيصبحُ محبوبًا عند اللهِ لا يُردّ له دعاء.

أمّا من أعرضَ عن هذا الطريق، فإنّ حياتَه تتحوّلُ إلى سجنٍ مؤلمٍ مليءٍ بالخوفِ والفراغ.

يمرّ العمرُ سريعًا كما تمرُّ الدجاجةُ في حاضنةٍ مُغلقةٍ، تأكل وتشرب ثم تُقاد إلى الفناء.

الإنسانُ الذي لا يعرفُ غايتهُ يعيشُ كهذا — يأكل، يعمل، ويشيخ، ثمّ يرحل بلا معنى.

تتقدّمُ السنون، تضعفُ القوّة، تذبلُ اللذّات، ويحلّ محلّها الخوفُ من النهاية.

حينها يرى الموتَ كوحشٍ خلف الجدار، يسمعُ صوتهُ يقتربُ يومًا بعد يوم، ولا يملكُ (الفرار) منه.

فهل خُلِقنا فقط لنعيشَ هذه الدورةَ القصيرةَ ثمّ ننتهي؟

كلا! إنّ وراءَ هذا الجدار حياةً أخرى، ونورًا أبديًّا ينتظرُ من يطلبُ الحقيقة.

فيا أحبّتي، لنُصغِ بقلوبنا، ولنسعَ جميعًا إلى النور قبل أنْ يُهدَمَ هذا الجدار، ويُفاجئنا اللقاءُ بالحقيقة الكبرى.

إذا سرنا في طريق الحقيقة، فإن الغرفة المتواضعة التي

نعيش فيها تتحول إلى قصرٍ من النور والسرور. وبعد مغادرتنا هذه الحياة القصيرة، سندخل حياةً أعظم وأجمل، وننعم في الحياة الأبدية بسعادةٍ روحية تفيض من محبة الله تعالى. وعندما نوقن بهذه الحقيقة، سنجد أنّ البقاء في هذه الحياة المادية يصبح صعبًا على أرواحنا التي تتوق إلى التحليق نحو المحبة الإلهية.

وهذه ليست شعاراتٍ أو كلماتٍ عاطفية، بل سأُثبت لكم حقيقتها استنادًا إلى القرآن الكريم وإلى أدلةٍ علميةٍ ومنطقيةٍ قاطعة.

# إثبات متانة أُسُس القرآن الكريم

من أهم محاور حديثي الاعتماد على القرآن الكريم، ولذلك يجب أولًا أن نُبيّن استحكام مبانيه ومعجزاته.

سأُثبت لكم أنّ القرآن كلام الله عزّ وجلّ، ولا يمكن أن يكون من تأليف البشر.

إنّ البرهان الذي أقدّمه لا يقوم على الجمال البلاغي فحسب، ولا على الإشارات العلمية التي تحدّث عنها المفسّرون، مثل قوله تعالى في سورة النمل (آية 88):

**"وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ"**

الذي يشير إلى حركة القارات (المعروفة اليوم بـ الانجراف القاري)، أو قوله تعالى في سورة الأنبياء (آية 30):

**"أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا"**

الذي يُطابق ما يُعرف اليوم بـ نظرية الانفجار العظيم ،

أو قوله تعالى في سورة فصلت (آية 11):

**"ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ"**

الذي يتحدث عن الحالة الغازية للكون في بدايته،

أو قوله تعالى في سورة الذاريات (آية 47):

**"وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ"**

الذي يشير إلى تمدّد الكون الذي اكتشفه العلماء حديثًا.

بل إنّ الدليل الذي أقدّمه قائمٌ على نظامٍ عدديٍّ دقيق، يستطيع كلّ من يفهم الأرقام أن يُدرك من خلاله المعجزة الرياضية المذهلة في القرآن الكريم.

عندما اطّلعتُ على الإعجاز العددي في القرآن، خطر ببالي أن أبحث فيما إذا كانت الكتب السماوية الأخرى تمتلك مثل هذه المعجزة. وبعد دراسةٍ مختصرة، تبيّن لي أنّ القرآن لا يُقارن بأيّ كتابٍ آخر، فهو وحده الكتاب الذي أُوحي

إلى النبي محمد ﷺ كتابةً وحفظًا كما هو.

أما الأناجيل الحالية، فليست من كتابة السيد المسيح عليه السلام، ولا حتى من كتابة الحواريين أنفسهم، بل كتبها آخرون ونسبوها إليهم.

وأمّا الكتب الأخرى فحالها أشدّ ضعفًا من ذلك.

القرآن الكريم هو الكتاب السماوي الوحيد الذي يحفظه آلاف الناس في العالم عن ظهر قلب، من سنّ أربع سنوات إلى أكثر من مئة سنة.

هل سمعتم يومًا بقسٍّ واحدٍ يحفظ الإنجيل كاملًا؟ أو بحاخامٍ يحفظ التوراة كلها؟ لا يوجد أحد.

فكيف يستطيع طفلٌ صغيرٌ بالكاد يتكلّم أن يحفظ كتابًا من ستمئة صفحة؟

أليس هذا من الإلهام الإلهي الذي يغرسه الله في جينات أولئك الأطفال؟

لقد شاهدتُ فيلماً عن طفلٍ تنزانيٍّ يُدعى الشيخ شريف، حفظ القرآن كاملاً في سنّ الرابعة، ومثلُه كثيرون حول العالم.

ومنهم الدكتور الطباطبائي الذي نال دكتوراه فخرية من إحدى الجامعات الأوروبية بسبب حفظه وتفسيره للقرآن في سنٍّ مبكرة.

السبب في بقاء القرآن دون تحريفٍ عبر القرون واضح:

إنه آخر كتابٍ أوحاه الله إلى البشر، وآخر كلماته للبشرية.

فكما أنّ الشركة تُوقف إنتاج النماذج القديمة عند صدور النموذج النهائي، كذلك أوقف الله إنزال الكتب السابقة بعد القرآن.

وقد تعهّد الله بحفظه بنفسه، فقال في سورة الحجر (آية 9):

**"إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ"**

أي: نحن الذين أنزلنا القرآن، ونحن من يتولّى حفظه من التحريف.

كما أعلن الله تحدّيه للبشر والجنّ جميعًا في سورة الإسراء (آية 88):

**"قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا"**

قد يخطر في بال البعض سؤال:

إذا كان كلّ هذا صحيحًا، والقرآن هو كلام الله، فماذا عن الشبهات التي تثيرها بعض القنوات الفضائية المعادية للإسلام؟ ولماذا تُطرح هذه الأكاذيب أصلاً؟

هل يمكن حقًّا أن يربح أحدٌ شيئًا من تدمير الأسس الإيمانية لأمّةٍ أو جماعةٍ دينيّة؟

وما الدافع وراء مثل هذه الأفعال؟

على سبيل المثال، لماذا تُقدِم بعض دور النشر الغربية مثل دار بنغوين للنشر على دفع ملايين الدولارات لكاتبٍ مثل

سلمان رشدي من أجل نشر كتابٍ يُسيء صراحةً إلى مشاعر المسلمين؟

قد يبدو الأمر في ظاهره أدبيًّا أو تجاريًّا، ولكن في باطنه يثير الشكوك، وكأنّ وراءه مصالح فكرية أو سياسية خفيّة.

ومع ذلك، لا أريد أن أخوض في تفاصيل هذا الموضوع الآن، لكن من الواضح أنّ الانتقادات الموجّهة إلى القرآن الكريم تقوم في الغالب على تصوّراتٍ مغلوطةٍ ونوايا غير سليمة.

فإذا نظرنا إلى أيّ موضوعٍ من زاويةٍ ضيّقةٍ دون أن نأخذ أبعاده الكاملة، فمن الطبيعي أن نجد فيه مواضع للنقد.

إنّ هذا يشبه تمامًا أن يحاول أحدهم شرح شجرةٍ من خلال ورقةٍ صفراء سقطت عنها، دون أن يتأمّل جذورها، وساقها، وخضرتها، وآلية نموّها، وجمالها الطبيعي، فيبدأ بانتقاد لون الورقة ويغفل عن الحياة التي في الشجرة نفسها.

وهكذا تمامًا يفعل أولئك الذين ينتقدون القرآن الكريم بدافع الجهل أو المصلحة، فيرون جزءًا صغيرًا (ويعمون البصيرة عن الكلّ.

وأنا أرى أن الطريق الأمثل هو أن يقرأ الإنسان القرآن بنفسه، ويتدبّر آياته بعقله وقلبه، فالتجربة المباشرة هي وحدها التي تكشف له عظمة هذا الكتاب الإلهي وصدق كلماته.

ربّما خطر ببالكم هذا السؤال: إذا كان حديثنا عن ما وراء الطبيعة، وعن خلق الحياة من قِبَل الله تعالى صحيحًا، فماذا يقول إذًا أولئك الذين يُسّمون أنفسهم مفكّرين ويؤلّفون الكتب عن نشوء الحياة من تفاعل الأحماض الأمينيّة والظواهر العَرَضيّة التي يُفترض أنّها أدّت إلى ظهور الحياة؟

في رأيي، لو أنّ هؤلاء الأشخاص كانت لهم صلةٌ عمليّةٌ حقيقيّة بالعلم والتكنولوجيا، أعني صلة تنفيذ وتصميم لا مجرّد

قراءة، كأن يكون أحدهم مصمّمًا ومُنشئًا لطائرةٍ بنفسه، أو عاملاً فعليًّا في صناعة البوليمرات في الكيمياء الصناعيّة، أو مبتكرًا في ميدان الخلق والاختراع، لما عبّروا عن مثل هذه الآراء.

فهؤلاء في الغالب أشخاصٌ يتعاملون مع كلماتٍ مثل «طائرة» و«صاروخ» و«ذرّة» و«نجم» ببساطةٍ بالغة، وكأنّهم لو خصّصوا ثلاث ساعاتٍ من وقتهم الثمين لأمكنهم صنع واحدٍ منها!

أمّا مهندس الطيران، فعندما يتحدّث عن طائرةٍ كـ F-16، يتحدّث عنها بإجلالٍ واحترام، لأنّه يدرك مدى التعقيد المذهل في تصميمها وصناعتها.

بينما الفيلسوف الذي لم يرَ هذه الطائرة إلّا في الكتب، يتحدّث عنها بلهجةٍ مختلفة تمامًا.

بمعنى آخر: إنّ الذين يطرحون مثل هذه الفرضيّات هم أناسٌ يعرفون العلم والتكنولوجيا والخلق معرفةً سطحيّةً

ظاهريّة، دون أن يكون لهم فيها أيّ ممارسةٍ واقعيّة.

قبل مدّةٍ شاهدتُ في التلفاز برنامجًا عن أستاذٍ جامعيٍّ يابانيٍّ كان يحاول صناعة «ميكرو-روبوت»؛ أي روبوتات صغيرة جدًّا تُستعمل في الأغراض الطبيّة.

وقد بدأ بدراسة النماذج الطبيعيّة ليستلهم منها التصميم، نخلص إلى نتيجةٍ مذهلة: أنّ الإنسان - بسبب تعقيده الذي يفوق الخيال - لا يمكن أن يكون نموذجًا يُحتذى به.

لذلك اختار الصرصور نموذجًا له، لأنّ عدد خلايا دماغه قليلٌ جدًّا ويُعدّ من أبسط المخلوقات.

قام بقطع أرجل الصرصور، ثمّ ربط أسلاكًا دقيقةً بعضلاته، وبدأ بإرسال إشاراتٍ كهربائيّةٍ من الحاسوب لتحريكها، ثمّ صمّم آليّةً بالغة التعقيد مكّنته من أداء حركاتٍ بسيطة.

لكنّ المدهش أنّ هذا العالِم - وهو يتحدّث عن خلق

الصرصور - كان يتكلّم بإجلالٍ وتعظيمٍ جعلني أقول في نفسي: لعلّ قلّةً من العلماء الدينيّين الذين قضوا أعمارهم في العبادة يدركون عظمة الله كما أدركها هذا العالِم المتخصّص في الروبوتات.

إنّ مهندس الطيران يدرك أيّ عظمةٍ في مخلوقٍ صغيرٍ كالبعوضة، يطير بأجنحةٍ وزنها أجزاء من الألف من الغرام، مزوّدةٍ بأنظمة تحكّمٍ وموازنةٍ واستشعارٍ دقيقةٍ تفوق قدرات الإنسان.

وكذلك الكيميائيّ الذي يعرف مادّة الـ Kevlar، وهي مادّةٌ صناعيّةٌ أمريكيّة أنتجتها شركة DuPont بعد ثمانية أعوامٍ من البحث، وتضاهي الفولاذ في قوّتها، حين يرى أنّ عنكبوتًا ضئيل الحجم ينسج خيطًا أشدّ متانةً من Kevlar، يدرك يقينًا قدرة الخالق جلّ جلاله.

وبالمناسبة، ليس غريبًا أن نجد في القرآن الكريم سورًا

سُمّيت بأسماء مخلوقاتٍ ذات تعقيدٍ وأهميّةٍ خاصّة في الخلق، مثل العنكبوت والنمل والنحل.

وقد أُلّفت في العقود الأخيرة كتبٌ علميّةٌ كثيرة بأسماء هذه المخلوقات، تُبيّن شيئًا من إعجاز بنائها ووظائفها، في حين أنّ أحدًا في زمن نزول القرآن لم يكن يعلم شيئًا عن أسرارها العلميّة.

تحدّثنا كثيرًا عن العلم والتكنولوجيا، لكنّ القصد من هذا الحديث هو التأكيد على أنّ تكنولوجيا الخلق، وشعور الكائنات الحيّة - حتى أبسط الخلايا المفردة - هي أمورٌ تتجاوز إدراك البشر.

وأنّ الذين يظنّون أنّ بإمكانهم خلق الذكاء والوعي عبر خلط بعض الموادّ الكيميائيّة في أنبوب اختبار، لم يفهموا بعد المعنى الحقيقيّ لهاتين الكلمتين: الذكاء والشعور.

# المعجزات الرياضيّة في القرآن الكريم

لتحليل حقيقة القرآن الكريم وبيان إعجازه، نبدأ بما يُعرف بـ «الشبكة الرياضيّة في القرآن».

في عام 1976م اكتشف الدكتور رشاد خليفة، الأستاذ المصري في اختصاص الكيمياء الحيويّة بجامعة كاليفورنيا، شبكةً عدديّة معقّدة ومذهلة تقوم على الرقم 19 في بنية القرآن الكريم، وذلك بمساعدة الحاسوب.

وبعبارةٍ أخرى، أراد الله تعالى أن يجعل من هذا الرقم دليلًا على أنّ القرآن ليس من صنع البشر، بل هو كتابٌ إلهيّ مُحكم النسق، إذ أودع سبحانه الرقم 19 في عدد الحروف والكلمات والآيات بطريقةٍ دقيقةٍ تجعل القرآن أشبه بشبكةٍ رياضيّةٍ متكاملةٍ لا يمكن التلاعب بها؛ فلو حُذفت آيةٌ أو أُضيفت، لاختلّ هذا التوازن البديع وانكشف الخلل فورًا.

**من أين بدأ الدكتور رشاد خليفة؟**

استلهم فكرته من سورة المدّثّر، حيث ورد ذكر العدد تِسْعَةَ عَشَرَ، قال تعالى:

**"وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ"** (المدّثّر: 31)

ربّما استوحى الدكتور رشاد خليفة فكرته من هذه الآية العجيبة، فظنّ أنّ للعدد تسعة عشر خصائصَ خاصّة في القرآن الكريم. فاستعان بالحاسوب ليدرس العلاقات العدديّة بين الآيات والحروف، حتّى توصّل إلى اكتشاف هذه الشبكة الرياضيّة المدهشة في القرآن.

**لكن كما سنبيّن لاحقًا، فإنّ السير في الطريق الإلهيّ من غير أستاذٍ مرشدٍ قد يُعرّض صاحبه للانحراف.**

وقد أصيب الدكتور رشاد خليفة في أواخر حياته بزللٍ

فكريٍّ خطير، إذ ادّعى الرسالة، وزعم أنّ آخر آيتين من سورة التوبة ليستا من القرآن، وهو قول باطل.

وقد قُتل الدكتور رشاد خليفة سنة 1990م في الولايات المتحدة، ولم تلقَ اكتشافاته صدىً كبيرًا في الغرب، بينما تهرّب دور النشر التي تُروّج لكتبٍ مثل الآيات الشيطانيّة من نشر أيّ بحثٍ يُثبت إعجاز القرآن.

وفي العالم الإسلامي، لم تنل دراساته الاهتمام الكافي بسبب ضعف الوعي العلميّ وقلّة البحث في الجوانب الإعجازيّة للقرآن الكريم.

من الجدير بالذكر أنّ العلماء اختلفوا في تقييم بعض ما طرحه رشاد خليفة، لذا سنقتصر في هذه السلسلة على عرض الجوانب التي حظيت بتأييدٍ واسعٍ بين الباحثين والمختصّين.

قولُ اللهِ تعالى:

**«مَنِ اسْتَمَعَ القَوْلَ فَاتَّبَعَ أَحْسَنَهُ»** (الزمر: 17-18)

أي: استمعوا إلى الأقوال، فخذوا بأحسنها وأقومها.

## كود التوراة واختلافه عن النظام الرياضي في القرآن

عندما صادفتُ لأول مرة العلاقات الرياضية العجيبة والمنسجمة في القرآن الكريم، أدهشني ذلك أيّما دهشة. وكلّما تعمّقتُ في البحث والدراسة، ازددتُ يقيناً بأن مثل هذا النظام العددي الدقيق لا يوجد في أيٍّ من الكتب السماوية الأخرى.

وفي المقابل، ظهرت في الغرب نظرية تُعرف باسم «كود الكتاب المقدّس» أو «كود التوراة»، تدّعي أنّ في نصّ التوراة رسائل خفيّة ونبوءاتٍ مسبقة. وقد اشتهرت هذه الفكرة بعد صدور كتاب بعنوان The Bible Code سنة 1997، ثم الجزء الثاني منه The Bible Code II سنة 2002، وقد لاقت رواجاً واسعاً وتصدّرت قوائم المبيعات آنذاك.

غير أنّ الدراسات العلمية اللاحقة، ومن بينها أبحاثُ

أُجريت في الجامعة العبرية في القدس والجامعة الوطنية الأسترالية، أثبتت أنّ هذه الادعاءات تفتقر إلى الأساس العلمي والإحصائي المتين. فقد تبيّن أنّ التراكيب اللفظية التي بدت ذات معنى في ما يُسمّى «كود الكتّاب المقدّس» يمكن أن تظهر بصورةٍ عشوائية في أي نصٍّ طويلٍ آخر، بل حتى في رواياتٍ أدبيةٍ مثل الحرب والسلام لتولستوي.

ومن ثمّ، اتضح أنّ ما يُسمّى بـ«كود التوراة» لا يعدو أن يكون تفسيراً اعتباطياً وانتقائياً لأنماطٍ لغويةٍ عادية، لا نظاماً رياضياً إلهياً. أمّا القرآن الكريم، فإنّ نظامه العددي قائمٌ على علاقاتٍ دقيقةٍ ومتكرّرةٍ بين الحروف والكلمات والآيات، وهو نظامٌ محكمٌ لا يمكن أن يكون وليد المصادفة ولا قابلاً للتقليد البشري، ممّا يجعله معجزةً حيّةً خالدةً على مرّ العصور.

## الإسلام وتشويه صورته في العالم المعاصر

في عصرنا الحاضر، ترى إمبراطوريّة القوّة والمال والفساد أنّ مصالحها لا تكتمل إلّا بتشويه صورة الإسلام في العالم. وكما تلاحظون، فإنّ أغلب المؤسّسات الإعلاميّة والدعائيّة الكبرى في العالم واقعة تحت نفوذ هذه الإمبراطوريّة التي تبذل كلّ جهدها لتقديم صورةٍ مشوّهة عن الإسلام؛ صورةٍ تُظهره متخلّفًا، إرهابيًّا، فقيرًا، متزمّتًا، ومنعزلًا عن الحضارة.

وللأسف، فإنّ البساطة الذهنيّة والفقر الثقافي في كثيرٍ من البلدان الإسلاميّة ساعدت على تغذية هذا الاتجاه. فهناك من الناس من يظنّ أنّ كلّ ما يأتي من وراء البحار عبر شاشات الأقمار الصناعيّة هو وحيٌ لا يُخطئ، فيسير وراءه مبهورًا، كأنّه جنديّ مأجور بلا أجر، يخدم أعداء دينه دون أن يشعر.

ومن أوضح مظاهر هذا التشويه ما يُسمّى بالأفلام

"المهرجانيّة"، أي تلك التي تُنتَج بتمويل مؤسّساتٍ ثقافيّةٍ وإعلاميّةٍ ضخمة وتُعرَض في المهرجانات العالميّة الكبرى.

ولو تأمّلنا قليلًا، لرأينا أنّ أغلب هذه الأفلام تتّفق في شيءٍ واحد: التأكيد على فقر المسلمين وتخلّفهم وبؤسهم.

فمن أراد أن يُكرَّم في مهرجان "كان"، يكفيه أن يملأ شاشته بصور الأكواخ الطينيّة، والطرقات الموحلة، والأطفال المتّسخين، والعجائز الرُقاة، والصحارى القاحلة!

قرأتُ ذات يومٍ مقالًا لطالب دكتوراهٍ مسلمٍ يدرس في هولندا. كتب يقول:

"كنتُ أتباهى دائمًا أمام زملائي الهولنديين بثقافة بلادي وتاريخها وحضارتها، فلمّا سمعتُ أنّ أحد الأفلام الإسلاميّة اختير في أحد المهرجانات، اشتريتُ التذاكر ودعوتُ أصدقائي لمشاهدته معي. لكن ما إن بدأ الفيلم حتّى غمرني العار، إذ كان يصوّر المسلمين شعبًا بائسًا جاهلًا متخلّفًا. وعندما انتهى العرض، كانت نظرات الشفقة والاستهزاء في

عيون أصدقائي أشدّ عليّ من كلّ ما شاهدته على الشاشة."

وهنا يطرح السؤال نفسه:

لماذا تُنفَّذ الحملات الدعائيّة ضدّ الإسلام بكلّ هذا البذخ والضجيج، بينما يُقمع كلّ صوتٍ نزيهٍ يدافع عنه؟

أليس هذا التنسيق العالميّ في العداء برهانًا على صدق الإسلام وتهديده لمصالحهم؟

إنّ كبار المموّلين لهذه الحملات هم أنفسهم أصحاب مؤسّسات القمار والفجور في مدنٍ كـ لاس فيغاس و رينو، وأرباب المافيات التي تُغرق العالم سنويًا بأطنانٍ من الهيرويين والكوكايين والسموم المخدّرة التي تقتل العقل والروح.

فهل يُعقل أن يقف هؤلاء المفسدون في صفّ الحقّ؟ ألا يدلّ عداؤهم على أنّ الإسلام هو النور الوحيد الذي يُرعبهم؟

ومع ذلك، فإنّ الخطر الأكبر لا يكمن في أعداء الإسلام فحسب، بل في المدافعين عنه بطريقةٍ خاطئة.

قال العارف الكبير سعدي الشيرازي:

**«إنْ قرأتَ القرآنَ على هذا النحوِ الخاطئ، أطفأتَ نورَ الإسلام.»**

أي: إنّ من يعرض الدين بأسلوبٍ جاهلٍ ومنفّرٍ، يُسهم في إضعافه أكثر ممّا يخدمه.

إنّ الحملات التبشيريّة للمسيحيّة وبعض الأديان الأخرى تُدار وفق أسسٍ علميّةٍ ونفسيّةٍ مدروسة، بينما يعاني الخطاب الإسلاميّ من العشوائيّة والسطحيّة، بل أحيانًا من الضرر الذاتيّ.

## لماذا يميل بعض الشباب إلى الأديان الأخرى؟

في عددٍ من الدول النامية، ونتيجةً لغياب التربية الدينيّة السليمة وانتشار المفاهيم المغلوطة، بدأ بعض الشباب ينجذبون إلى المسيحيّة ظنًّا منهم أنّها رمز التقدّم والتحضّر. ترى بعضهم

يعلّق الصليب على صدره أو يتشبّه بالغرب في مظهره، لا حبًّا في الدين، بل بحثًا عن صورةٍ يُعجب بها الآخرون.

وحين يُعرض فيلمٌ عن السيدة مريم عليها السلام بموسيقى مؤثّرةٍ ومشاهد مفعمةٍ بالحنان والجمال والعاطفة، بينما تُقدَّم حياةُ كبار المسلمين على أنّها حروبٌ ودماءٌ وقسوة، فمن الطبيعيّ أن ينجذب قلب الشابّ إلى ما يبدو أرقّ وأجمل.

ولو أنّهم صوّروا الإمام عليًّا كرّم الله وجهه كما كان حقًّا – خليفةً على أعظم دولةٍ في الأرض يحمل كيس الدقيق على كتفه ليطعم الفقراء، ويلبس الثوب المرقّع تواضعًا لله – لامتلأت القلوب بحبّه واتباعه.

فهل يُستغرب بعد ذلك أن ينفر الشباب من الإسلام وهم لا يرون منه سوى وجوهٍ غليظة وأفعالًا فاسدة باسم الدين؟

أليست الفساد والظلم والعنف التي يمارسها بعض من يُحسبون على الإسلام هي السبب الأكبر في تشويه صورته بين الناس؟

## القرآن الكريم... الكتاب الذي لا مثيل له في تاريخ البشر

إنّ القرآن الكريم نزل على النبيّ محمّد ﷺ وحيًا من عند الله تعالى، وكان يتلو آياته بلا تمهيدٍ ولا إعدادٍ مسبق، فيكتبها بعض أصحابه على ما تيسّر من أدوات الكتابة في ذلك الزمان، كالرِّقاع والجلود والعظام وسعف النخل.

وبعد انتقال النبيّ ﷺ إلى الرفيق الأعلى، وقعت معركةٌ استُشهد فيها سبعون من حفظة القرآن، ففكّر المسلمون في جمع الآيات والسور في مصحفٍ واحدٍ حفظًا لكلام الله من الضياع. فتمّ هذا العمل الجليل بإشرافٍ دقيقٍ في صدر الإسلام. ثمّ نُسخت نسخٌ من المصحف الأصليّ وأُرسلت إلى الأمصار الكبرى في العالم الإسلاميّ مع قرّاءٍ متقنين، وما زالت بعض هذه النسخ قائمةً إلى اليوم. وهكذا حفظ الله تعالى كتابه من التحريف والتبديل عبر القرون.

القرآن يتكوّن من مئةٍ وأربع عشرة سورة، منها القصير الذي لا يتجاوز بضع آيات، ومنها الطويل الذي يبلغ مئتين أو ثلاثمئة آية.

قال الله تعالى في سورة يونس، الآيتين ٣٧-٣٨:

**"وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ.**

**أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ"**

في هاتين الآيتين يدعو الله تعالى جميع البشر، في كلّ زمانٍ ومكان، إلى التحدّي والمقارنة، فيقول لهم:

إن زعمتم أنّ هذا القرآن من كلام البشر، فهاتوا سورةً واحدةً تماثله في الفصاحة والبلاغة والعمق.

لقد حاول الأدباء والمشركون على مرّ العصور الردَّ على هذا

التحدّي، فكتبوا نصوصًا أرادوا بها تقليد أسلوب القرآن، ولكنّها جاءت ركيكةً ضعيفةً، خاليةً من روح البيان الإلهيّ. وهكذا بقي التحدّي قائمًا، وبقي القرآن معجزًا خالدًا.

## الأنبياء وشمول الرسالة الإلهيّة

قد يتساءل البعض: لماذا جاء أكثر الأنبياء من منطقة الشرق الأوسط؟ أليس سائر البشر عبادَ الله أيضًا؟

والجواب: إنّ الله تعالى أرسل رسله إلى جميع الأمم، كما قال سبحانه في سورة الإسراء، الآية ١٥:

**"مَنْ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا"**

أي: من اهتدى، فإنّما ينتفع بهداه، ومن ضلّ، فعلى نفسه يضلّ، ولا يُحاسَب أحدٌ بذنب غيره، ولن يُعذَّب قومٌ حتّى

تُقام عليهم الحجّة برسولٍ منهم.

أما ما ورد في القرآن من قصص الأنبياء، فهو ما يتعلّق بالمنطقة التي بُعث فيها النبيّ ﷺ، إذ قال تعالى في سورة النساء، الآية ١٦٤:

**"وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا"**

حين يذكر القرآن أنّه يصدّق الكتب السماويّة السابقة، فليس المقصود أنّه يقرّ التحريفات التي طرأت عليها، بل إنّه يؤكّد ما أنزل الله فيها من الحقّ قبل أن تمتدّ إليها يد التبديل.

وفي هذا السياق تُروى رواية لطيفة عن عليّ بن أبي طالبٍ كرَّم الله وجهه، إذ جاءه أحدُ علماء بني إسرائيل يسأله قائلاً: يا أبا الحسن، لِمَ ذكرَ القرآن الكريم في الآية الخامسة

والعشرين من سورة الكهف أن أصحاب الكهف لبثوا في كهفهم ثلاثمائة سنةٍ وازدادوا تسعاً، بينما ورد في التوراة أن مدّة مكثهم كانت ثلاثمائة سنة فقط؟

فأجابَ كرَّم الله وجهه:

**«كلاهما صحيح، لأنّ القرآن تحدّث عن السنين القمريّة، والتوراة عن السنين الشمسيّة.»**

وقد برهن أحد علماء الفلك العرب على هذه الحقيقة حسابيًّا:

فالسنة الشمسيّة ٣٦٥ يومًا، فـ٣٠٠ سنة شمسيّة تساوي ١٠٩٥٠٠ يوم.

أمّا السنة القمريّة فمدّتها ٣٥٤ يومًا و٨ ساعاتٍ و٤٨ دقيقة، أي نحو ٣٥٤,٣٣ يومًا.

فإذا ضربنا ٣٠٩ سنة قمريّة في هذا العدد، نحصل على

١٠٩٥٠٠ يوم.

وهكذا يثبت أنّ التعبير القرآنيّ أدقّ علميًّا من النصّ التوراتيّ.

**من أعجب خصائص القرآن أنّه خالٍ من أيّ تناقضٍ أو اختلافٍ، على الرغم من أنّه نزل متفرّقًا خلال ثلاثٍ وعشرين سنة، في ظروفٍ متنوّعةٍ، وعلى نبيٍّ أُمّيٍّ لا يقرأ ولا يكتب.**

قال الله تعالى في سورة النساء، الآية ٨٢:

**"أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا"**

ويكفي أن نعلم أنّ الكاتب الروسيّ الشهير تولستوي أعاد كتابة روايته الحرب والسلام أكثر من عشرين مرّة ليبلغ نصًّا متماسكًا، بينما نزل القرآن مرّةً واحدة، بلا تعديلٍ بشريّ،

ومع ذلك جاء في غاية الإحكام والاتّساق.

**ومن أوجه إعجاز القرآن أيضًا نغمه الموسيقيّ الفريد، الذي لا يشبه نثرًا ولا شعرًا، بل هو أسلوبٌ خاصّ يجمع بين فخامة البيان ولطافة التأثير.**

إنّ تلاوة القرآن بصوتٍ حسنٍ تكشف هذا الإعجاز السمعيّ الذي يأسر القلب والعقل معًا؛ فهو كلامٌ يُتلى فيلامس الأرواح قبل الأسماع.

لقد عجز الشعراء والبلغاء في كلّ عصرٍ عن الإتيان بنظمٍ يُشبهه، فظلّ القرآن وحده قمّة الفصاحة وذروة البلاغة إلى يوم القيامة.

## تفوق القرآن على سائر الكتب السماوية

إذا نظرنا نظرةً مقارنة إلى الكتب السماوية المتداولة اليوم، نجد أنّ أيًّا منها لا يُقارن بالقرآن الكريم في بنائه، وتناسقه، وعمق معانيه، وإعجازه اللغوي والبياني.

ولهذا يمكن القول إنّ نزول القرآن قد نسخ ما سبقه من الكتب، وجعل منه الكتاب الإلهي الخاتم والأكمل.

قال الله تعالى في الآية (٢٨) من سورة الفتح:

**"هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا"**

تدلّ هذه الآية على أنّ دين الحقّ الذي جاء به النبيّ محمد ﷺ سيظهر على الدين كلّه، وأنّ رسالته هي خاتمة الرسالات السماوية.

ومن أبرز دلائل مصدرية القرآن الإلهية أن النبي ﷺ كان أمّيّاً، لا يقرأ ولا يكتب.

قال تعالى في الآية (٤٨) من سورة العنكبوت:

**"وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ"**

فلو كان النبي ﷺ متعلماً، لكان للمبطلين مجال للشكّ في أنّ القرآن من عند الله.

لكنّ أميّته كانت في ذاتها برهاناً قاطعاً على أنّ هذا الكتاب وحيٌ من ربّ العالمين، لا من صنع البشر.

## الشبكة الرياضية في القرآن وعدد (١٩)

كما ذكرنا سابقاً، فقد اكتشف العالِم المصري الدكتور رشاد خليفة، أستاذ الكيمياء الحيوية في جامعة كاليفورنيا، عام ١٩٧٦م، نظاماً رقمياً مدهشاً في القرآن الكريم يعتمد على العدد (١٩). وبيّن من خلال دراساته أنّ البنية الرياضية للقرآن قائمة على مضاعفات العدد ١٩ (مثل ١٩×٢،

١٩×٣، إلخ). والعدد (١٩) عددٌ أوّلي، لا يُقسم إلا على نفسه وعلى الواحد. كما أنه يجمع بين أصغر رقم (١) وأكبر رقم (٩)، فهو من الناحية الرمزية يمثل البداية والنهاية، والتمام والكمال.

كان أوّل وحيٍ نزل على النبي ﷺ وهو في سنّ الأربعين، متعبّداً في غار حراء، على جبل النور، على بُعد خمسة كيلومترات شمال مكة. فجاءه جبريل عليه السلام وقال له:

"اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ" (العلق: 1)

وهذه الآيات الخمس الأُوَل من سورة العلق تحمل نظاماً عدديّاً دقيقاً:

«بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ» التي في بداية السورة تتكوّن من ١٩ حرفاً.

الآيات الخمس الأولى تتكوّن من ١٩ كلمة.

وهذه الكلمات التسع عشرة تتألّف من ٧٦ حرفاً، أي (٧٦ = ١٩ × ٤).

سورة العلق نفسها تتكوّن من ١٩ آية.

وهي السورة التاسعة عشرة من نهاية المصحف.

وعدد سور القرآن كلّه ١١٤ سورة، أي (١٩ × ٦).

وهكذا يظهر النظام العددي القائم على العدد ١٩ منذ أول لحظات نزول الوحي.

قال الله تعالى في الآية (٣٠) من سورة المدّثر:

**"عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ"**

وقد فَسّر الباحثون هذا العدد بأنه إشارة رمزية إلى النظام الرياضي في القرآن، لأنّ الله تعالى قال قبل ذلك: **"لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ"** (المدّثر: 28)

لا تبقي ولا تذر – أي لا تترك شيئاً خارج النظام، ولا تزيد عليه شيئاً.

فكلّ تركيب في القرآن داخل في هذا النسيج الرقمي المحكم القائم على العدد ١٩.

## سرّ العدد ١٩ في «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ»

عدد سور القرآن ١١٤ سورة (١٩×٦).

لكنّ «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ» لا تُذكر في مطلع جميع السور، فـ سورة التوبة تخلو منها لأنها نزلت إعلاناً للبراءة من المشركين، لا رحمةً لهم.

وعليه، يبدو أن عدد البسملات ١١٣ فقط، أي ليس مضاعفاً للعدد ١٩.

إلا أنّ الله تعالى أعاد التوازن الجميل في سورة النمل، حيث وردت بسملة إضافية في سياق قصة سليمان وبلقيس، قال

تعالى: " إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ"

(النمل: 30)

وبذلك أصبح مجموع «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ» في القرآن ١١٤ مرة (١٩×٦)، فعاد النظام العددي إلى كماله العجيب.

آخر سورة نزلت على النبي ﷺ هي سورة النصر، وهي تتكوّن من ١٩ كلمة، وآيتها الأولى:

"إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ"

تتكوّن من ١٩ حرفاً أيضاً،

لتكون آخر شاهد عددي على استمرار هذا الإعجاز حتى آخر لحظة من نزول الوحي.

إنّ هذا النظام الرياضي المعجز في القرآن ليس صدفةً، بل هو برهان علمي على مصدره الإلهي.

من أوّل آية نزلت في غار حراء إلى آخر آية أُنزلت في المدينة، ظلّ العدد ١٩ ختماً ربّانياً يدلّ على وحدة المصدر، وكمال الترتيب، وإعجاز البيان.

من بين الأمور الخارقة التي اكتشفها الدكتور رشاد خليفة في ما يتعلّق بالقرآن الكريم، مسألة الحروف المقطّعة التي تأتي في أوائل بعض السور.

فالقرآن هو الكتاب الوحيد في تاريخ البشريّة الذي تبدأ بعض سوره بحروف رمزيّة مختصرة تُعرف في العربيّة باسم الحروف المقطّعة.

وهذه الحروف تبدو في ظاهرها بلا معنى مباشر، ولكنها تحمل سرًّا إلهيًّا عجيبًا.

ومن بين الثمانية والعشرين حرفًا في الأبجديّة العربيّة، نجد أنّ أربعة عشر حرفًا فقط استُخدمت في هذه الافتتاحيّات القرآنيّة، وقد جاءت في أربعة عشر تركيبًا مختلفًا.

ومن أمثلة ذلك سورة القلم، التي تبدأ بالحرف «ن» حيث يقول الله تعالى:

"ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ"

أي: قسمٌ بالقلم وما يكتبون.

ومن المعلوم أنّ النبيّ ﷺ كان أميًّا لا يقرأ ولا يكتب، فلو كان هذا الكلام من عنده، لما أقسم بالقلم، لأنّه لم يكن من الكتّاب.

وإذا قمتم بعدّ حرف النون (ن) في هذه السورة، وفقًا للرسم العثماني في مصحف المدينة، فستجدون أنّ عددها 133 نونًا، أي 7 × 19.

ولا توجد في القرآن كلّه أيّ سورة أخرى جاءت فيها الحروف المقطّعة متضمّنة حرف «ن»، فهو مختصّ بسورة القلم فقط.

أما حرف القاف (ق)، فقد جاء في موضعين اثنين من

القرآن. الأوّل في مطلع سورة ق:

**"ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ"**

والثاني في مطلع سورة الشورى حيث يقول تعالى:

**"حم (1) عسق (2)"**

ولا توجد أيّ سورة أخرى في القرآن تحتوي على حرف «ق» ضمن حروفها المقطّعة.

وإذا قمتم بعدّ حرف القاف (ق) في سورة ق، فستجدون أنّ عددها 57 قافًا، أي 3 × 19،

وفي سورة الشورى أيضًا العدد نفسه 57 = 3 × 19،

وبذلك يكون مجموع القافات في السورتين:

114 = 57 + 57، وهو العدد نفسه لعدد سور القرآن الكريم. ولهذا يُفهم من قوله تعالى:

**"ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ"**

أنّ الله تعالى جعل في هذا الحرف رمزًا للقرآن كلّه، وكأنّ

كلّ سورة من سور القرآن تمثّلها «قاف» واحدة.

وقبل أن نتابع سائر الجوانب الرقميّة في القرآن، يجدر بنا أن نتذكّر أنّ النبيّ ﷺ حين كان يتلقّى الوحي ويدعو الكتّاب لتدوين الآيات، كان يتلوها بيسرٍ ووضوحٍ عجيب، وكأنّه يقرأ من كتابٍ مكتوب أمامه، حتّى إنّ من يسمعه يظنّ أنّه يحفظ الكتاب كلّه عن ظهر قلب.

واليوم، في القرن الحادي والعشرين، لو كان أحدنا عالمًا في الحاسوب ومتخصّصًا في الرياضيّات، لما استطاع أن يؤلّف نصًّا أدبيًّا بهذه البنية الرقميّة المعقّدة، مكوّنًا من نحو ستمائة صفحة دون أيّ تناقضٍ، ويحفظه عن ظهر قلب.

فإذا كان هذا غير ممكنٍ في عصر التكنولوجيا، فكيف يُعقل أن يكون قد فعله رجلٌ أُمّيّ عاش في صحراء العرب قبل أكثر من أربعة عشر قرنًا؟

إنّ القول بذلك ظلمٌ بيّنٌ للعقل والحقّ.

نعود إلى موضوعنا:

لقد أوضح الدكتور رشاد خليفة أنّ الله سبحانه وتعالى رتّب عدد القافات في سورة ق بحيث يبقى مضاعفًا للعدد 19 بدقّةٍ عجيبة.

ففي هذه السورة ذُكر قوم لوط اثنتي عشرة مرّة بلفظ «قوم لوط»،

ولكن في آيةٍ واحدة هي الآية 13 سمّاهم الله «إخوان لوط» بدل «قوم لوط».

ولو لم تَرِد هذه الاستثناء، لاختلّ التناسق العدديّ للحرف «ق».

ويصف القرآن قوم لوط بأنّهم قومٌ فاسقون ارتكبوا الفاحشة، فأنزل الله بهم عذابه بسبب إصرارهم على فعلٍ مخالفٍ للفطرة الإنسانيّة.

وأودّ أن أذكّر أنّ ما ذُكر هنا ليس سوى جزءٍ من الإعجاز العدديّ في القرآن الكريم، فهناك أمثلة أخرى كثيرة وردت في كتبٍ متخصّصة. وإنّما ركّزنا على بحوث الدكتور رشاد خليفة لأنّها لا تحتاج من القارئ معرفةً بالعربيّة، بل يكفي أن تكون له عينان تبصران وقدرة على العدّ من 1 إلى 19 ليرى جانبًا من هذا الإعجاز.

**أمّا الإعجاز البلاغيّ والبيانيّ في القرآن، فهو بلا شكّ أعظم وأسمى من الإعجاز العدديّ.**

لقد تبيّن لنا الآن أنّ القرآن الكريم هو حقّ، وهو كلام الله تعالى الذي لم يلحقه أيّ تحريف منذ أن أُنزل إلى يومنا هذا.

وقبل القرآن، كانت هناك كتب سماوية أخرى نزلت لهداية البشر، ولكنّها لم تُحفظ كما حُفظ القرآن، ولذلك اختلفت نصوصها الحالية عمّا أنزلها الله في الأصل.

قال الله تعالى في الآية (44) من سورة المائدة:

**"إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ"**

ونحن ندعو أتباع الديانات الأخرى إلى قراءة القرآن الكريم، لأنّهم سيجدون فيه أجوبةً لكثيرٍ من تساؤلاتهم، خصوصاً فيما يتعلّق بعقيدة تأليه السيّد المسيح عليه السلام، وهي عقيدةٌ يرفضها العقل الصريح، وقد ردّها القرآن بوضوح في قوله تعالى في الآية (171) من سورة النساء:

**"يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا**

ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا"

ثم يقول سبحانه في الآية (172):

"لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا"

ويقول تعالى في الآية (75) من سورة المائدة:

"مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ"

أي: ما المسيح بن مريم إلا رسول، قد سبقه رسلٌ كثيرون، وأمه صِدّيقة، وكانا يأكلان الطعام، فانظر كيف نبيّن لهم الآيات، ثم انظر كيف يُصرفون عن الحق.

وفي الآية (110) من السورة نفسها يقول الله تعالى:

"إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ"

# تقييم طُرق السلوك إلى الله

في هذا الجزء سنتناول بالبحث طُرق التقرّب إلى الله تعالى.

هناك طريق يقوم على غير علم ولا تجربة، مبنيّ على الحدس والتخمين، ويُسمّى في المصطلح الغربي Ad hoc، وهو للأسف الطريق الذي يسلكه أكثر الناس، فلا يصلون إلى نتيجة حقيقية.

أما الطريق الآخر فهو الطريق العلمي المجَرَّب، ونحن - استنادًا إلى ثبوت صدق القرآن لدينا - سنتّبع هذا النهج العلمي المستنير بنور الوحي.

قبل أن نخوض في هذا المنهج، دعونا نقوّم الطريق الذي يسلكه أكثر الناس في مسعاهم إلى التقرب من الله.

فاليوم، يعيش أغلب سكان الأرض على المعتقدات التي ورثوها عن آبائهم وأجدادهم، دون أن يتفكروا بجدّية في ما إذا كانت تلك المعتقدات حقًّا أو باطلًا.

ولهذا يخبرنا الله تعالى في الآية (116) من سورة الأنعام:

**"وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ"**

أي: إن تُطع أكثر الناس في الأرض أضلّوك عن سبيل الله، لأنهم لا يتبعون إلا الظنّ، وما هم إلا مفترون على الله الكذب.

نسبة قليلة من الناس، بدافع الفضول أو المصادفة، يتعرّفون إلى طرق أفضل من تلك التي ورثوها، ولكنهم ما إن يدركوا أنّ تغيير المعتقد والسلوك يجرّ عليهم مشكلات اجتماعية وعائلية كثيرة، حتى يتراجعوا مفضّلين الاستسلام لعادات المجتمع على مواجهة الحقيقة.

وهكذا يختارون أن يعيشوا على خطأ موروث تجنباً للمشقّة والاضطهاد.

لقد شرعنا منذ مدة في إقامة مجالس عرفانية لتعريف الناس بمعجزات القرآن وحقائق التصوّف الإسلامي، فحضرها بعض الشباب المسيحيين الباحثين عن الحقيقة، وبعد اقتناعهم بالقرآن أسلموا، غير أنّ كثيرين منهم واجهوا رفضًا قاسيًا من أسرهم التي لم تقبل بسهولة تخلّي أبنائها عن دين الآباء والأجداد.

ومثل ذلك يحدث في كثير من الأديان والمذاهب، إذ يمنع القادة أتباعهم من التفكير والتأمل، ويقابلون كل من يسأل أو يشكّ بالتكفير والطرد!

غير أنّ هذا الأسلوب القهري لا يزيد الناس إلا نفورًا ونفاقًا، فيصبح ظاهرهم غير باطنهم، وهو من أبرز أسباب ما نراه اليوم من التناقض والنفاق في المجتمعات.

وقد نهى الله تعالى في القرآن عن مجادلة الناس بالعنف أو الإكراه، فقال في الآية (125) من سورة النحل:

"ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ"

إذا عدنا إلى موضوعنا الأساس، نجد أنّ القرآن يقرّر أن أكثر الناس في زمن النبي ﷺ كانوا ضالّين.

فلو قدّرنا أن سبعين من كل مئة شخص في الأرض كانوا في ضلال قبل ألفٍ وأربعمئة عام، فبسبب تفشّي الفساد في عصرنا، فربما لا يكون المهتدون اليوم أكثر من عشرة من كل مئة.

وهؤلاء القلّة هم الذين لا يسيرون على مقولة: "خالف تُعرف" أو "كُن مع القوم حيث كانوا".

فمن سار خلف الأكثرية دون بصيرة، فلن يهتدي، بنصّ القرآن الكريم.

وقد أخبر النبي ﷺ عن هذا الحال فقال:

**"بدأ الإسلام غريبًا وسيعود غريبًا كما بدأ، فطوبى للغرباء."**

وفي روايةٍ مَعناها:

**"فطوبى لمن تمسّك بسنتي عند فساد أمّتي، فله أجر مئة شهيد."**

فلننظر الآن إلى مكانة أولئك العشرة من بين المئة الذين هم على طريق الهداية.

يبيّن لنا الله تعالى في سورة الواقعة أنّ الناس يوم القيامة ينقسمون إلى ثلاث فئات:

1. أصحاب المشأمة – وهم أهل الشقاء والذنوب.
2. أصحاب الميمنة – وهم الصالحون من أهل الإيمان والعمل الصالح.
3. السابقون – وهم الأقربون إلى الله تعالى.

قال الله تعالى:

**"وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ۝ أُولَٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ"**

(الواقعة: 10-11)

أي: إن المقربين إلى الله هم فئة السابقين وحدهم، دون غيرهم من الفريقين الآخرين.

وجاء تأكيد ذلك في قوله تعالى في سورة فاطر (الآية 32):

**"فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ"**

أي: منهم من يظلم نفسه بالمعاصي، ومنهم من هو معتدل، ومنهم من يسابق في الخيرات بإذن الله، وذلك هو الفضل العظيم.

إذن، فدخول الإنسان في زمرة السابقين لا يكون إلا بإذن الله، وهو فضل عظيم يمنّ الله به على من يشاء من عباده،

وهؤلاء وحدهم هم المقرّبون في حضرته سبحانه.

ولنقرّب المعنى بمثال:

تخيّل أن الله تعالى ملك عظيم له رعايا كثيرون،

فمنهم من يخدمون الملك ويطيعون أوامره، فيجازيهم بالأجر والثواب (وهم أصحاب الميمنة)،

ومنهم من يتمرد ويعصي فيُعاقَب (وهم أصحاب المشأمة)،

ومنهم من هم من خاصّة الملك وأقربائه، يحبّونه حبًّا صادقًا لا لمصلحة، بل لأنهم من "أهل القصر"، يعيشون بقربه، لا يُطيقون فراقه، ولو غضب عليهم لحظة لبكوا حتى يعفو عنهم.

هؤلاء هم المقربون، أهل المحبة والعشق الإلهي.

وقد أشار العارف الكبير سعدي الشيرازي رحمه الله، الذي كان من أهل التصوف ومن أتباع الشيخ عبد القادر الجيلاني قدس سره، إلى هذا المعنى في قوله:

**إنْ تكنْ عينُكَ على إحسانِهِ**

**فأنتَ عبدُ نَفْسِكَ لا عبدُ الحبيبِ**

**فخلافُ طريقِ الأولياءِ**

**أنْ يطلبوا من اللهِ غيرَ اللهِ**

أي إنّ أهل الطريق لا يطلبون من الله سوى الله ذاته، ولا يرغبون في غير وجهه الكريم.

فلنرَ الآن كم تبلغ نسبةُ هذه الفئة التي تربطها علاقةُ العشق الإلهي بملك الملوك؟ كما أشرنا في بداية الحديث إلى الآية ١١٦ من سورة الأنعام، فإنّ سبعين في المئة من الناس في زمن النبي ﷺ كانوا من الضالّين أو ما يُسمَّون «أصحاب المشأمة»، وفي زمننا الحاضر تبلغ نسبتهم نحو تسعين في المئة. أي أنّ العشرة في المئة الباقية إمّا من «أصحاب الميمنة» أو من «السابقين». وإذا اعتبرنا نسبة السابقين إلى أصحاب الميمنة واحدًا إلى عشرة (وهي في الواقع أقلّ من ذلك)،

فإنّ من بين كلّ مئة إنسان يوجد واحد فقط من السابقين الذين يحبّون الله حبًّا صادقًا، وتسعة يعبدونه من باب التكليف والعادة، وتسعون قد انحرفوا عن سبيل الله وفعلوا ما لا يرضاه، وهذا للأسف ما تؤكّده شواهد الواقع أيضًا.

**وبذلك نعلم أنّ فئة «السابقين» لا تتجاوز واحدًا في المئة من الناس. والسؤال هنا: كيف وصلت هذه الفئة إلى محبّة الله الخالصة، وكيف نالت هذا المقام العظيم عنده؟**

**وقد اشتهر عند أهل السلوك قولٌ يُتداول بهذا المعنى: «من طلبني وجدني، ومن وجدني عرفني، ومن عرفني عشقني، ومن عشقني عشقته» .**

**ولهذا قال العارف الكبير جلال الدين الرومي، وغيره من أولياء الله، إنّ العلم وحده لا يكفي للوصول إلى عشق الله؛ إذ إنّهم، قبل دخولهم عالم العرفان والسلوك، لم يذوقوا هذا**

**العشق، رغم سعة علمهم وكثرة معارفهم.**

وبناءً على هذا المعنى، فإنّ من أراد أن يكون من «السابقين» والعاشقين لله تعالى، لا بدّ له أن يسلك طريق المعرفة (العرفان). فجميع المدارس الروحية منذ القدم اتفقت على أنّ الوصول إلى المعرفة الإلهية وإشعال نار الحبّ في القلب يحتاج إلى واسطة روحية تُعرف بالمعلّم أو الشيخ أو المرشد.

في الهند يُسمّى هذا المرشد غورو، وعند الهنود الحمر يُسمّى سورسرر، وفي العرفان الإسلامي يُسمّى شيخ الطريقة أو المرشد الروحي.

العرفان الإسلامي، الذي يُعدّ من أرقى أشكال العرفان، قد جذب اليوم أعدادًا كبيرة من الناس حول العالم، وهو يمتاز بعمقٍ وأصالةٍ بفضل جذوره القرآنية والنبوية.

لكن في المقابل، هناك فئة أخرى ترى أنّ الإنسان يستطيع

أن يصل إلى الله مباشرةً دون واسطة، اعتمادًا على القرآن والعقل فقط، ويعتبرون الاستشفاع بالأولياء أو التوّسل بهم حرامًا، وينكرون أيّ قوّة روحية لهم أو ارتباط لأرواحهم بعالم الأحياء، ويحرمون القسم بغير الله، ويرون في إقامة الموالد والاحتفال بميلاد النبي ﷺ أو زيارة قبور الأولياء والتبرّك بآثارهم نوعًا من الشرك.

فلنعد الآن إلى السؤال الأساسي: ما الذي يقوم به الشيخ الروحي حتى يكون وجوده ضروريًّا للوصول إلى الله؟

يجيبنا القرآن الكريم في دعاء سيدنا إبراهيم عليه السلام في سورة البقرة الآية ١٢٩:

**"رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ"**

فالتلاوة والتعليم يشيران إلى الجانب العقلي والعلمي، أي إلى الشريعة، أمّا التزكية فهي شيء آخر؛ إنها قوّة تُؤثِّر في القلب من الخارج، وهي عملٌ روحي لا يتحقّق بالعلم فقط.

فالعقل يدرك علم التزكية، أمّا القلب فيعيش حال التزكية. وكما أنّ الشريعة تمنح الإنسان العلم الإلهي، فإنّ الطريقة تهبه الحبّ الإلهي.

ومن المستحيل أن يتحوّل الإدراك العقلي إلى تجربة قلبية بمجرد التفكير أو التأمل؛ فكما لا يمكن أن تُجبر إنسانًا على أن يعشق فتاةً بمجرد أن تصف له جمالها وكمالها، كذلك لا يمكن أن يولد الحبّ الإلهي في القلب من التفكير وحده. بعض الناس يتخيّلون العذاب أو النعيم محاولين إثارة الحبّ الإلهي في داخلهم، ولكنهم لا يصلون إلى النتيجة الحقيقية، لأنّ هذا التحوّل يحتاج إلى نقلٍ نوريٍّ من الشيخ إلى المريد.

إذًا، فالشريعة تمثّل إدراك العقل لله، والطريقة تمثّل إدراك القلب لله.

وكما أنّ التفاعلات الكيميائية تحتاج إلى عاملٍ محفّز (Catalyst) ليحدث التفاعل، فإنّ تحويل العلم الإلهي إلى حبٍّ إلهي يحتاج إلى واسطةٍ روحيةٍ هي الشيخ أو المرشد في العرفان الإسلامي.

كان الإمام جلال الدين الرومي قبل دخوله طريق السلوك من كبار العلماء، حافظًا للقرآن، قائمًا بالليل، متبحرًا في الفقه، يتوافد عليه الطلاب ليأخذوا منه العلم.

وكان يظنّ أنّ محبته لله هي غاية القرب، لأنّ عقله كان مملوءًا بمعرفة أسماء الله وصفاته.

لكنّه لم يكن قد تذوّق العشق الإلهي الذي يتجاوز الفكر إلى القلب.

فالفرق بين من يعرف الطريق وبين من سلكه حتى احترق

بنوره كالفرق بين من يصف الماء، وبين من يغتسل به.

ولهذا قال سلطان العاشقين ابن الفارض:

**زِدْني بِفَرْطِ الحُبِّ فيكَ تَحَيُّرًا**

**وارْحَمْ حَشىً بَكَ تَوْقُهُ تَذَكُّرَا**

أي: زدني عشقًا حتى أتجاوز حدود الفهم،

فإنّ القلب إذا أحبّ الله لا يعود يعرف سوى الله.

ومضت الأيام إلى أن جاء شمس التبريزي.

لم يكن أعلمَ من الرومي في ظاهر العلم،

لكنّه كان يملك نور القلب وإكسير التحويل.

فأخذ بيده، وفتح له باب الذوق، فانقلب علم الرومي من الرأس إلى القلب، فاشتعل العشق، وتحوّل الوجود كله إلى معنى واحد.

قال ابن عربي:

**أدينُ بدينِ الحُبِّ أنّى توجَّهتْ**

**ركائبُه فالحبُّ ديني وإيماني**

فمن ذاق هذا المعنى عرف أنّ العلم وحده لا يكفي، وأنّ السير إلى الله يحتاج إلى دليلٍ حيّ ربّاه الله بنوره. ولهذا قال الجنيد رحمه الله:

**الطرقُ كلُّها مسدودةٌ على الخلق**

**إلا على من اقتفى أثرَ رسول الله ﷺ**

**واتّخذ شيخًا يُرشِدُه بالله.**

وقال أبو مدين الغوث رحمه الله:

**لا تَصحَبِ الأقوامَ حتى تَعرِفَ حالَهم**

**فمن شابَ بالسّكرِ، لا يَصلُحُ للسّائقين.**

أي: لا تمضِ وحدك،

ولا تظنّ أنّ القلب يَهتدي بنفسه،

بل لا بدّ من وارثٍ مُستنير يفتح لك الباب.

ثم وصف القرآن هذا التحوّل بقوله تعالى:

**"صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ"**

(البقرة: 138)

فالعشق الإلهي لون يصبغ النفس،

فلا ترى إلا الله، ولا تريد إلا الله، ولا تقصد إلا الله.

ومن وصل إلى هذا المقام أصبح كما قال ابن الفارض:

**وفيك انطوى العالمُ الأكبرُ**

أي: إنّ القلب إذا امتلأ بالله،

صار كلّ الوجود معنى واحدًا

وهو الحبيب.

أيها الأحبّة، هكذا فهم جلال الدين أنّ العلم بدون شيخٍ يفتح باب القلب يبقى نصف الطريق.

وأنّ المعرفة التي لا تتحوّل إلى عشق وذوق وخضوع لا تُحيي الروح.

ورد في بعض كتب الحديث والدعاء بصيغةٍ قريبة، أنّه نُقل عن النبي ﷺ أنّه قال:

**«إذا أضلّ أحدُكم شيئًا، أو أراد عونًا وهو بأرضٍ ليست بها أنيس، فليقل: يا عبادَ الله أغيثوني، يا عبادَ الله أغيثوني، فإنّ لله عبادًا لا نراهم».**

ومعنى الحديث: أنّ الإنسان إذا أضاع شيئًا، أو احتاج إلى عونٍ في أرضٍ ليس له فيها من يعرفه، فليستغث بعباد الله المجهولين لنا، الذين سخّرهم الله لمثل هذه المهمّات.

وهؤلاء العباد الذين لا نراهم، ولهم القدرة على رؤية العباد ومساعدتهم من بعيد، يُعرفون في اصطلاح الطريقة بـ «الغوث» .

وشيوخ الطريقة هم من هذه الفئة المباركة.

فهل هذا المعنى موافقٌ للقرآن الكريم؟

نعم، فقد جاء في القرآن ذكرُ أشخاصٍ اصطفاهم الله بقدراتٍ روحية خارقة.

ففي الآية 40 من سورة النمل، عندما أراد نبيُّ الله سليمانُ (عليه السلام) أن يُؤتى بعرش بلقيس، تكلّم الذي عنده علمٌ من الكتاب - وهو في الأصل رجلٌ اسمه آصف بن برخيا، وقد بلغ مقام الغوث - فقال:

"**أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ**" (النمل: 40).

أي أنّه رأى العرش من مكانه البعيد كأنه أمامه، ثم نقله في لحظة واحدة دون إضاعة أيّ وقت.

فإذا كان الغوث في زمن سليمان - وكانت المعاصي في ذلك الزمان أقلّ - قادراً على نقل العرش من مسافات بعيدة في طرفة عين،

فإنّ غوث هذا الزمان، ومع كثرة البلاء وحاجة الخلق الشديدة، تكون قوته الروحية أعظم وأظهر، وهذا ما تشهد به الشواهد والكرامات.

وقد بيّن الغوث والقطب السابق للطريقة العلية القادرية الكسنزانية، حضرة الشيخ محمد المحمد الكسنزان الحسيني (قدس سره)، حقيقة مقام الغوث فقال:

**«إنّ القوى الروحية لشيخ الطريقة ليست مساوية لقوى الإنسان العادي.**

**أمّا الغوث، فإنّ هذه القوى فيه تتصاعد حتى يبلغ مقام الفناء في النور الإلهي.**

**فالغوث وارثٌ للروح المحمدية، يستطيع أن يُعين المحتاج، ويُجيب المستغيث، ويصل إلى الملهوف ولو كانت بينهما أعظم المسافات.**

**يسمع نداء المحتاج كما يسمع القريب منه، ويرى من يستغيث به من بعيد كما يرى من هو أمامه، ويمدّ إليه يد العون الروحي، أو يدعو له، ودعوته مستجابة.»**

وفي كلّ زمان هناك غوث واحد هو سلطان الأولياء، وهو شيخ الطرائق في عصره. وقد قال حضرة الشيخ محمد المحمد الكسنزان (قدس سره):

**«لدينا مُريدون وصلوا إلى مقام الغوثية».**

وأما حضرة الشيخ عبد القادر الجيلاني (قدس سره)، شيخ زمانه، فقد عُرِف بـ الغوث الأعظم، وبـ محيي الدين

لإحيائه علوم الشريعة والتصوف ونشره نور الإسلام في مشارق الأرض ومغاربها.

العالِمة الألمانية الشهيرة آن ماري شيمل، رئيسة الجمعية الدولية لتاريخ الأديان، في كتابها الأبعاد الصوفية في الإسلام، ذكرت في التقويم الذي وضعتْه في مقدمة الكتاب تاريخ مولد شخصين فقط:

رسول الله ﷺ، والشيخ عبد القادر الجيلاني (قدس سره).

وهذا يدلّ على إدراكها لعظمة مقامه ودوره في التاريخ الروحي للأمة.

ورغم كثرة الطرق الصوفية اليوم، فإنّ أصولها تعود إلى عدد قليل من الأسانيد الكبرى، وأعظمها الطريقة القادرية، المتصلة بالإمام عبد القادر الجيلاني (قدس سره)، الذي لقّبه العارف عبد الرحمن الجامي بـ:

السلطانُ العارفين والغوث الأعظم.

ويُنسبُ إلى شيخِ الطريقةِ النقشبندية، الإمامِ بهاءِ الدِّينِ محمّدٍ نَقشبند (قدّسَ اللهُ سرَّه)، أنّهُ مدحَ سيّدَنا الغوثَ الأعظمَ الشيخَ عبدَ القادرِ الجيلانيَّ (قدّسَ اللهُ سرَّه)، ومعنى ذلك الشعر هو:

**مــلكُ الدّارينِ عبدُ القــادرِ الجيــلانيُّ تاجُ العالَمِين**

**سيِّدُ الأبناءِ من آدم، بَلْ نُورُ أرواحِ العارفين**

**الشمسُ والبدرُ والعرشُ والكرسيُّ والقلمُ المبين**

**كلُّها تَتَلألأُ مِن نُورٍ أعظَمَ، نُورِ عبدِ القادرِ الأمين**

ويُنَسَبُ الشيخُ عبدُ القادرِ الجيلانيّ (قدّس سرّه) من جهةِ الأبِ إلى الحسنِ بنِ علي، ومن جهةِ الأمِّ إلى الحسينِ بنِ علي، سيّدَي شبابِ أهلِ الجنة، فهو حسنيٌّ حسينيٌّ جامعٌ

للنورين. وفي الطريقة القادرية، ينتقل النور المحمدي عبر عهد البيعة، من يد الشيخ إلى المريد، بالسند المتصل إلى حضرة الغوث الأعظم، ثم إلى رسول الله ﷺ.

## الشريعة والطريقة

كثيرٌ من الناس يظنّ أنّ الطريقة شيءٌ خارج الشريعة...

وكأنّ من يسلك الطريق إنما يأتي بشيء جديد.

وهذا خطأ كبير.

الشريعة والطريقة متلازمتان...

لا تقوم واحدةٌ بلا الأخرى.

فالشريعة هي الأساس،

والطريقة هي السير على هذا الأساس.

يقول العارف الكبير، الشيخ محمود الشبستري:

**الشريعةُ قشرٌ، والحقيقةُ لُبٌّ**
**وبينهما تكونُ الطريقة.**

تصوّروا معي...
ثمرةً بلا قشر. ماذا يحدث لها؟
تفسد... تتعفّن... تضيع.

وكذلك القلب...
إذا تجرد من الشريعة.
يضيع... ولو أراد أن يسلك الطريق.

ولهذا قال الأستاذ السابق للطريقة العلية القادرية الكسنزانية الشيخ محمد المحمد الكسنزان قدّس الله سرّه:
**أساسُ الطريقة هو الشريعة، ومن تجاوز الشريعة ولو**

**بمقدار شعرة، فسدت عليه طريقته.**

فمن أراد الطريق... فليحفظ الباب. والباب هو الشريعة.

وقد ورد في كلام أهل السلوك:

**الشريعة أقوالي، والطريقة أفعالي، والحقيقة أحوالي.**

ليس المقصود ألفاظًا فقط... بل معاني...

روح... وتجربة تعاش بالقلب.

الشريعة... أن نعرف ما أمر الله به.

الطريقة... أن نعمل بما عرفناه.

الحقيقة... أن يصفو القلب حتى يشهد نور القرب من الله.

ولهذا قال العارف بالله شاه نعمت الله الولي قدّس سره:

**عِلمُ الدِّين شريعةٌ نتلقّاهُ**

**فإذا عملنا به فذاكَ طريقة**

**فإذا خَلُص العمل لله وحده**

**كانت تلك حقيقة.**

ويقول الله تعالى على لسان إبراهيم عليه السلام في القرآن الكريم:

**"فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي"** (إبراهيم: 36)

من سار، سار. ومن وقف، وقف.

ومن تبع أهل الله...

كان من أهل الله.

## الوصول إلى الحقيقة بين العلم النظري والعلم العملي

إنّ الوصول إلى الحقيقة في علم الدين يشبه الوصول إليها في سائر العلوم الأخرى.

فكلُّ علمٍ يتكوّن من جانبٍ نظري وجانبٍ عملي، ولا يكتمل أحدهما دون الآخر.

فكما أنّ طالب الميكانيك يدرس النظريات أولًا، ثم يدخل المختبر وورشة العمل ليُجرّب بيديه، كذلك طالبُ العلم الإلهي يحتاج إلى:

الشريعة للعلم والمعرفة،

و الطريقة للتذوّق والتجربة والممارسة، حتى يبلغ الحقيقة.

أمّا الاكتفاء بالنظريات وحدها دون الممارسة القلبية والذكر والتزكية، فإنه لا يقود إلى المعرفة الحقيقية بالله.

ولذلك نرى بعض من يمتلكون علمًا واسعًا في علوم الدين،

ولكن لا يظهر فيهم أثر الولاية أو الصفاء أو خلق الأنبياء، بل قد يُرى فيهم أو في أهلهم ما ينفّر الإنسان من الدين، وهذا مما يجعل بعض الناس يشكّون في حقيقة الإيمان.

**مثال توضيحي على ذلك**

تخيّلوا أستاذًا جامعيًا حاصلًا على الدكتوراه في هندسة الميكانيك، أمضى سنوات طويلة يدرّس محركات الاحتراق الداخلي، لكنه لم يعمل يومًا بيده في إصلاح سيارة.

وفي يوم من الأيام تعطلت سيارة أحد الجيران، فأخذها الجار إليه بثقةٍ كبيرة، ظنًّا منه أن الدكتور أعلم من جميع الميكانيكيين.

فقال الأستاذ لابنه بكل فخر:

«يا بُني، هاتِ صندوق العُدّة، لأري هذا الرجل ما الذي يستطيع والدك فعله!»

جاء الابن مسرعًا وهو يظنّ أن أعجوبةً ستقع. ولكن...

ما إن فتح الأستاذ غطاء المحرك حتى أدرك أنه في مأزقٍ كبير، فهو يعرف الأجزاء نظريًا فقط، ولا يستطيع التعامل معها عمليًا.

وانتهى به الأمر أن يستدعي ميكانيكيًّا بسيطًا من الشارع ليعيد تجميع المحرك.

ومن هنا تبدأ الكارثة:

1. الابن يفقد إيمانه بعظمة علم أبيه.

2. الأستاذ نفسه يقول: «لقد ضيّعت عمري في علمٍ لا ينفع!»

3. الجار يفقد ثقته بكل من يحمل لقب "مهندس".

والسبب الحقيقي ليس بطلان العلم، بل غياب الجزء العملي عنه.

**النتيجة**

لو أنّ هذا الأستاذ جمع بين النظري و العملي أثناء دراسته،

لآمن هو وابنه وجاره بأن علم الميكانيك علمٌ عظيم،
ولفهم الجميع قيمة من يتقن العلم مع العمل.

وكذلك في الدين:
الشريعة بلا طريقة تبقى معلومات جافّة.
و الطريقة بلا شريعة تضلّ صاحبها.
أمّا حين يجتمع العلم والعمل والإخلاص، حينها تُفتح أبواب الحقيقة.

نعود الآن إلى موضوعنا، وهو العلاقة بين الشريعة والطريقة، وبين العلم النظري والتجربة الروحية.

هناك فئة من الناس تظن أنّ الإسلام ينحصر في الشريعة الظاهرة فقط، وأنّ الطريقة والتصوف لا أصل لهما، أو أنهما بدعة أو انحراف.

وهذا قولٌ لا يقوم على علمٍ ولا على تاريخ.

فالعالم الإسلامي اليوم ليس محصورًا في بيئة واحدة أو ثقافة واحدة، بل هو يشمل أكثر من مليار مسلم منتشر في أنحاء الأرض. وأغلب هذه الشعوب، مثل الهند، باكستان، بنغلاديش، ماليزيا، إندونيسيا، شمال إفريقيا، وبلاد البلقان، دخلوا الإسلام عن طريق التصوف والطرق الروحية.

بالنسبة لهؤلاء، الطريقة هي قلبُ الإسلام الحيّ، وروحه العملية.

## التصوف بوصفه امتدادًا لسنّة النبي ﷺ

يقول المستشرق الإسلامي المعروف الدكتور حامد الگار (Hamid Algar)، أستاذ الدراسات الإسلامية بجامعة كاليفورنيا:

**«التصوف هو الطريق الأكثر عملية للحفاظ على سنّة النبي ﷺ. كثير من المسلمين يحققون وفاءهم للسنّة من خلال الانتساب إلى طريقة أصيلة، وهكذا تبقى سلسلة السلوك والتزكية متصلة من زمن الرسول ﷺ حتى اليوم.»**

وهذا الكلام يوافقه تاريخُ الأمة وسيرة علمائها.

ففي السير إلى الله، لا يكفي العلم النظري وحده، بل لا بد من شيخٍ مربٍّ، يأخذ بيد السالك ويهذّب قلبه.

## لماذا يحذّر بعض العلماء من الذكر الكثير؟

بعض الوعّاظ أو العلماء يقولون للناس:

«لا تُكثروا من الذكر. الزموا العبادة العادية فقط.»

وقد كتب بعض المشهورين بين العامة كتباً يمنعون فيها الناس من الإكثار من الذكر.

فيأتي هنا السؤال: إذا كانوا يمنعون من الذكر الكثير، فلماذا يأمر القرآن بالذكر الكثير صراحةً؟

قال تعالى: **"وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا"** (آل عمران: 41)

وقال تعالى:

**"لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ... وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا"** (الأحزاب: 21)

وقال تعالى:

**"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ"** (المائدة: 35)

فالقرآن:

يأمر بالإكثار من الذكر

ويأمر بطلب الوسيلة إلى الله

والوسيلة عند أهل السلوك هي الشيخ المربّي الذي يقي القلب من الانحراف.

**لماذا يخاف البعض من الذكر الكثير؟**

لأنّ من دخل ساحة الجهاد الروحي، اشتدّت عليه وساوس الشيطان.

أمّا الغافل، فلا يحتاج الشيطان إلى مجاهدته أصلًا.

ومن هنا وقع بعض العلماء أو المفكرين في الاغترار أو الوهم، مثل: د. رشاد خليفة الذي كان من المتبحّرين في الدراسات القرآنية، ثم اغترّ بنفسه وظنّ أنه رسول، فزلّ وانحرف.

ولهذا قال العارف الكبير أبو يزيد البسطامي (قدس سره):

**«مَن لا شيخ له، فالشيطان شيخُه.»**

وقال أبو علي الدقّاق (رحمه الله):

**«المريد بلا شيخ كالشجرة البرية؛ قد تنمو، ولكن ثمرتها لا طعم لها ولا رائحة.»**

ولهذا أجمع أهل المعرفة أن السير إلى الله لا يكون إلا بصحبة شيخٍ ربّاني.

كما ذكرنا سابقًا، فإنّ وظيفة شيخ الطريقة هي إيقاد نار المحبّة الإلهيّة في قلب المريد. وهذه العمليّة في مدارس العرفان المختلفة تتحقّق بأساليب متعدّدة. أمّا في العرفان الإسلامي، وهو من أرقى وأصفى مدارس السلوك، فقد زُوِّد المربّي بوسيلة ربّانية عظيمة تسمّى البيعة، وقد ورد الأمر بها في موضعين من القرآن الكريم إلى سيّدنا محمّد ﷺ.

فالبيعة هي الواسطة التي نقل بها شمس تبريزي نور العلم الإلهي من عقل مولانا جلال الدين الرومي إلى قلبه، حتى تحوّل العلم إلى عشق.

إنّ درجة الجهد المطلوب من المريد، وما قد يعترضه من مخاطر السقوط الروحي، تختلف باختلاف صفاء العرفان

الذي ينتمي إليه.

فالعرفانات المحرّفة أو الضعيفة تحتاج إلى وقتٍ طويل وجهدٍ شاقّ، وقد تؤدّي في كثير من الأحيان إلى الانحراف أو الانهيار.

أمّا العرفان الإسلامي الخالص، فهو أعظمها فاعلية و أقلّها خطرًا على روح المريد.

وهناك من يرفعون شعار «العرفان الإسلامي» لكنهم لا يستندون إلى الشريعة المحمدية.

فنجدهم يستعملون المخدّرات أو الخمر طلبًا للنشوة، أو لا يلتزمون بضوابط العلاقة بين الرجل والمرأة، أو يعتزلون المجتمع اعتزالًا رهبانيًّا مخالفًا للسنّة.

ولهذا ساء ظنّ الناس بمن يُسمّون أنفسهم أهل الطريقة.

ولذلك نقول بوضوح:

كلّ عرفان لا يقوم على الشريعة المحمدية فهو باطل ومحجوب، ولا يمكن أن يقود إلى النجاة.

وقد قال سيّدنا الغوث الأعظم عبد القادر الجيلاني قدّس الله سرّه:

**إن رأيتم الرجل يطير في الهواء أو يمشي على الماء، فلا تغترّوا به حتى تنظروا كيف موقفه عند حدود الشريعة. فإن خالف الشريعة فكرامته استدراج.**

وهناك كذلك بعض الطرق الإسلامية التي تقوم على الشريعة، لكن لا تعمل بآلية البيعة لإشعال نور القلب.

وهذه وإن كانت أنقى من غير الإسلامية، إلا أنّ سير المريد فيها بطيء، وقد يصيبه الفتور والملل.

وفي زماننا هذا، استغلّ بعض المتاجرين بالدين رغبة الناس

في الوصول إلى الله، فادّعوا الولاية والعرفان، وهم في الحقيقة دجّالون.

وقد قال حضرة الشيخ محمد المحمد الكسنزان الحسيني قدّس الله سرّه في شأن هؤلاء:

**إنّ بعض الأشخاص يقومون بأعمال لا صلة لها بالطريقة أصلًا، وهي في حقيقتها أعمال باطلة قائمة على الكذب والخداع، تُضَيِّع وقت الناس وتُبعِدهم عن الطريق الحقيقي إلى الله.**

ومن هذه الأعمال: ادّعاء تفسير الرؤى، والقول بمعرفة الغيب، وكتابة الطلاسم والتمائم، وما شابه ذلك، مما يخالف أصول الطريقة ويعارض العقل والشريعة.

وهؤلاء يفعلون ذلك ابتغاءً لنهب أموال الناس والسيطرة على عقولهم، بادّعاء اتصالهم بعالم الغيب والروح.

وهؤلاء مُضِلّون، غير مرضيّ عنهم عند الله ولا عند رسوله ﷺ ولا عند مشايخ الطريقة الصادقين، وهم من الخاسرين في الدنيا والآخرة.

وكذلك من يُجالسهم ويُصدّقهم فهو شريك لهم في الضلال، وقد لعنهم الله، وأعدّ لهم جهنم وبئس المصير.

وأخيرًا، ليس المقصود من كلامنا تأييد كل الطرق التي تسمّى إسلامية؛ فليس كل من تسمّى بطريقٍ كان على الهدى. وقد قال الشيخ عبد القادر الجيلاني قدّس الله سرّه:

الصوفيّة طوائف كثيرة، والناجي منهم من جمع بين الشريعة والطريقة؛ فاستقام ظاهره على أحكام الإسلام، وصَفَا باطنه بالتوجّه إلى الله تعالى.

فمن خالف الشريعة ضلّ، ومن ادّعى الطريق بلا تهذيب نفس وصدق، فهو من أهل الهوى والوهم.

وقال جلال الدين الرومي ومعناه:

**كم من إبليسٍ بدا في صورة بشرٍ**

**فلا تُعطِ يدكَ لكلِّ من ظهر.**

## ما هي البيعة؟

كما ذكرنا سابقًا، فإنّ السير إلى الله تعالى في التصوف العملي يقوم على صحبة شيخٍ مربٍّ تكون وظيفته إحياء محبّة الله في قلب المريد، وتوجيهه نحو السلوك الصحيح.

وقد بيّن الشيخ الراحل السيّد محمّد المحمّد الكسنزان قدّس الله سرّه هذه الحقيقة بقوله:

**"أخذُ الطريقة هو بذرُ نورٍ يُزرع في القلب، أمّا تحويل هذا البذر إلى شجرة نورانية، فهو عملُ المريد نفسه، وذلك بالالتزام بالشريعة والطريقة."**

إذن، البيعة ليست مجرد لفظ أو شكل، بل هي رابطة

روحيّة تنتقل عبرها بركة السلسلة من الشيخ إلى المريد.

## البيعة في القرآن الكريم

البيعة أصل قرآني ثابت ورد في موضعين:

1. بيعة الرجال

قال تعالى في سورة الفتح (آية 10):

**"إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ"**

أي أنّ البيعة مع رسول الله ﷺ هي بيعة مع الله، فمن وفى نال الأجر العظيم، ومن نكث فإنما يعود ذلك عليه.

2. بيعة النساء

قال تعالى في سورة الممتحنة (آية 12):

**"يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ ... فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ "**

وفي هذا دليل واضح على أن البيعة مشروعة للرجال والنساء على حدّ سواء.

## كيف كانت البيعة في زمن النبي ﷺ؟

ثبت في صحيح البخاري أنّ بيعة الرجال كانت عن طريق مصافحة اليد.

وأمّا بيعة النساء فالنبي ﷺ لم يكن يُصافح النساء، وهذا أيضًا ثابت في صحيح البخاري:

**"ما مَسَّتْ يَدُ رسولِ الله ﷺ يَدَ امرأةٍ قط"**

وقد ذكر أهلُ السِّيَر أنّ النبي ﷺ كان يضع يده في إناء ماء، وتضع المرأة يدها في الإناء نفسه، بدون ملامسة،

مراعاةً للأدب الشرعي. وهذا النقل تاريخي من كتب السيرة، وليس حكمًا فقهيًا لازمًا.

وبعض الناس في ذلك الزمن لم يفهموا سرّ هذه البيعة فاستنكروا صورتها، كما قد يفعل بعض الناس اليوم.

## البيعة الخاصّة في الطرق الصوفية

في الطرق الصوفية الأصيلة يُستعمل مصطلح "البيعة الخاصّة"، ويُقصد به:

**بيعة تهدف إلى إحياء المحبّة الإلهيّة في القلب، وربط المريد بالسلسلة الروحية المتصلة بالنبي ﷺ.**

والطرق الصوفية ترى أنّ هذا المعنى امتدادٌ لسُنّة المصاحبة والتزكية التي طبّقها النبي ﷺ مع أصحابه، وأنّ أثرها نوراني وتجريبي في القلب.

ويتمّ هذا الاتصال الروحي عادةً بمصافحة اليد، أو بما يقوم مقامها مع مراعاة الأحكام الشرعية.

بعد أن تكلّمنا عن معنى البيعة ومشروعيتها في القرآن والسنة، ننتقل الآن إلى سؤالٍ مهم:

## ما المزية في بيعة الطريقة الإسلامية الأصيلة؟

كما قلنا سابقًا، الهدف من الطريقة هو إيقاد نار المحبة الإلهية في قلب المريد.

وقد شبّه أهل المعرفة هذا الإيقاد بالنار: ففي الأزمنة القديمة كان إشعال النار يحتاج إلى فرك الخشب طويلًا وبذل جهد كبير، وقد ينجح الإنسان وقد يفشل. أما اليوم، فقد صار الإشعال أيسر بواسطة عود الثقاب أو الولاعة.

وهكذا في السير الروحي:

هناك من يسير إلى الله بالرياضات الطويلة والتجارب المتكررة، وهناك من يسير من خلال البيعة، وهي بمثابة وسيلة أسرع لإحياء نور التوجّه إذا صدق المريد والتزم.

فالبيعة ليست بديلاً عن العمل والسلوك، بل مفتاح يفتح الباب، ثم المسير على العبد.

## كيف نميّز صاحب البيعة (شيخ الطريقة)؟

أهل السلوك ذكروا علاماتٍ يستدلّ بها على الشيخ المربّي الصادق، وليس المقصود بها الحكم على الأشخاص، بل التحرّي والتمييز:

1. أن يُعرَف بنفسه أو بشهادة أهل الثقة بأنّه صاحب تربيةٍ وإرشاد.

فالقيادة الروحية لا تُفرض، بل يُعرف صاحبها بالأثر.

2. أن تكون طريقته في البيعة متصلة بالسند النبوي من حيث الأصل والمقصد، لا بالضرورة من حيث الصورة الظاهرة الواحدة. وقد جرى عند أهل الطرائق:

بيعة الرجال بالمصافحة؛

وبيعة النساء دون ملامسة اليد، إمّا عبر واسطة كالماء أو السبحة، وهذا ممّا ذكره أهل السِّيَر لا ممّا يُجعل حكمًا لازمًا.

3. أن يُظهِر من حاله ما يدلّ على صدقه وصلاحه؛

لا يُشترط الخارق دائمًا، ولكن تظهر عليه آثار الذكر والسلوك، ويشهد له العارفون.

وقد قال تعالى:

**"قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ "** (البقرة: 111)

أي إنّ الحقّ لا يقوم بالادّعاء بل بالبرهان والدليل والأثر.

## من هم أولو الأمر؟

قال تعالى:

**"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ"** (النساء: 59)

وقد ذكر خواجة عبدالله الأنصاري كما نقل عنه في تفسير الإمام الميبدي أنّ:

**"أولي الأمر في لسان المعرفة هم شيوخ الطريق الذين يرثون حكمة التزكية ويقومون مقام الهداية في الأمة."**

ونُقِل عن بعض مشايخ السلوك أنّه قال:

**إنّ لله في كل زمان رجالًا من أهل القرب،**

**منهم ثلاثمائة يُقال لهم الصالحون،**

**ومنهم أربعون يُقال لهم الأبدال،**

**ومنهم سبعة يُقال لهم الأوتاد،**

**ومنهم خمسة يُقال لهم النقباء،**

**ومنهم ثلاثة يُقال لهم النُجباء،**

**وواحدٌ يُقال له الغوث، وهو قطب الأولياء في زمانه.**

وهذا تقسيمٌ صوفيّ معروف في كتب القشيري، الهجويري، اليافعي، الجلبي وغيرهم؛

وهو شرحٌ لمقامات الرجال لا لحصر عددهم على القطع.

بطبيعة الحال، عدد الأولياء الراسخين قليل، ومكانهم ليس ظاهرًا للعامة. وكان الناس في الأزمنة الماضية يسافرون شهورًا للقاء أحد الصالحين.

واليوم بفضل وسائل التواصل، صار الوصول إلى العلم والسماع والإرشاد أيسر، ولكن:

معرفة الشيخ الحقّ لا تكون بالشاشة فقط، بل بحال القلب، والصدق، والأثر.

بعد أن تكلّمنا عن أصل البيعة ومشروعيتها، ننتقل إلى الحديث عن بيعة الشيخ الحاضر في طريقتنا، حضرة الشيخ شمس الدين محمد نهرو الكسنزان القادري الحسيني قدّس الله سرّه.

يُروى عن حضرته - كما هو مشهور ومتداوَل بين المريدين وأهل الطريقة - ظهور كرامات تتعلّق بالشفاء و البشارة في الرؤيا، والتأييد الروحي عند عدد من مشايخ الطرق الأخرى في بلدان متعدّدة، وقد انتشر ذلك في شهادات صوتية ومرئية يتداولها الناس عبر وسائل الإعلام.

ومعلوم عند أهل السلوك أن الكرامة ليست دليلاً قائمًا

بذاته، وإنما هي علامة على صدق التوجّه، ونتيجة لنور الطاعة. فالاعتبار عند أهل التحقيق هو حال الشيخ وأثره في إحياء القلوب.

ولمّا كانت البيعة رابطة نورانية، فقد أشار إليها كبار الصوفية. ومن جميل ما قال أبو مدين الغوث (ت 594هـ)، وهو من أعلام السلوك في المغرب الإسلامي:

**لا تُصاحِبْ مَن لا يَنْهَضُكَ حالُهُ،**

**ولا يَدُلُّكَ على اللهِ مَقالُهُ.**

ومعنى ذلك:

إذا صَحِبتَ مربّيًا وشيخًا صادقًا، نهض قلبُكَ إلى الله، وانفتح لك باب الذوق والمعرفة.

وهذه هي الحقيقة الروحية للبيعة.

من بايع شيخًا صادقًا في الله، فقد أخذ بنصيبه من قول الله تعالى:

" **يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ** " (الفتح: 10)

**أي أن البيعة ليست مصافحة جسدٍ لجسدٍ، بل هي مصافحة نورٍ لنور، حيث يتلقى المريد سرّ التوجّه، ثم يسير بنفسه على طريق الذكر والطاعة.**

ورد في بعض روايات أهل السلوك:

**"مَن صافحني، أو صافح من صافحني، إلى يوم القيامة دخل الجنة."**

وهذه الرواية يذكرها أهل الطريق باعتبار المعنى الروحي المتسلسل لا باعتبار الإسناد الفقهي، أي أن نور المصافحة ينتقل عبر سلسلة المشايخ من قلب إلى قلب، جيلاً بعد جيل، إلى قيام الساعة.

يسمّي أهل التصوف هذا الامتداد المتّصل من النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى الشيخ الحاضر باسم:

سلسلة المشايخ أو سلسلة أهل الله.

وهي سلسلة تربيّةٍ روحيّة انتقلت عبر:

سيّدنا علي كرّم الله وجهه، ومنه إلى أولاده وأهل البيت،

ثم إلى الشيخ معروف الكرخي،

ثم إلى الشيخ عبد القادر الجيلاني،

ثم إلى الشيخ عبد الكريم شاه الكسنزان

قدّس الله أسرارهم أجمعين،

حتى وصلت إلى الشيخ شمس الدين محمد نهرو الكسنزان قدّس الله سرّه.

## مقام الولاية

وقد قال سيدُنا عليٌّ كرّم الله وجهه يوم بويع بالخلافة وهو يصلح نعله: "واللهِ ما قيمةُ هذه الخلافة عندي إلا كقيمة هذا النعل."

فمقام الولاية عنده أعلى من مقام السلطة،

لأن الولاية هي مقام الهداية،

وأما الخلافة فهي مقام إدارة الدنيا.

وهذا يوافق قول الله تعالى:

**" يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ "** (النساء: 59)

حيث فسّر أهل المعرفة:

أن أولي الأمر في لغة الإشارة هم أهل الهداية والولاية الذين يرشدون القلوب إلى الله.

يطرح بعض الإخوة سؤالًا يقول: لماذا يجهل أغلب الناس في المجتمع شيوخ الطريقة وأهل العرفان، مع أنّ أهل الطريق لا يشكّلون إلا نسبة قليلة من مجتمعنا؟ وإذا كان الأمر كذلك، فما هو حال الذين لا تتاح لهم فرصة التعرف على شيوخ الطريقة؟

يقول الله تعالى في الآية 110 من سورة آل عمران:

**"كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ، تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ، وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ"**

أي: أنتم أفضل أمة بُعثت للناس، لأنّكم تجمعون بين ثلاثة أركان: الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والإيمان بالله.

وقد بيّن حضرة الشيخ محمد المحمد الكسنزان قدس الله سره، في تفسير هذه الآية، أن المقصود بـ "خير الأمة" هم

أهل الطريق الحقيقيون، أي الذين جمعوا بين الإيمان القلبي الحقيقي، وبين العمل على هداية الناس، لا بشعارٍ خارجي، بل بنورٍ باطني.

هذه الأركان الثلاثة تشبه أرجلَ المثْلَث، فإذا فُقِدَ واحدٌ منها اختلّ التوازن وسقط البناء كاملًا. ولهذا نرى في زماننا كثيرًا من الناس يمارسون النصح أو الإنكار، لكن بلا نورٍ في القلب، فيتسبب ذلك أحيانًا في تنفير الناس بدل هدايتهم.

من هنا نفهم الحكمة من وجود شيوخ الطريقة.

فشيخ الطريقة يؤدّي دور الأستاذ المربّي الذي يفتح باب العشق الإلهي والنور القلبي للقلوب المستعدّة، وهي الفئة التي تُعرف في القرآن بـ السابقون.

هؤلاء السابقون، بعد تلقي البيعة والتوجيه الروحي، يصبحون قادرين على حمل نور الهداية للناس، فيكونون هم

"خير الأمة" الذين ينشرون الرحمة والنور في المجتمع.

وبناءً على التحليل السابق، ومع افتراض نظرة متفائلة، فإنّ نسبة السابقين لا تتجاوز واحدًا بالمائة من مجموع الناس، ولذلك فإنّ عدد الذين يعرفون شيخ الطريقة في كل زمان يكون قليلًا بطبيعته، لأن الله سبحانه وتعالى يجعل الهداية الخاصة لمن تهيأ قلبه، ولمن سعى إليها بصدق.

فالطريق ليس طريقَ كثرةٍ عددية، بل طريقُ صفوةٍ روحية.

## لماذا يجب أن تكون التوبة على يد شيخ الطريقة؟

نبدأ الحديث عن العلاقة بين البيعة والتوبة، لأنّ الدخول في الطريق يبدأ بالتوبة، فهي أول بابٍ في السير إلى الله عز وجل.

التوبة هي الرجوع إلى الله تعالى بعد الابتعاد عنه بالمعصية أو الغفلة أو التقصير. وهي نورٌ يلقيه الله تعالى في قلب المؤمن بفضله ورحمته بعد أن يعيش حالة الضياع أو الانشغال بالدنيا. والتوبة ليست خاصةً بالعصاة الظاهرين؛ بل هي ضرورةٌ لكلّ إنسان، لأنّ النفس البشرية لا تنفكّ عن الوسوسة والهوى والغفلة، ولذلك فالتوبة واجبة على كلّ مؤمن. قال تعالى في سورة التحريم، الآية 8:

**"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا"**

والخطاب هنا موجّه إلى المؤمنين، وليس إلى الكافرين، ممّا يدلّ على أن أهل الإيمان أنفسهم محتاجون للتوبة دائمًا.

وعندما نتحدّث عن التوبة، قد يقول بعض الناس:

"نحن لم نرتكب شيئًا يستوجب التوبة!".

وهذا الكلام ناتج عن غلبة الأنا وسيطرة الغفلة على القلب، حتى إنّ النفس تمنع صاحبها من رؤية أخطائه، فيعيش

الإنسان في جهلٍ مركّب، لا يعلم، ولا يعلم أنّه لا يعلم.

فهؤلاء يتصوّرون أنّ التوبة لا تكون إلا من جريمةٍ عظيمة، أو من معصيةٍ ظاهرة، بينما القصور في معرفة الله وحده كافٍ لأن يجعل الإنسان محتاجًا للتوبة.

وقد كان رسول الله ﷺ، وهو المعصوم، يستغفر الله في اليوم مراتٍ كثيرة، فكيف بغيره؟

إنّ التوبة والعمل بأحكام الشريعة هما الأساس الأول للطريقة، وبهما ينال الإنسان المغفرة. قال تعالى في سورة طه، الآية 82:

**"وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى"**

أي إنّ المغفرة مرتبطة بأربع مراتب: التوبة، الإيمان، العمل الصالح، والثبات على الهداية.

ومن فضل الله العظيم أنّه لا يكتفي بمغفرة الذنوب للتائبين،

بل يبدّل سيئاتهم حسنات. قال تعالى في سورة الفرقان، الآية 70: "إِلَّا مَن تَابَ وَآَمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ"

فالله تعالى لا يمحو السيئات فقط، بل يحوّلها إلى حسنات تضاف إلى رصيد العبد من الخير.

وللآية بُعد عملي واقعي، يتجلّى في قصة إحدى الأخوات اللواتي شاركن في دروس التعرف على الطريقة. كانت امرأةً صالحة المظهر، ذات وجه منير، وكانت ترى نفسها بعيدة عن المعاصي الكبيرة. رأت في المنام أخاها الشهيد طفلًا يمسك بيدها، وكانا يسيران بلباس أبيض نحو باب الجنة. وعندما وصلا إلى الباب قال لها: لا يمكنك الدخول، لأنّ من يدخل هنا يجب أن يكون قد تاب.

فقالت: "لكنّي لم أفعل ذنبًا!".

فقال لها: "ستُبيَّن لك التوبة".

وفي اليوم التالي، قادها القدر إلى التعرف على طريقتنا عن طريق بطاقة متجر قريب، فأخذت البيعة وتابت كما بُيِّن لها في الرؤيا.

وهذه الرؤيا تأكيدٌ عمليّ لمعنى الآية أن الهداية لا تتمّ إلا بالتوبة.

ومن اللطائف الإلهية أنّ من كان أكثر ذنبًا قبل توبته، كان نصيبه من نور التوبة أعظم؛ لأنّ الله وعد أن يحوّل كلّ سيّئاته إلى حسنات، لكنّ هؤلاء يحتاجون إلى مجاهدةٍ أكبر للمحافظة على توبتهم، بخلاف من كان بعيدًا عن الذنوب الكبيرة. ولهذا نرى أنّ كثيرًا من الأولياء العظام كانوا ممّن لهم تاريخ في المعاصي قبل أن يتوبوا توبةً صادقة، فجعلهم الله مصابيح هدى بعد أن جاهدوا أنفسهم.

أما سبب ارتباط التوبة بالبيعة على يد شيخ الطريقة فهو

أنّ الشيخ هو الطبيب الروحي الذي يثبت التوبة في القلب بنور السلسلة المحمدية، فيفتح باب الهداية الباطنية، ويعين المريد على الثبات، فلا تكون التوبة مجرد عاطفة زائلة، بل تحولًا حقيقيًا في الروح والسلوك.

فالشيخ هو الذي يوصل القلب بالمصدر الإلهي، ويربط السالك بسلسلة الأولياء، ويضعه على الطريق الذي يؤدي إلى المعرفة بالله.

ومن الشواهد على أثر التوبة الصادقة بإرشاد شيخ الطريقة، ذكر أحد الإخوة من أتباع الطريقة العليّة القادريّة الكسنزانيّة قصةً نقلها عن أحد أصحابه، وكان هذا الرجل في الماضي من أشدّ أهل الفساد، ممّن عُرفوا بشرب الخمر وأخذ الإتاوات وظلم العباد. إلا أنّ الله فتح له باب التوبة، فتاب توبةً نصوحًا، وأخذ البيعة، وسلك الطريق على يد شيخ الطريقة، حتى صار من أهل الولاية وارتفعت منزلته عند الله.

يقول الراوي:

سافرتُ مع هذا الرجل إلى زيارة مرقد سيّدنا أوَيس القَرَني قدّس الله سرّه، وبِتنا تلك الليلة عند الضريح. وفي الصباح جاء أحد الزائرين يمرّ بين الناس يسأل:

"هل بينكم رجل يُدعى فلان بن فلان؟"

فدللناه عليه. فجثا هذا الرجل على ركبتيه، وقبّل قدميه، وقال:

"لقد رأيتُ أوَيسًا القرني في المنام ليلة أمس، فقال لي: بما أنّ فلان قد جاء لزيارتي، فقد قبلتُ زيارة جميع الزائرين في هذا المقام هذه الليلة."

وهذا يدل على منزلة التائب إذا صدق، وأنّ الله قد يرفع بعض عباده من حضيض المعصية إلى أوج الولاية إن حفظوا توبتهم وجاهدوا أنفسهم.

أما الذين أكثروا من نقض التوبة مرارًا وتكرارًا، فإن قبول توبتهم قد يضعف بسبب كثرة العهود المنقوضة، وهؤلاء يحتاجون إلى واسطة روحية عند الله، أي إلى شيخٍ ربّاني له دعوة مستجابة ومقام عند الله، فيسلكون إليه، ويأخذون البيعة على يده أو على يد أحد خلفائه، ليكون الشيخ شفيعًا لهم في قبول توبتهم وثباتهم عليها.

وهذا المعنى جاء صريحًا في القرآن الكريم.

ففي سورة يوسف، الآيتان 97 و98، حين ندم إخوة يوسف على ذنوبهم، لم يذهبوا مباشرة إلى الله، بل قالوا لأبيهم:

**"قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ"**

فأجابهم يعقوب عليه السلام:

**"سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ"**

تأمّل قوله «رَبِّي»، ولم يقل "ربّكم" أو "ربّنا"؛ لأنهم كانوا قد خرجوا عن أمر الله، فاحتاجوا إلى واسطة صاحب مقامٍ عند الله.

وكذلك في سورة النساء، الآية 64، يقول تعالى عن المخطئين في عهد النبي ﷺ:

**"وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ، وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ، لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا"**

فهنا شرط اللهُ قبول التوبة بثلاثة أمور:

1. أن يأتوا إلى رسول الله ﷺ
2. أن يستغفروا الله
3. وأن يستغفر الرسول لهم

فلا يكفي الاستغفار وحده؛ بل يحتاج إلى شفاعة صاحب الولاية.

وهذا هو عين ما يجري في الطريقة:

فشيخ الطريقة هو وارث مقام الاستغفار النبوي في الأمة، وهو المربّي الذي يثبّت التوبة في القلب ويعين المريد على الثبات، ويكون شفيعًا له ببركة السلسلة المحمدية المباركة.

إنّ مسألة التوبة والبيعة لها حقيقةٌ عرفانية دقيقة، يجري خلالها تغيّرٌ حقيقي في العالَم الميتافيزيقي، أي في البُعد الغيبي للإنسان. ولأجل فهم ذلك، لا بدّ أوّلًا من توضيح الفرق بين الوجود الروحي والوجود المادي في الإنسان.

فأغلب الناس لديهم تصوّر ناقص عن أنفسهم؛ فهم يظنّون أنّ وجودهم كلّه محصورٌ في هذا الجسد الظاهر. ولذلك فإنّ ميزانهم في معرفة حالهم هو ميزانٌ جسدي صرف.

فإذا وقف أحدُهم أمام المرآة، ورأى أن بياض عينه صافٍ، ولسانه غير مُثقّل، ولون وجهه طبيعي، يظنّ أنّ حاله

بخير. ولكن الحقيقة أنّه في كثير من الأحيان يعرف في داخله أنّ حاله ليس بخير!

فهو يشعر باختناقٍ نفسي، وضيقٍ في الصدر، وثِقَلٍ على القلب، وكأنّ نارًا صامتةً تشتعل في داخله.

يشعر بقلقٍ دائم، وعدم رضا، ودوّامة من التكرار والملل في حياته. وللتخلّص من هذا الألم الداخلي، يلجأ بعض الناس إلى مسكّناتٍ دنيوية:

كمجالس اللهو، المعاصي الكبيرة، الخمر والمخدرات، الموسيقى الصاخبة، السهر الطويل، أو الأدوية المهدّئة التي لا تعالج شيئًا إنّما تُخدّر الوعي فقط.

وهناك من يظن أنّ المشكلة جسدية، فيلجأ إلى الإكثار من الطعام والفيتامينات و"الأوميغا 3 و4 و5"!

ثم يجد أن حاله النفسي يصبح أسوأ بدل أن يتحسن.

والسبب بسيط:

لأنّ المشكلة ليست في الجسد، بل في الروح.

ومن أخطأ في فهم طبيعة مشكلته، أخطأ حتمًا في اختيار الدواء لها. فإذا كانت الروح هي التي تتألم، فالجسد مهما قوّيناه لن يزول الألم.

النقطة الأساس هنا أنّ وجود الإنسان ليس وجودًا مادّيًا ثلاثيّ الأبعاد فقط، بل هو وجودٌ مركّب يتضمّن جانبا باطنيًا غير مادّي. ونحن نطلق على هذا الجانب اسم الوجود العرفاني أو الوجود الروحي.

إنّ هذا الوجود الباطني يتقاطع مع العالم المادّي الذي ندركه بالحواس، وهو ما يكوّن ما نسمّيه بالوجود الجسدي أو الظاهر.

ولتقريب الفكرة، تصوّر مخروطًا هندسيًا.

إذا قطعنا هذا المخروط بسطحٍ موازٍ لقاعدته، ظهر على السطح شكلٌ دائري.

الإنسان في العادة يتوهّم أنّ هذه الدائرة هي كلّ وجوده. والحقيقة أنّه ليس دائرة، بل هو المخروط بأكمله، والدائرة ليست إلا الجزء المرئي من وجوده عند تقاطعه مع عالم المادة.

أي أنّ ما نراه ونلمسه من أنفسنا هو جزء صغير، بينما الجزء الأكبر من وجودنا واقع خارج نطاق الحس.

غير أنّ تمثيل الوجود الباطني بالمخروط تمثيلٌ ناقص.

والأوضح من ذلك أن نتصوّر بالونًا موضوعًا على سطح طاولة. إنّ الجزء الذي يلامس سطح الطاولة هو الجزء الظاهر من الإنسان، أي وجوده المادّي.

أمّا جسم البالون الممتد في الهواء فهو الوجود الباطني الحقيقي. فالإنسان في ذاته هو ذلك البالون، لا تلك النقطة الصغيرة الظاهرة على السطح.

والسؤال هنا: ما الذي يجعل الوجود الباطني للإنسان ينمو ويتّسع ويتألّق؟ الجواب هو: البركة.

فالبركة هي النَفَس الروحي الذي ينفخ في هذا الوجود الباطني فيكبر وينير. وتأتي البركة من:

الصلاة، الصوم، الذكر، الأعمال الصالحة، الصفاء والنية الخيّرة.

وربّما لاحظ أحدكم أشخاصًا لا يتمتّعون بجمالٍ شكلي، ومع ذلك نرتاح إليهم ونحبّهم دون سبب ظاهر.

السرّ في ذلك أنّ وجودهم الباطني واسعٌ ومشرق.

يقول الناس عنهم: لهم بركة.

أمّا لغة أهل العرفان، فنقول: هؤلاء أصحاب نور.

هذا النور ليس نورًا حسّيًا يمكن رؤيته بالعين، بل هو نورٌ روحاني مذكور في قوله تعالى في سورة النور:

## "الله نور السماوات والأرض"

إنّه نورٌ يُحسّ ولا يُرى، يشعر به من كانت قلبه صافٍ وبصيرته يقظة.

أمّا من غلبت عليه المادّية وثقلت روحه بالحجب فلا يستطيع إدراك هذا النور.

فالإنسان بطبيعته يحنّ إلى النور الإلهي.

ولذلك يُحبّ أهل القلوب المنيرة، حتى وإن لم يدرك سرّ هذا الحبّ.

كما أوضحنا سابقًا، وبأسلوبٍ تقريبي لتقريب الفكرة إلى الأذهان، يمكننا تشبيه الوجود الباطني للإنسان بـ بالونٍ، يكون فمُه وحده على سطح العالم المادّي، ومن خلال هذا الموضع نستطيع "نفخ" وجودنا الباطني. والسؤال هنا: هل يمكن أن يصاب هذا البالون بالثقوب؟

الجواب: نعم، هذا البالون يُثقب بالمعصية.

فالإنسان الذي يرتكب الذنوب يفقد البركة التي تنشأ من أعماله الصالحة وعبادته. ولهذا السبب، نجد كثيرًا من الناس يُصلّون ويصومون ويذكرون، ولا يشعرون بنورٍ أو طمأنينةٍ قلبية. وذلك لأنّ كلّ "الهواء" الذي ينفخونه في وجودهم الباطني من خلال العبادة، يخرج مباشرةً من ثقوب الذنوب.

ولهذا السبب أيضًا نرى أن كثيرًا من الناس عندما يزورون المشاهد المقدّسة أو يؤدّون الحج يشعرون بنورٍ وبركةٍ وانشراحٍ قلبي، لكنّ هذا الشعور لا يدوم. فهو يتناقص شيئًا فشيئًا، تمامًا مثل عجلة سيارة مثقوبة بثقبٍ صغير، تفقد الهواء تدريجيًّا.

وقد أشار الله تعالى إلى حال أغلبية الناس بقوله في سورة

الأنعام (آية 116):

**"وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ"**

أي أنّ أكثر الناس يسيرون خلف الأوهام والظنون، وليس وراء نور الهداية.

والآن نسأل: كيف نُصلح هذا البالون المثقوب؟

الجواب: يُصلح بالتوبة.

فقد دعا الله تعالى عباده إلى التوبة في آيات كثيرة.

ويقول سبحانه في سورة الفرقان (آية 70):

**" إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا "**

أي: أنّ الله تعالى لا يكتفي بمغفرة الذنوب بل يحوّلها إلى

حسنات. ولو أردنا تقريب الفكرة بلغةٍ بسيطة، لقلنا:

إنّ الله تعالى هو أعظم "مصلّح ثقوبٍ" للنفوس.

فإذا تاب الإنسان بصدق، أصلح الله جميع الثقوب في بالونه الروحي.

وكل ما كان حجم هذه الثقوب أكبر، زاد الله في نفخ هذا الوجود الباطني رحمةً ولطفًا.

لكن البالون الذي كان كثير الثقوب يحتاج إلى عناية خاصة، لأنّ خطر تسرّب الهواء منه أكبر. ولذا فإنّ الأشخاص الذين ابتُلوا بمعاصٍ كبيرة أو بإدمان الخمر أو المخدرات، يكون الحفاظ على توبتهم أصعب من غيرهم.

ولكن: إذا صبروا وثبتوا وجاهدوا أنفسهم، كانت مكاسبهم الروحية أعظم بكثير.

لأنهم يحفظون كلّ البركة التي نفخها الله تعالى في أرواحهم عند توبتهم.

وفي هذا المعنى قال أهل الحكمة:

كلما كان الجرح أعمق، كان الشفاء أضوأ.

وكلما كانت التوبة أصدق، كان النور فيها أكمل.

كما بيّنا سابقًا، يمكن تقريب آلية اتصال المريد بالشيخ من خلال مثال البالون العرفاني.

فوجود الشيخ الروحاني، من حيث العظمة والسعة، يشبه بالونًا بقدر جبل، بينما وجود المريد يشبه بالونًا صغيرًا.

أمّا على صفحة العالم المادّي، فقد يظهر الاثنان بالحجم نفسه: جسدٌ أمام جسد، إنسانٌ أمام إنسان.

لكن في عالم الأرواح، الفرق بينهما هو الفرق بين ذرّةٍ وجبل.

عندما يتمّ البيعة، يتصل وجود المريد بوجود الشيخ من خلال قناة نور، ويُعزّز هذا الاتصال بواسطة المحبة.

والبيعة عند حضرة الشيخ شمس الدين الكسنزان القادري الحسيني (قدس الله سرّه) تشمل مرحلتين:

1. التوبة: وفيها يتمّ "ترميم" وجود المريد الباطني (البالون المثقوب).

2. البيعة: وفيها يُفتح جسر من النور بين قلب المريد وقلب الشيخ.

ومن خلال هذه البيعة، يزرع الشيخ في قلب المريد بذرة من النور. ومع المداومة على الصلاة، والذكر، والعمل الصالح، تتحوّل هذه البذرة إلى شجرة نور، وتتحوّل المحبة إلى عشق.

أمّا إن أهمل المريد أعماله وتغافل عن الذكر، فلن يستطيع

من تلقاء نفسه أن يزيد محبته أو يرتقي، لأن الفيض إنما يكون بإمداد الشيخ، لا بمجرد جهد المريد وحده.

وقد أشار حافظ الشيرازي إلى هذه الحقيقة بقوله (ومعناه):

**إن لم تصدر الجذبة من جهة المحبوب، فلن يبلغ العاشق مراده بجهده وحده.**

فإذا وُلد العشق في قلب المريد، نظر الشيخ إليه، وهذه النظرة وحدها تفتح قناة النور فيفيض النور من وجود الشيخ إلى وجود المريد، كما يندفع الهواء في البالون الصغير فيرتفع إلى الأعلى.

ولهذا قال أهل العرفان إن فناء المريد في شيخه (فناء في الشيخ) هو من أعظم أسرار السير، واعتبروا:

**نظرة واحدة من الشيخ، أرفع من أربعين خلوة.**

وبعد البيعة، لا بدّ للمريد من الذكر، فالذكر هو النَّفَس الذي يوقظ نار المحبّة في القلب.

كما أن النار تحتاج إلى النفخ لتشتعل، فإن الأرواح تحتاج إلى الذكر لتتّقد بنور الله.

فالمريد بعد البيعة يلتزم أورادًا مخصوصة من القرآن الكريم، يؤديها بعد الصلوات وفي أوقات النهار، حتى تشتعل شعلة العشق الإلهي في قلبه.

# ما هو دور الأذكار في الطريقة؟

في هذا البحث سنتحدّث عن الأذكار وفوائدها، وعن الحكمة الروحية والعلمية الكامنة وراء هذا العمل الشريف.

إنّ أحد أهمّ الأعمال التي ورد فيها التأكيد في القرآن الكريم، والتي يُقصّر فيها كثير من عامة المؤمنين بينما يعتني بها أهل الطريقة، هو الذِكر. ونحن هنا نشرح فلسفة الذكر وفائدته.

كما أنّ النار حين تُوقَد تحتاج إلى النفخ لتزداد اشتعالًا وتتّسع شعلتها، فكذلك قلب المريد بعد البيعة يحتاج إلى الذِكر لكي تتّقد فيه نار المحبّة الإلهية. وبعبارة أخرى:

الذِكر في الطريقة هو بمثابة النفخ في النار التي أُلقيت شرارتها في قلب المريد يوم البيعة.

إنّ جميع أذكار الطريقة مأخوذة من القرآن الكريم، وتشمل:

لا إله إلا الله، الله، يا هو، يا حي، يا واحد، يا عزيز، يا رحمن، يا رحيم... وغيرها من الأسماء المباركة، وهي تسعة عشر ذكرًا، يجب أداؤها كلّها بالترتيب، مئةُ ألفِ مرةٍ لكلِّ ذكر.

هذه الأذكار التسعة عشر ليست أمرًا مُستحدَثًا، بل هي مما استقرّ في الطريقة منذ القديم. ويمكن تشبيهها بـ سُلَّمٍ ذي تسعة عشر درجة يرتقي به السالك نحو الله تعالى.

ومن كرامات الطريقة أنّ عدد الأذكار كان تسعة عشر منذ زمن بعيد، ثمّ تبيّن في سنة 1976 من خلال الكشف الروحي أنّ هذا العدد مرتبط بسرٍّ إلهي عجيب، فكان ذلك دليلًا آخر على صدق الطريقة وسموّها.

وفي الطريقة تُشبَّه هذه الأذكار بـ مفتاحٍ ذي تسعة عشر سنًّا، فإذا اكتملت أسنانه فُتح قفل باب أسرار الطريقة أمام

المريد. ولهذا، فإنّ دخول عالم العرفان أو الميتافيزيقا غير ممكنٍ عادةً بلا استكمال هذه الأذكار.

فالذكر الأوّل هو لا إله إلا الله، والثاني الله، والثالث يا هو، والرابع يا حي... وهكذا إلى تمام التسعة عشر. ولا يجوز تقديم ذكرٍ على آخر، كما لا يمكن وضع القدم على الدرجة الثالثة من السُلَّم قبل الأولى.

## انسجام الأذكار مع فطرة الإنسان

إنّ أذكار الطريقة منسجمة مع فطرة الإنسان، وتُحدث في قلبه وجدًا وشوقًا.

وقد أشار القرآن إلى أصل هذا الوجود الفطري في قوله تعالى (الأعراف 172):

**"وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ**

وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا"

فهذا الميثاق الإلهي يعني أنّ أسماء الله الحسنى كانت مطبوعة في أصل وجود الإنسان منذ لحظة خَلقه.

لكنّ الغفلة والذنوب تُضعِف أثر هذا الميثاق في النفس حتى يكاد يختفي.

يمكن تقريب الصورة بمثالٍ بسيط:

لو كان لشخصٍ ضفيرة شعر جميلة ثمّ تركها سنوات بلا عناية، فسوف تتشابك وتفقد جمالها. فإذا أراد إصلاحها، احتاج أولًا إلى وقت طويل لفكّ العقد واحدة تلو الأخرى.

ولكن حين تستعيد الضفيرة شكلها الطبيعي، فإنّ المحافظة عليها بعد ذلك لا تحتاج سوى بضع مرات من التمشيط يوميًا.

وهكذا تمامًا هو أثر الذِكر:

في البداية يحتاج المريد إلى مجاهدة وصبر لأداء الذكر بكثرة،

ليزيل "عُقَد الغفلة" من قلبه، ثمّ بعد ذلك يصبح الذكر يسيرًا ميسّرًا ويحفظ له صفاء قلبه واستقامته.

وبعد هذا الشرح الذي تقدّم، يمكننا تشبيه الأذكار المِئَةُ الألفيّة في الطريقة المباركة بعملية التمشيط الأوّل للشَّعر، بينما تُشبَّه الأذكار اليوميّة بعد الصلوات بعملية التمشيط اليومي للمحافظة عليه مستقيمًا وجميلًا.

ولكن ما سرُّ أنّ الشعر المقبول للتمشيط يستقيم ويتنظّم؟

السبب هو أنّ الشَّعر بطبيعته مؤلّف من خيوط دقيقة قابلة للتمشيط، فإذا شُوِّشت هذه الخيوط ثم استُعمِل المشطُ عليها، عادت إلى انتظامها الأول. أمّا إن مرّرتَ المشطَ على شيءٍ غير قابل للتمشيط، فلن تتغيّر هيئته مهما أكثرت من المحاولات.

فلو مرّرتَ المشطَ آلافَ المرّات على كومةٍ من الرمل، فلن يتغيّر شكل الرمل، لأنّ طبيعته غير قابلة للتمشيط أصلًا.

أمّا في الشعر، فإنّ تأثير المشط يعود إلى أنّ آثار الأسنان كانت موجودة فيه أصلًا، ثمّ زالت بسبب الإهمال.

وهذا المعنى ينطبق تمامًا على الأذكار التسعة عشر في الطريقة العلية القادرية الكسنزانية؛ فإنّ تأثيرها العميق ودوام آثارها إنما يكون لأنّ أسماء الله الحسنى كانت مطبوعة في فطرة الإنسان منذ الميثاق الأول، ولكن الإهمال والغفلة والذنوب جعلت آثارها تبهت وتضمحلّ عبر السنين.

ولهذا قال الله تعالى في ميثاق الذرّ:

**"أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ" (الأعراف 172)**

فهذا الميثاق يدلّ على أنّ الأسماء الإلهيّة مرسومة في أصل تكوين الإنسان، وأنّ الذِّكر يعيد إحياء تلك النقوش الفطرية.

ولهذا نجد طفلًا في الخامسة من عمره يستطيع أن يحفظ

القرآن كاملًا، كما نجد من يستعيد في ليلة واحدة ما كان مودَعًا في فطرته من كتاب الله. أمّا الكتب السماويّة التي حُرّفت وفقدت أصلها الإلهي، فلا يمكن أن يقع فيها مثل ذلك.

ولإتمام الحديث عن أثر الأذكار، نقول:

لقد بيّنّا أنّ لنا تسعة عشر ضفيرة روحيّة، كانت في أصلها ناعمة مستقيمة، ولكن الغفلة والذنوب شوّهتها وجعلتها متشابكة.

ولذلك فإنّ كلّ ذكرٍ من الأذكار التسعة عشر يحتاج إلى مئة ألف مرّة لتمشيط هذه الضفائر وإعادتها إلى شكلها الأول.

وبعد أن يُكمِل المريد تمشيط ضفيرةٍ روحيّة معيّنة - أي ذكرٍ معيّن - ينتقل إلى الضفيرة التي تليها.

إنّ كلَّ اسمٍ من أسماء الأذكار التسعة عشر يفتح أمام السالك نافذةً جديدة على عالم العرفان والمعرفة الإلهية.

وتشبيهًا أدقّ، فإنّ كل ذكرٍ يشبه هوائيًّا (Antenna) يستقبل موجاتٍ عرفانية في تردّدٍ محدّد.

فمن أكمل الأذكار التسعة عشر كلّها، صار يستقبل الإمداد الروحي في تسعة عشر نطاقًا من التردّد الروحاني.

أمّا من أكمل ذكرين فقط، فإنّه لا يستقبل إلا في نطاقين.

ولهذا تختلف مراتب الرؤى والمكاشفات وعمق الإدراك الباطني بين السالكين.

ولهذا أيضًا تختلف تأثيرات العبادة على من بلغوا مراتب متقدّمة من السلوك، فترى فيهم حالات روحانية عالية أثناء الصلاة أو الذكر أو مجالس السماع، قد لا يفهمها المبتدئون وقد يتوهّمون أنّها مبالغة، وهي في الحقيقة ما يُسمّيه أهل

الطريق: "حال الدروشة" أو الأحوال الروحيّة.

يمكن أن نُشبّه مراحل الذكر التسعة عشر بـ سلّم من تسع عشرة درجة نحو مرضاة الله تعالى.

وكما أنّ لكلّ درجةٍ من الصعود احتمالَ زلّةٍ أو سقوط، فكذلك للسالك في كلّ مرحلة خطرُ تراجعٍ روحي.

وقد يكون في هذا المعنى شيءٌ من الإشارة إلى ما ورد في سورة المدثر:

**"عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ"**

وهي – كما يذكر بعض أهل المعرفة – إشارة رمزية إلى تسعة عشر مرتبة من الهبوط في مقابل تسعة عشر مرتبة من الارتقاء.

إنّ أذكار الطريقة من أهمّ أسباب الثبات على التقوى

والبقاء في طريق الهداية.

وقد شبّه مشايخ الطريقة - قدس الله اسرارهم - هذه الأذكار بـ:

**"سيفٍ يواجه به المريدُ شياطينَ الجنّ والإنس"**

وهي كذلك سببٌ في البركة وسعة الرزق، لأنّ الله تعالى يقول في سورة طه (124):

**"وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا"**

وأمّا الأذكار بعد الصلوات فهي من أعظم أسباب الترقي الروحي، وقد نصّت عليها الآية الكريمة في سورة النساء (103):

**"فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِكُمْ" أي: إذا فرغتم من الصلاة فاذكروا الله في كلّ أحوالكم: قيامًا، قعودًا، وعلى جنوبكم.**

## الذكر الجماعي والحلقات الروحانية في الطريقة

إنّ الذكر الجماعي أو حلقات الذكر من الأعمال التي يُؤكّد عليها في الطريقة، وقد وردت فيها نصوصٌ صحيحة ومأثورة.

فقد قال النبيّ الكريم ﷺ:

**«إنَّ هذه القلوبَ لتصدأُ، وجلاؤُها قراءةُ القرآن الكريم، وحضورُ حلقاتِ الذكر»**

أي: إنّ القلوب تصدأ بالغفلة، وإنّ ما يُزيل صدأها ويُلمّع صفاءها هو تلاوة القرآن الكريم، والجلوس في مجالس الذكر.

وروى الترمذي أنّ رسول الله ﷺ قال:

**«إذا مررتم برياضِ الجنةِ فارتعوا»**

قالوا: وما رياض الجنة؟

قال: **« حِلَقُ الذِّكر»**

أي: إنّ مجالس الذكر هي بساتينُ من الجنّة في الدنيا، فكلّ من دخلها وجب عليه أن يغتذي بأنوارها.

وقال سيدُنا عليّ كرّم الله وجهه:

**«إنّ الله تعالى جعل الذِكرَ جلاءً للقلوب، تُزيل به ثِقَلَ السمع، وتُطهّر به كَدَرَ البصر، وتُبدّل به المخالفةَ موافقة، والمنافرةَ مودةً وسكينة».**

وقال الإمام جعفر الصادق عليه السلام:

**«من كان ذاكِرًا لله حقيقةً فهو مطيعٌ له، ومن كان غافلًا عن ذكره فهو عاصٍ له»** (كتاب حياة الصحابة).

## أثرُ أذكار الطريقة في معالجة المشكلات الروحيّة والنفسيّة

إنّ أكثر الناس اليوم يعانون من اضطراباتٍ روحيّة ونفسيّة:

الحزن، القلق، الاكتئاب، الغضب، الحسد، الضيق... وهذه الصفات كثيرًا ما تُباغت الإنسان في الوقت غير المناسب، فتؤذيه وتُزعج مَن حوله.

ومن أعظم ما يُعين هؤلاء - بل ممّا يظهر أثره بشكلٍ عجيب - ذكرُ الله تعالى. وسنشرح هنا بإيجازٍ كيف يعمل الذِكر على تهذيب الإنسان وتطهير باطنه.

إنّ الذكر يعينك على التغلّب على:

البخل، الطمع، الغضب، الشهوة، الحسد، سوء الخلق، التجسّس في غير نفع، الاستهزاء، الملامة، سوء الظن، العُجب، والرياء الخفي...

ويغرس مكانها:

السخاء، القناعة، التواضع، الصبر، الحِلم، الصفح، الجود، التوكل، العبادة، الشكر، الرضا بالقضاء، والصبر عند البلاء.

الذكر في الطريقة ليس عملًا قلبيًا فحسب، بل هو صقلٌ للنفس كلها، يطهّرها ويجعلها قابلةً لاستقبال أشعة النور والبركة الإلهية.

ونقصُ هذه الأنوار هو من أهمّ أسباب العلل الروحية والنفسيّة في عصرنا.

قبل الخوض في خصائص كل ذكر، يجب التنبيه إلى أنّ الأذكار المذكورة هنا هي أذكار الطريقة العلية القادرية الكسنزانية، ولا ينتفع بها إلا من أخذ الطريقة.

أمّا من لم يأخذ الطريقة، فلا يجوز له ذكرها بهذه الصيغ، لأنّه غير مأذون بها.

وقد يقول البعض: "وما معنى الإذن؟ أليس الذِكر مجرّد

كلمات؟" والجواب: ليس كلّ كلمةٍ مفتاحًا، وليس كلّ مفتاحٍ يفتح الباب.

إنّ كلّ ذكرٍ من أذكار الطريقة هو باب من أبواب أسرار الله تعالى، ولكلّ بابٍ مفتاحُ وشيفرةٌ (رمز).

والمفتاح هو نصّ الذكر الذي قد يجده الإنسان في الكتب والرسائل، مثل:

لا إله إلا الله، الله، يا هو، يا حي...

لكنّ المفتاح وحده لا يكفي. فلا أحد يفتح خزينةً عظيمةً لمجرّد امتلاكه مفتاحها، ما لم يُنسب إلى صاحب الخزينة ويُجاز بالدخول.

وكما أنّ الخزنات الحديثة لا تُفتح بالمفتاح وحده، بل تحتاج إلى بصمة، أو وجه، أو إذنٍ خاص... فكذلك الذكر:

لا يُعطي أثره إلا لمن أُذن له بذكره، والإذن إنما يحصل بالبيعة.

ولهذا نجد عددًا من المريدين الذين كانوا يذكرون الله قبل الطريقة سنين طويلة، ويظنّون أنهم "ذَاكِرون".

لكنهم بعد البيعة يقرّون بأنهم لم يجدوا نور الذكر من قبل، وأنهم لم يفهموا معنى الذكر ولا بركته إلا بعد الدخول في الطريقة.

وكذلك المريد الذي كان يشعر بحلاوة الذكر ونوره، ثم يقع في كبيرةٍ تُبطل طريقتَه، يشهد بأنّ نور الذكر ينطفئ فجأة، ويصبح الذكر عنده مجرّد تكرار كلمات لا أثر فيها ولا بركة.

## ماذا يحدث إذا ذكرَ شخصٌ غيرُ مأذونٍ أذكارَ الطريقة؟

إذا قام شخصٌ لم يأخذ الطريقة بذكرِ أذكارها، فماذا يحدث؟

يمكننا تقريب الفكرة بالمثال الآتي:

تخيّل إنسانًا يريد الدخول إلى خزائن رحمة الله، فيملك المفتاح، ولكن لا يملك الرمز السِّري الذي يفتح الباب.

فيظلّ واقفًا عند الباب، يحاول ويجتهد، دون أن يُؤذَن له بالدخول.

هنا، يلتفت الشيطان – وهو صديقٌ قديمٌ لهذا الإنسان – فيراه يقترب من قلعة الله ويريد أن يقطع صلته به ويلتحق بطريق الهداية. فماذا يفعل الشيطان؟

من الأفضل ألّا يجرّب الإنسان ذلك، ولكن قد يقع في بعض الإيذاء أو التشويش... لأنّه يدخل من غير بابٍ، ويحاول من غير إذن.

وربّما لهذا السبب انتشرت بين الناس بعض الأقوال التي تُثبّطهم عن الذكر الكثير، مثل قولهم:

«ذكرُ لا إله إلا الله يُفقِر»، أو «كثرة الذكر تُتعب الإنسان»... وهي أقوال لا أصل لها، وإنما هي من وساوس الجهل أو الشيطان.

أمّا من أخذ الطريقة، والتزم بالأذكار التي أذِن له بها شيخُ الطريقة، فإنّه يدخل في حصنٍ من حصون الله الرحمان، لا

يستطيع أيُّ قوّةٍ في العالم أن تؤذيه، ويصبح شيخُ الطريقة ضامنًا لحفظه ورعايته.

**بل إنّ السحر والشعوذة وأذى الشياطين - التي انتشرت في هذا الزمان - لا يكون لها أيّ تأثير عليه مادام على عهده، ملازمًا لأذكاره.**

لكن إن ترك أوراده التي تعهّد بها بين يدي الشيخ، فقد عرّض نفسه بنفسه لتلك البلايا التي حُصِّن منها من قبل.

ولهذا قال مشايخ الطريقة:

**«إذا انقطع الذِّكر انقطع الإمداد»**

أي: إذا توقّف المريد عن ذكره، توقّفت عنه الفيوضات الإلهية. وقالوا أيضًا:

**«مَن لا وَردَ له، لا وارِدَ له»**

أي: لا يحصل في قلبه نورٌ ولا واردٌ روحي ما لم يكن له وِردٌ ثابت.

كما ذكرنا في اللقاء السابق، فإن أذكار الطريقة تنقسم إلى قسمين:

1) الأذكار الدائمة (النُّسُك التسعة عشر)

وهي أذكار تُقال على مدى الزمن، حتى يبلغ كلُّ ذكرٍ منها مئة ألف تكرار.

2) الأذكار اليومية

مثل أذكار ما بعد الصلوات، ورد العصر، الصلوات اليومية وغيرها.

طريقُ السلوك يبدأ من اللسان، لكن غايته وهدفه الحقيقي هو القلب والسرّ.

في البداية يُردَّد الذكر باللسان،

فإذا أخذ المريد الطريقة واستمر على الذكر مع حضور القلب، انتقل الذكر تدريجيًا من اللسان إلى القلب،
وفي المراتب اللاحقة إلى ذكر السِّرّ،
وشرح هذا المقام خارج نطاق حديثنا اليوم.

في هذه المرحلة يشعر المريد بأن الذكر صار لذّته وأنسه،
وأن روحه تتشرّب نوره،
حتى كأنه يبثّ في باطنه حياةً جديدة.

وكثيرون في هذا المقام يشعرون بحرارةٍ لطيفة أو طاقةٍ نورانية في جهة القلب،
وكأن شيئًا كان نائمًا فاستيقظ.
ومن هنا يبدأ القلب بالذكر في جميع أحواله،
حتى أثناء العمل ومشاغل الحياة اليومية.

وأهم أذكار الطريقة هي هذه الأذكار التسعة عشر،
التي تبدأ بالذكر الشريف:

«لا إله إلا الله»
وفي كل واحدٍ منها أسرارٌ عظيمة.
ومن بين هذه التسعة عشر،
للأذكار السبعة الأولى مكانةٌ خاصة،
لأنها تعمل مباشرةً على أنفاس النفس الإنسانية.

سؤالٌ صادقٌ مع نفسك...

قبل الدخول في التفاصيل،
دعنا نقف لحظةً مع سؤالٍ قد يكون راودك يومًا ما:

لماذا أشعر أحيانًا وكأني عالقٌ في دائرةٍ مكرّرة؟

لماذا يبدو أن شيئًا ما داخل صدري لا يسمح لي بالراحة؟

لماذا لا أصل إلى تلك السكينة العميقة التي أشتاق إليها في داخلي؟

إن خطرت هذه الأسئلة في قلبك،

فاعلم أن هذا الطريق خُلق لأمثالك.

فالطريقة العليّة القادرية الكسنزانية منذ بدايتها

تكشف هذا الطريق الباطني، الطريق الذي يبدأ بـ الأذكار السبعة الأولى

العاملة على تهذيب النفس وتطهيرها.

ومن جانب آخر، يصف ابن عربي هذا الطريق

بأنه اجتيازٌ لسبع بوابات،

تنتقل فيها الروح من ظلّ النفس إلى نور الحضور الإلهي.

وفي هذا الحديث سنشرح كلّ ذكرٍ من الأذكار السبعة الأولى

مع البوابة المقابلة لها في رؤية ابن عربي،

حتى لا يكون الفهم مجرد معلومات،

بل حالةٌ تُحسّ وتُعاش.

١) «لا إله إلا الله» — مقام النَّفس الأمّارة

البوابة الأولى: الفرس الجامح في الداخل

أول ذكر من أذكار الطريقة

هو ذكرُ التطهير: «لا إله إلا الله»؛

ذكرٌ يُنقّي القلب من آفاتٍ كثيرة

ويُزيل طبقاتٍ من ظلمة الشهوات والخوف.

وهذا الذكر مرتبطٌ بـ النفس الأمّارة؛

النفس المضطربة، كثيرة المطالب،

المملوءة بالخوف والجوع والرغبات التي لا تنتهي.

ولون هذه النفس في اصطلاح أهل المعرفة: الكَدِر المائل إلى الكُبُود،

وموضعها: صدر الإنسان.

ويصفها ابن عربي بعبارات دقيقة:

كطفلٍ لا يشبع أبدًا،

أو كحيوانٍ خائفٍ يصرخ ويعضّ بسبب خوفه.

إنه ذلك الصوت الداخلي الذي يقول لك:

**«أكثر... أسرِع... أرتَحْ...**

**اهرب من الألم... ابحث عن اللذّة فقط...»**

اليوم يقول لك:

**«تناول شيئًا بسيطًا فقط...»**

ثم تكتشف أن الطعام أصبح مهربًا من حزنك.

واليوم التالي يقول:

**«ساعة واحدة على الهاتف فقط...»**

فتجد أن ساعتين مرّتا،

وعيناك مرهقتان،

ومع ذلك تستمرّ في التمرير

هربًا من مواجهة نفسك.

ويومًا آخر يهمس:

**«أرسل رسالة قصيرة فقط...»**

ثم تجد نفسك في علاقةٍ لا تُنتج إلا الجراح والإرهاق.

هذا الصوت ليس أنت؛

هذا صوت النفس الأمّارة.

ويحذّر ابن عربي قائلاً:

ما دامت الأمّارة حيّةً مهيمنة،

فلن تظهر المراتب الروحية التالية؛

لأن اختيارات الإنسان في هذه الحالة

ليست قراراتٍ واعية،

بل ردود أفعال.

**الطريق إلى العبور**

يرشد ابن عربي إلى طريقة رفيعة يسمّيها:

الملاحظة بلا حُكم

فعندما يأتيك دافعٌ أو وسوسة:

لا تتبعه، ولا تقمعه، بل راقبه فقط.

فإذا شعرت برغبة مفاجئة في الأكل أو في تصفّح الهاتف:

قف قليلًا...

راقب نفس الرغبة،
بدون أن تصدر حكمًا على نفسك
ولا أن تصفها بالضعف أو الخطأ.

يقول ابن عربي:
«إذا رأيتَ الشيء بلا حكم، بدأتَ تتجاوزُه.»

وذكر «لا إله إلا الله»
هو النور الذي يُسلَّط على هذا الظلام؛
فمع الوقت ترى أن خلف كل شهوةٍ أو خوفٍ
هناك فراغٌ داخليٌّ يبحث عن الله، ولكنه ضلّ الطريق.
وهكذا يكون التطهير أول خطوة في الطريق.

٢) «الله» — النَّفس اللَّوّامة
البوّابة الثانية: سجنُ اللوم ذي القداسة الموهومة

الذكرُ الثاني هو ذكر «الله»،
ذكرٌ يقرّب العبد من رحمة الله تعالى ويليّن القلب.
وهذا الذكر موجَّهٌ إلى النفس اللوّامة،
النفس التي تُكثر من العتب واللوم.
نورُها أصفر، وموضعها القلب.

صفات النفس اللوّامة:
اللَّوم المستمر، المقارنة، العُجب الخفي، الاعتراض، والرياء الدقيق غير الظاهر.

في هذا المقام، تبدأ تلك "الوحشية الشهوانية" للنفس الأمّارة بالانحسار،
لكن يظهر بدلًا منها صوتٌ جديد، يقول من الداخل:
«لماذا أكلتَ؟ لماذا تكاسلت؟ لماذا لستَ مثل فلان؟
أنت دائمًا تُخطئ... لن تتغيّر أبدًا...»

ويقول ابن عربي:

إن النفس اللوّامة كانت حارسًا يفترض به أن يحميك،

فإن خرج زمامُها عن يدك، تحوّلت إلى سجّان.

وهذا ما يسمّيه ابن عربي:

«الحربُ الباطنيةُ ذات المظهر المُقدّس»

إذ يظن السالك أنه يسعى للإصلاح،

لكنّه في الحقيقة يحرق نفسه من الداخل.

**طريقُ العبور**

الشفقة الصادقة على النفس

رَصَدَ الخطأ... لكن بلا تحطيم.

رؤيةُ العيب... بلا جلدٍ ولا قسوة.

بدل أن تقول:

«أنا ضعيف... أنا فاشل... لن أتغيّر...»

قل:

«أخطأتُ... لأنني إنسان.

لكنني لا زلت في الطريق.

وما زال بإمكاني أن أختار الصواب.»

يقول ابن عربي:

**"لا تُجتاز بوابةُ النفس اللوّامة إلا من طريق الرِّفقة والشفقة، لا بالقمع ولا بالإنكار."**

وذكر «اللّٰه»

يُليّن القلب ليُخاطب الإنسانُ نفسه

كصديقٍ صادقٍ رحيم:

مُحاسِب... لكن غير قاسٍ.

٣) «يا هُو» — النَّفس المُلْهَمة

البوّابة الثالثة: نخٌّ الروحانية بلا فقر

الذكر الثالث هو ذكر «يا هُو»،

ذكرٌ يُثبّت نور الإيمان

ويرفع السالك إلى مقام أهل العلم والمعرفة.

وهذا المقام مرتبطٌ بالنفس المُلهَمة،

لونها أحمر، وموضعها الرُّوح.

صفات هذه النفس:

السخاء، القناعة، العلم، التواضع، الصبر، حسن الظنّ،

وقبول أعذار الناس.

وهنا يبدأ السالك لأول مرة يشعر بأن الطريق قد انفتح

له: تصبح الصلوات أكثر التزامًا،

يظهر في حياته الذكرُ والتوبةُ والدعاء،

تنطفئ رغبة المعصية،

ويقوى ميله إلى النور،

وقد يرى إلهامات وفهومًا جديدة،

أو إشاراتٍ لطيفة في مجرى حياته.

لكن هنا يكمن الخطر الكبير...

يُحذّر ابن عربي:

**«الإلهامُ إذا لم يُقرَن بالفقر، أورثَ العُجب.»**

أي إذا ظنّ السالك في نفسه:

«لقد أصبحتُ شيئًا...

أنا أفهم... والناس لا يفهمون...

أنا أرقى من غيري...»

فإنما عادت النفس السابقة، لكن بثيابٍ نورانية!

وهنا يقع الإنسان في وهم الروحانية
وهو يظن نفسه من أهل الحقيقة.

**طريقُ العبور**

الفقر الوجودي

أن تدرك بعمقٍ:

الإلهامُ الذي جاءك... النور الذي يلوح في قلبك...

الفهم الذي يُفتح لك...

كلّ ذلك ليس منك.

أنت مرآة، إن كانت صافيةً أظهرت النور،

لكنها ليست مصدر النور.

وذكر «يا هُو»

يصقل هذه المرآة حتى يتحوّل الشعور من العلوّ إلى التواضع،

ومن الوهم إلى المسؤولية.

٤) «يا حيّ» – النَّفس المُطمئنة
البوّابة الرابعة: سكينةٌ تأتي بعد التخلّي

الذكر الرابع هو ذكر «يا حيّ»؛
ذكرٌ يغسل القلب من شوائب الغفلة
ويطهّره من الرواسب.

وهذا المقام للنفس المطمئنّة؛ لونها أبيض ناصع.
صفاتها:
الجود، التوكّل، الحِلم، العبادة، الشكر، الرضا،
والصبر أمام الابتلاء.
ويقول ابن عربي:
إن السكينة في هذا المقام ليست تلك "الراحة التجارية"

التي تباع تحت عنوان "الاسترخاء" و"المديتايشن".

بل هي سكينةٌ جاءت من فهمٍ عميق.

**«النفس المطمئنّة، نفسٌ تخلّت...**

**لا من عجز... بل من بصيرة.»**

في المقامات السابقة،

كنت تُقاتل:

الوسوسة، الغرور، الحكم على النفس.

أما هنا،

فلم تعد محتاجًا لإثبات شيء:

لا لنفسك، ولا للناس، ولا حتى لله عز وجل.

أنت فقط...

تسير مع التيار الإلهي.

قد تبقى في حياتك:

الألم، الامتحان، الفقد...

لكن في عمق قلبك

هناكَ ثِقلٌ هادئ يقول:

«لا بأس... هذا أيضًا من الطريق.»

فالسكينة ليست غياب الألم،

بل حضورُ الفهم.

وذكر «يا حيّ»

يدخلك هذا الصمت الحي،

صمتٌ لا يأتي من هروبٍ ولا من جفاف،

بل من وعيٍ واستسلامٍ جميل.

٥) «يا واحد» — النَّفس الرّاضِيَة

البوّابة الخامسة: الرضا بالفناء... بداية البقاء

الذكر الخامس هو ذكر «يا واحد»؛

وإذا كان العبد صادقًا مخلِصًا،

رفَع الله به الحجابَ بينه وبين ربّه.

وهذا الذكر موجَّهٌ إلى النفس الراضية؛

نورُها أخضر.

صفات هذه النفس:

الزهد عمّا سِوى الله، الإخلاص، الورع،

ونسيان ما عدا الحقّ.

ويقول ابن عربي:

**«الراضي: نفسٌ رضيت بالفناء...**

**وذلك هو أوّل البقاء.»**

في هذا المقام،
لا يعود همُّ السالك أن ينال راحته فقط،
بل أن ينال رضا الله.

ما تزال عنده الأدعية والآمال، لكنّه لا يتعلّق بالنتائج.

تصوّر أنك دعوتَ لسنوات،
واجتهدتَ وسعيتَ، ومع ذلك لم يتحقق المراد.

في المقامات السابقة ربما كنتَ لتهتزّ، أو تحزن،
أو تقول في ضيقك:
**«لن أدعو بعد الآن!»**

أما في مقام الرّاضية فتقول:

**«لم تُعطِ... لأن الأمر ليس لي.**

**وما زلتُ أحبّك.»**

هنا يصبح سكوتك سكوتَ تسليمٍ مُدرِك.

وذكر «يا واحد»

يوحّد الداخل:

فلا يبقى القلبُ ممزّقًا بين إرادة الله

وإرادة الدنيا، بل يصبح المطلوب الحقيقي:

هو ذاته، لا عطاياه.

٦) «يا عزيز» — النَّفس المَرْضِيّة

البوّابة السادسة: الموضع الذي يرضى اللهُ فيه عنك

الذكر السادس هو ذكر «يا عزيز»؛

ذكرٌ يخلّص الإنسان من شرّ النفس الأمّارة،

ومن كيد الشيطان.

وهو موجَّهٌ إلى النفس المرضيّة؛

وقد وُصف نورُها بأنه أسود،

لكنّه السواد الذي يأتي بعد نهاية الألوان،

لا سواد الظلمة والخطيئة.

صفات هذه النفس:

حسن الخلق، اللطف بالخلق، الصفح، المحبّة،

وقربٌ خاصّ من الله عزّ وجلّ.

ويقول ابن عربي:

**«المرضية: نفسٌ لا ترضى عن ربّها فحسب،**

**بل يرضى ربُّها عنها.»**

في هذا المقام،

لا تفعل الخير لتنال الجنّة،

ولا ليُكتب لك الثواب، بل لأنك لم تعُد تستطيع

أن تتحرك ضدّ النور.

بل تتغيّر نوعية الدعاء نفسه:

فبدل طلب الأشياء،

يصبح الدعاء وصلاً بالله.

تذكر الله، لأن قلبك اشتاق إليه،

لا لأنك تريد أجرًا فحسب.

ويقول ابن عربي:

قد تكون النفس المرضيّة

في قلب السوق،

بين الأقساط والعيال وضجيج الدنيا،

لكنها في الباطن

ساكنةٌ في خلوة مع ربّها.

هذا هو العرفان الحقيقي:

لا الهروب من الحياة،

بل الحضور مع الله داخل الحياة.

وذِكر «يا عزيز»

يثبّت هذا المقام في قلب السالك.

٧) «يا ودود» — النَّفس الكامِلَة

البوّابة السابعة: عبورُ النفس... والبقاءُ في المحبّة

آخر الأذكار السبعة الأولى

هو ذكر «يا ودود»؛

وإذا كان المريد صادقًا في سيره،

فتح الله له بهذا الذكر عينَه وبصيرته الباطنية.

وهذا الذكر للنفس الكاملة؛

النفس اللا ملوّنة، التي تلاشت فيها الألوان،

واجتمعت فيها الأنوار.

صاحب هذه النفس:

لا يفتر عن العبادة، يعبد بلسانه وقلبه وجوارحه،

يُكثر من الاستغفار، تواضعه شديد،

فرحه الأكبر أن يرى الناس يعودون إلى الله،

محبّته للخلق أشدّ من محبّته لولده،

ولا يبقى في قلبه كراهية لأي مخلوق.

ويُسمّي ابن عربي هذا المقام:

«بابَ الفناء والبقاء»

فأنت لا تُمحى، بل تنحّي نفسك

ليجري نور الله من خلالك.

وذِكر «يا ودود»

يُخرج السالك من حدود "الذات"،
ولا يُبقي في قلبه إلا محبّة الله،
ومحبّة خلق الله لأجل الله.

## لماذا يُعَدّ ترتيب الأذكار أمرًا جوهريًا؟

إنّ الأذكار الدائمية في الطريقة،
تشبه حبات السبحة التي لا يكتمل معناها
إلا إذا جاءت مرتّبة ترتيباً دقيقًا.

فلا يمكن للذاكر أن يقول «الله» قبل أن يقرر أولًا «لا إله إلا الله»، تمامًا كما لا يمكن للإنسان أن يدخل في رحمة القرب قبل أن يتطهّر من آثار البعد.

كل ذكرٍ يكمل مرحلةً قبلَه، ويُهيّئ القلبَ لعبور المرحلة التالية.

وإذا اختلّ هذا الترتيب،
اختلَّ معه النظام الباطني لمسار السلوك الروحي.

## الحركة والاهتزاز في الذكر

تحدّثنا في السابق عن باطن الذكر،
أما اليوم، فننتقل إلى رسالة الطريقة الكسنزانية
لـ ظاهر الجسد وما فيه من أسرار.

إنّ الحركة في الذكر الكسنزاني ليست حركةً شكلية أو ظاهرية، بل هي امتداد لحقيقة الخلق ذاتها.
يقول الله تعالى:

**"أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّؤُا ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ" (النحل: ٤٨)**

أي:

ألا ينظرون إلى المخلوقات كيف تتحرّك ظلالها من اليمين إلى الشَّمال، وهي في نهاية الأمر ساجدةٌ لله خاضعة لأمره؟

حتى الظلّ، وهو أبسط الآثار المادية، في حركةٍ دائمةٍ خاشعة...

فكيف بالإنسان، وهو أشرف المخلوقات، يبقى ساكنًا تمامًا حين يذكر خالقه؟

ورُوي عن أمير المؤمنين عليٍّ عليه السلام

أنه وصف المتقين بقوله:

**«إذا ذَكَروا اللهَ اهتزّت أبدانهم**

**كما تهتزّ الشجرةُ في يومٍ عاصف، وانهمرت دموعُهم.»**

فالحركة في الذكر ليست مجرّد اهتزاز البدن،

بل هي انعكاس لارتجاف الروح أمام جلال الله وعظمته.

كلما خفق القلب بذكر الله، تحرّك الجسدُ بغير اختيار،

وهذه الانسجامية بين القلب والجوارح هي صورة من صور الاتصال بـ الطاقة القدسية والمدار الإلهي.

## العالم مبنيّ على التردّد والنَّظم والاهتزاز

العلم الحديث يبيّن لنا أن:

الذرّات تدور في مداراتها، النجوم والكواكب تجري في أفلاكها، الفوتونات (جسيمات الضوء) تتحرّك في موجات دائمة. كل شيءٍ في الكون يخضع لإيقاعٍ دقيق وقانونٍ ثابت من الاهتزاز والتناغم.

والذكر الكسنزاني هو دخولٌ واعٍ في هذا الإيقاع الكوني.

عندما يدخل الذاكر في حلقة الذكر ويتحرك وفق نظم الطريقة، فإنه ينسجم مع الإيقاع الإلهي للخلق.

وفي تلك اللحظة: لسانه يلهج باسم «الله»، قلبه يخفق في حضرة الرحمن، بدنه يدور في مدار العشق الإلهي.

إنه ليس مجرد ذكر...

بل هو توافقٌ روحيٌّ وجسديٌّ وعقليٌّ مع نظام الكون الذي سنّه الخالق جلّ وعلا.

## اتجاه الحركة وعددها... سرُّ النظام الإلهي

كما أنّ الطواف في الحجّ محدّدٌ في اتجاهه و عددِ أشواطه، فلو خالفه المرء لبطَل طوافه؛ فكذلك في الذِّكر الكسنزاني، فالاتجاه الذي يتحرك فيه الذاكر، وعدد الانحناءات والرفعات والدورات، كلّها تحمل أسرارًا روحانية دقيقة.

كلُّ انحناءة، كلُّ نهوض، كلُّ التفاتة وكلُّ اهتزاز،

هو مدارٌ من النور والطاقة يدور فيه الذاكر، ليُجذَب داخل المجال الإلهي، وتُدار روحُه في فلك التوحيد.

إنّ الحركة في الذكر ليست مجرّد حركةٍ جسدية، بل هي رمزُ يقظة الروح، وتناغمٌ مع تردّدات الوجود.

وعندما يتحرك الذاكر بنظامٍ، ومحبةٍ، وحضورِ قلب، فإنه ينسجم مع اهتزاز الكون كلّه، ويذوب في بحر النور الإلهي.

## دَوْر الدُّفّ والسَّماع

وفي الأذكار الجماعية، يأتي الدُّفّ ليضبط الإيقاع ويُوحِّد حركة الذاكرين.

أثرُ الصوت الجميل في النفس أمرٌ لا يمكن إنكاره،

وقد حثَّنا الله تعالى على ترتيل القرآن بصوتٍ حسن،

لأنّ للصوت الجميل قدرةً على تحريك أعماق الروح.

إنّ السماع، وضرب الدفّ، والحركات الإيقاعية المتوازنة، تمنح أهل الطريقة نشاطًا، وانشراحًا، وتجددًا روحانيًا.

وميلُ الإنسان—وخاصة الشباب— إلى النغم الحسن و الحركة المنسجمة حقيقةٌ فطرية ثابتة.

وإنكارُها أو محاربتُها بلا علم، هو ما دفع كثيرًا من شباب الأمة إلى ثقافاتٍ منحطّةٍ لا تمتّ إلى الإسلام بصلة.

وقد عبّر سعدي الشيرازي رحمه الله عن ضيق أفق هذا الإنكار بقوله:

**«الناقةُ تهتزّ طربًا لصوتٍ حسن،**

**فإن لم تتحرّك روحُك لصوت الذِّكر،**

**فالعَيبُ في طبعِك، لا في الذِّكر ولا في السماع.»**

حتى البهيمة تستجيب للنغم الطيب؛

فكيف يُستنكر على الإنسان أن يتحرّك قلبُه وجسدُه مع صوت الذِّكر و إيقاع الطاعة؟

وفي كتاب «التصوف» للشيخ محمد المحمد الكسنزان رحمه الله، وردت أدلة كثيرة على مشروعية السماع وضرب الدفّ وفق ضوابط الشرع.

ومنها ما روي عن أنس بن مالك رضي الله عنه:

أنّ النبي ﷺ رأى جاريةً تضرب بالدفّ وتغنّي:

**«نحن جواري بني النجار، مرحبًا يا خيرَ جار!»**

فقال النبي ﷺ: «والله إنّي لأحبّكنّ.»

وهذا دليلٌ واضح على أنّ الفرح المباح، والغناء الطيب، والحركة المتّزنة إذا كانت في طريق ذكر الله، فهي وسيلة لزيادة المحبة، وتقوية الحضور، وتجديد العشق الإلهي في قلوب السالكين.

## حديثٌ موسّع عن السَّماع

إنّ الذِّكر الجماعي في الطريقة الكسنزانية يحمل حركاتٍ خاصّة تُعرَف في الاصطلاح بـ السَّماع؛ حركاتٌ للرأس، وللرقبة، وللجسد، تمتزج بحالاتٍ من الوجد، وبشعلةٍ من الشوق القلبي.

والسماع—مثل سائر مظاهر الجمال— يقرب الإنسان من مصدر الجمال، وهو الله تعالى. ومن خلاله ينتقل القلب إلى ميادين أعمق من المعاني وإلى حقائق أعلى من حدود الحسّ والعقل.

ولهذا عدّه العارفون غذاءً للروح، ودواءً للقلب العاشق، وقوتًا لأهل الشهود.

## السماع... ليس رقصًا كما يتوهّم الجاهلون

بعض من قلّت خبرتُه يظنّ السماع ضربًا من الرقص، وهذه مقارنةٌ باطلة.

كم من مبتدئٍ دخل مجالس الذكر فتعجّب من أحوال الذاكرين، ورآها رياءً أو تصنّعًا، ثم ما لبث—بعد مدةٍ قصيرة— أن وجد تلك الحال تنبعث في قلبه وتظهر في جسده بلا تكلّفٍ ولا إرادةٍ منه.

ذلك لأنّ السماع يحدث تحت سقوط أنوار الذكر وبركات الجمع، والقوة المحركة فيه هي العشق الإلهي.

فإذا استولى النور على القلب، غاب السالك عن ظاهر نفسه، وتحوّلت حركاته إلى أمواجٍ نورانيةٍ تتفجّر من داخله؛ موجٌ يخرج من عمق الروح إلى ظاهر الجسد.

وبعد السماع،

يعود السالك بوجهٍ مشرق، وعينين دامعتين لامعتين، ونظرةٍ نافذة، ونفسٍ خاشعة، وميلٍ ضعيف نحو المعصية...

السماع يكشف ما في القلب، ولا يخلق إحساسًا من العدم؛ يمحو الشك، ويزيد اليقين، ويفتح طريقًا مباشرًا بين الروح وخالقها. وفي السماع يضمحلّ الخوف، ويتلاشى الحزن، ويزداد الإيمان والرجاء.

يصبح القلب رقيقًا، تحركه أدنى إشارة من ذكر الله أو ذكر شيوخ الطريق، فتهتزّ الروح وتتدفّق أمواج الشوق فيها.

وفي صباح اليوم التالي،

ينهض السالك مفعمًا بنشاطٍ روحاني، وشوقٍ جديدٍ للذكر، وثقةٍ بالنفس، وطمأنينةٍ في العمل والحياة.

# مقام الدُّفّ والطبول

في الذكر الجماعي، تهيّئ أنغام الدُّفّ والطبول الروحَ لفهمٍ أعمق للحقائق، وتجعل القلب أقرب إلى إدراك «الموسيقى الإلهية» في الكون.

المنشدون يحرّكون الدفوف بأيدٍ مملوءة قوةً وجذبة، فتتولّد أصواتٌ تهتزّ لها الأرض والقلوب. وفي هذا المشهد المهيب، يبدو الكون كلّه وكأنه يدخل في حالة سماع؛ فالأرض، والهواء، والأجساد، كلّها تتحرك مع الإيقاع.

وتُرى أحيانًا مشاهد لا تُنسى ما دام العمر:

سالكٌ يجري كما لو كان ذرةَ قشٍّ تحملها سيولُ النور إلى حيث يشاء الحقُّ.

وإذا شبّهنا الأنوار النازلة على القلوب

بحبيباتٍ تتساقط في «غربال»، فإن ضربات الطبل والدفّ

تكون اهتزاز الغربال الذي يساعد على مرور تلك الأنوار
إلى أعمق أعماق الروح. ولهذا فإنّ الدفّ
هو جهازُ تنظيمٍ وتناغمٍ لحركات الذكر، ومصدرُ طراوةٍ ونشاطٍ روحي، وخاصةً للشباب الذين تجذبهم الأصوات الجميلة والحركات المتّزنة.

## السماع عند كبار العارفين

السماعُ عند كبار العارفين هو بابٌ من أبواب الذكر،
ومقامٌ يرقّ فيه القلب، ويزداد حضورُ العبد بين يدي الله.

وقد أجاز السماعَ أئمّةُ القوم من العرب والعجم، مثل:
الجنيد البغدادي، سريّ السقطي، الحارث المحاسبي، أبو سعيد أبو الخير وجلال الدين الرومي
وكانوا إذا سمعوا القرآن أو الذكر أو الشعر المباح،

خشعت قلوبهم، وجرت دموعهم، وظهر عليهم أثر الخشية، كما ورد في كتبهم المعتمدة، من غير مبالغة، ولا تمزيق للثياب، ولا أفعال غير ثابتة عنهم.

وقد قال الجنيد:

**«السماعُ واردٌ يُحرِّك القلوب إلى الحق.»**

وقال الهجويري في كشف المحجوب:

**«إنّ السماع يُحرّك النفوسَ المهذّبة إلى الطاعة،**

**ولا يزيد النفوسَ الشهوانية إلا بُعدًا.»**

فالسماعُ عند العارفين تربيةٌ للروح، وتليينٌ للقلب، وتقويةٌ لحضور الذكر، وليس له علاقة بالمظاهر الخارجة عن حدود الشريعة.

## أحوال المكاشفة والسُّكر الروحي

وفي أثناء السماع، قد تظهر لبعض السالكين أحوالٌ من المكاشفة، نتيجة إشراقاتٍ تسقط على القلوب. وقد يصل السالك إلى ما يسمّى الخَمَرَة، أي السكر الروحي، حيث يبلغ القلب حالةً تفوق الإدراك الحسيّ.

## لماذا يُطيل أهلُ الباطنِ شعرَهم؟

هل تعلمُ لماذا يقوم أهلُ العرفان والباطن بإطالة شعورهم؟

يقول العارفون إنّ الشَّعر امتدادٌ للروح؛ خيطٌ من نورٍ ساكن، يتحرّك بين العالم الداخلي والعالم الخارجي. وفي سكونِ منتصفِ الليل، حين يريد القلب أن يسمع ما لا تسمعه الأذن...

يعمل الشَّعر كـ هوائيٍّ لطيف يلتقط الذبذبات الدقيقة ويُوصلها إلى القلب.

ولهذا يشبّه العارفون قصَّ الشعر كثيرًا بـ فصل شبكة الواي فاي، ثم التساؤل: لماذا قلَّ حدسي؟ لماذا ضعفت شُهُودي الداخلي؟

## الشَّعر وبُعده العلميّ

الشَّعر مكوَّن من مادة الكيراتين، وهي مادةٌ ذات بُنيةٍ بلورية تسمح ـ وفقًا لعلم البيوفيزياء ـ بنقل الشحنات والذبذبات الدقيقة.

وفي الثقافات القديمة أدرك المحاربون، والرهبان، واليوغيون أنّ الشَّعر الطبيعي الطويل يعزّز:

الإدراك الحسّي، قوّة الانتباه، الرؤية الليلية، والوعي الداخلي.

وكان معروفًا أنّ السكّان الأصليين لأمريكا يفقد بعضهم

قدرته المميّزة على التتبّع حين تُقصّ شعورهم.

الشعر، في منظور علم الأعصاب الحديث، ليس زينةً فحسب، بل هو امتدادٌ دقيق للألياف العصبية، يتفاعل مع الهرمونات والضغوط والذاكرة الانفعالية.

شَعرك يحفظ ما ينساه العقلُ الواعي؛

فعند التعرّض لصدمةٍ نفسيّة، يحتفظ الشَّعر بتلك الإشارة في بنيته.

ولهذا يشعر الإنسانُ أحيانًا براحةٍ عاطفيّة عند قصّ شعره، وكأنّه يتخفّف من جزءٍ من ذاكرةٍ قديمة أو طاقةٍ راكدة.

هذا ليس مجرّد رمزٍ معنويّ؛

بل يرتبط بعمليّاتٍ بيولوجيّة دقيقة تتعلّق بالهرمونات، والجهاز العصبي، والسيالات الكهربائية الدقيقة في الجسد.

الشَّعر كهوائيّ شمسيّ للروح

يقول أهل العرفان:

إنّ الشعر إذا اعتنيتَ به بنيّةٍ ووعي، فإنه:

يقوّي حدسك،

يساعدك على تذكّر رؤاك بوضوح،

ويضبط طاقتك الداخليّة على تردّدات السلام والانسجام.

ولهذا كانت الشعوبُ الروحيّة قديمًا تضفر الشعر، أو تغطيه، أو تزيّنه بالأحجار الكريمة؛

ليس للزينة فقط، بل لحفظ الطاقة الروحية وتقويتها.

ويعتقد أهل الباطن أنّ للشَّعر ذاكرةً:

يحفظ لحظات الحب، ويمتصّ الأحزان، ويحمل الدعوات، ويكتب الذِّكر بلغته الخفيّة.

فالشعر ليس جمالًا خارجيًا فحسب، بل جزءٌ من وعيك

الداخلي. إنه ينمو، ويصغي، ويتأثّر بالأفكار، والمشاعر، وبيئة الإنسان—حتى عندما ينسى الإنسان نفسه.

## سلوك الشعر في الأماكن النورانيّة والأماكن الملوّثة

وفي تقاليد الصوفيّة والعارفين، يعمل الشعر كـ هوائيّ للطاقة؛ يلتقط الذبذبات الروحية من حول الإنسان، سواء كانت نورانية أو مظلمة.

ولهذا:

يفتح الدرويش شعره في مجالس الذكر، وفي الأماكن العامرة بالنور والبركة،

ليجري الشعرُ كأنّه مكانس نورانيّة تسحب البركات والأنوار،

ويقوم بربط الشعر وتغطيته في الأماكن الملوّثة بالمعاصي أو بالطاقة السلبيّة،

لأنّ الانكشاف في تلك المواضع يجعل الشعر يلتقط الذبذبات الرديئة.

**قصة واقعية**

كنّا مرةً في سفرٍ مع مجموعة من الدرويش.

وتوقفنا عند محلّ لشراء الطعام.

دخل أحد الإخوة ـ وكان شعره طويلًا ومطلقًا خلفه ـ إلى مكانٍ مختلطٍ يمتلئ بالشباب والفتيات بلباسٍ غير مناسب وجوٍّ غير نقي.

وعندما خرج قال بهدوء:

«لا أدري لماذا امتلأتُ الآن بالأفكار السيّئة والرغبات الغريبة...» فقلتُ له:

«ذلك بسبب شعرك الطويل الذي تركتَه طليقًا».

فاستغرب وقال: «وما علاقة الشعر بالأمر؟» فقلت:

«كما أنّ ثيابك التقطت رائحة الدخان من المكان،

فإنّ شعرك أيضًا جَمع الأفكار كما تجمع الإسفنجاتُ ما حولها». ومنذ ذلك اليوم صار إذا دخل مكانًا غير نقي، يربط شعره ويغطيه.

**خلاصة**

قبل أن تقصّ شعرك، عامِلْه باحترام... أصغ إليه...

فهو حيّ، وهو جزءٌ من روحك،

وهو الجسرُ الصامت بين عالمك الداخلي والعالم الخارجي.

## مقدّمة حول الحجاب ضمن سياق الحديث عن الشَّعر

وبعد هذا التمهيد، لا بأس أن نمرّ مرورًا لطيفًا على مسألة حجاب النساء، لا للدخول في تفاصيل الجدل الدائر حوله، بل لبيان جانبٍ عرفانيّ وروحيّ يرتبط بما تقدّم.

فقد أدخل بعضُ الناس في موضوع الحجاب آراءً متشدّدة

أو نزعاتٍ شخصية، كما أنّ بعض الحكوماتِ المتقهقرة فرضته بالقوّة والإجبار، فظهرت ردودُ فعلٍ سلبية واسعة ضدّ المسلمين. والمرأة متى شعرت بأنّ في الأمر إكراهًا أو تسلّطًا، فإنّها تميلُ تلقائيًا إلى الرفض والمواجهة.

وأنا أرى أنّ لا أحد يُدعى إلى الحجاب بالإكراه.
أمّا أنا شخصيًا فلا أقول لامرأة: غطّي شعركِ أو لا تغطّيه.
لكنّ تجربتي علّمتني أنّ كلّ امرأةٍ تدخل طريق السير والسلوك، وحين يُصقل قلبُها وتزداد مستقبلاتها الروحية رهافةً، فإنّها من تلقاء نفسها تميل إلى تغطية شعرها.

وذلك لأنّ المرأة العارفة، حين تتعرّض في الشارع أو في مجلسٍ ما لنظرةٍ غير طاهرةٍ أو نظرة مطالِبة،
تشعر بسرعةٍ بفراغ القلب وذهاب البركة.
والفراغ الداخلي، والإحساس بالكآبة، وضياع الفرح، وغير

ذلك من المشاعر– كلّها علاماتٌ معروفة على زوال البركة، وسوف نتحدّث عنها بالتفصيل في مبحث قوانين البركة.

يسأل كثيرٌ من الناس:

إذا كان الشَّعر قد يكون سببًا في فقدان البركة لدى المرأة في بعض الظروف،

فلماذا لا يُطلب من الرجال أيضًا أن يربطوا شعورهم أو يغطّوها؟ ألا يتعرّض الرجال لزوال البركة؟

والجواب بسيط:

النظراتُ المطالِبة والشهوانية التي تواجهها المرأة لا تُقارن بما يتعرّض له الرجل.

والسبب واضح، بل يُشتهد به حتى في عالم الحيوان:

فاللبؤة قد تجذب عشرات الذكور،

بينما عشرات الأسود الذكور لا تستثير لَبؤة واحدة.

وهذا راجعٌ إلى اختلافٍ فطريٍّ وجينيٍّ بين الجنسين؛
فالمرأة تحمل بويضةً واحدة تتعامل معها بحذرٍ وانتقاء،
بينما الرجل يحمل ملايين الحيوانات المنوية بطبيعتها الاندفاعية.

ولهذا السبب عينُ الرجل ليست كعين المرأة،
ولا تعرّض المرأة للنظرات كتعرّض الرجل لها.
وبناءً عليه: النساء الكبيرات في السنّ اللواتي لا يُثرن الغريزة عمومًا، لا يلزمهنّ شرعًا تغطية الشَّعر،
ولهذا جاءت الرخصة الشرعية بذلك.

وبهذا نختم الكلام عن الحجاب، ونعود إلى فلسفة إطالة الشعر عند أهل التصوف، وخاصةً في الطريقة القادرية الكسنزانية، فإنّ لإطالة الشعر عندهم أسرارًا أخرى.

مريدو الطريقة الكسنزانية يطيلون شعورهم اتباعًا لسُنّة جدّ شيخهم، حضرة رسول الله ﷺ، الذي كان شعره الشريف يبلغ منكبيه. وليس هذا للتميّز أو للمظهر،

بل لحفظ أمانة النور المحمديّ في الظاهر والباطن.

فعندما يأخذ المريد الذِّكر من الشيخ،

ينتقل الذكر من القلب إلى الروح،

ومن الروح يسري في الشعر أيضًا.

ولهذا قالوا:

«إذا استقرّ النورُ في القلب، سكن في الشَّعر أيضًا».

فالشعر عند المريد يصبح كأنّه حاملٌ لشيءٍ من بركة السند الروحي، ومستودعٌ خفيٌّ لأثر الذِّكر واتصال السلسلة.

# الفوارق بين أهل الطريق وبين عامة المؤمنين

فيما يأتي بيان علمي موثّق للفروق بين أهل التصوف السلوكي وبين المؤمنين العاديين، وفق القرآن والسنّة:

١) الذكر بعد الصلاة – توجيه قرآني صريح

أهل الطريق يلتزمون بأذكارٍ منظّمة بعد الصلوات، أمّا عامّة المؤمنين فغالبًا يغادرون بعد التسليم مباشرة.

وهذا الالتزام ليس بدعة، بل هو تطبيق مباشر لأمر اللّٰه:

الآية الكاملة:

**"فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَاذْكُرُوا اللّٰهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا"** (النساء 103)

وهذه سنّة واضحة يسير عليها أهل الطريق بعناية ومواظبة.

٢) الذكر الكثير – أمر مباشر من القرآن

القرآن يأمر بالذكر الكثير، لا القليل، في موضعين أساسيين:

الآية الأولى: (الأحزاب 41–42)

**"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا * وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا"**

الآية الثانية: (آل عمران 191)

**"الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ"**

هذه الأوصاف القرآنية تنطبق بدقّة على أهل الطريق، لأنهم أهل ذكر دائم، وصحبة روحية، ومجاهدات قلبية مستمرة.

٣) الدرجات العشر للإيمان – كما وردت في سورة الأحزاب (٣٥)

يذكر القرآن الكريم عشر مقامات روحية للرجال والنساء،

تُعدّ سلّم الارتقاء الإيماني:

النّص الكامل للآية:

"إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ

وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ

وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ

وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ

وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ

وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ

وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ

وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ

وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ

وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ

أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا" (الأحزاب 35)

تنبيه مهم:

الذِّكر الكثير هو آخر مقامات الآية وأعلاها.

أهل الطريق هم الداخلون في هذه المرتبة العليا، لأن برنامجهم اليومي قائم على الذكر الكثير.

٤) تلاوة ألف آية يوميًّا - بلوغ مقام القانتين

ورد في كتب التفسير وفضائل القرآن، مثل تفسير ابن كثير وفضائل القرآن:

**«مَن قرأ ألف آية في يومٍ كان من القانتين.»**

وأهل الطريق يقومون يوميًا بأكثر من ١٥٠٠ آية من الفاتحة والإخلاص وسائر الوراد،

فتنطبق عليهم مرتبة القانتين المذكورة في القرآن:

**"وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ".**

٥) الصيام المستحب – سنّة نبوية لأهل السلوك

من عادة أهل الطريق الصيام يومين في الأسبوع: الإثنين والخميس. وفي الحديث الصحيح – رواه الترمذي:

**«كان رسولُ الله ﷺ يَصومُ يومَ الإثنين والخميس.»**

بينما غالب المؤمنين يصومون رمضان فقط، ولا يلتزمون بصيام النوافل.

٦) سكينة القلب – بنصّ القرآن

قال تعالى:

**"الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ**
**أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ" (الرعد 28)**

أهل الطريق، بكثرة ذكرهم، ينالون:

سكينةً دائمة، قوةً على الصبر، أملًا راسخًا، توكلًا حقيقيًا
وقدرةً على تحمّل الشدائد

وهذا مشهود في سلوكهم وأخلاقهم اليومية.

٧) حضور مجالس الذكر – نصّ صريح من الحديث

في الحديث الصحيح – رواه أحمد:

**«إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا.»**

قيل: وما رياض الجنة؟ قال: **«حِلَقُ الذِّكر.»**

**مجالس الذكر = رياض الجنة**

وأهل الطريق يحضرون هذه الحِلَق أسبوعيًا بانتظام مرة أو مرتين، اقتداءً بالحديث.

٨) السَّماع – تأييد كبار أهل التصوّف

من العلماء الذين كتبوا في فضائل السماع:

الإمام الغزالي في الإحياء

القشيري في الرسالة

الهجويري في كشف المحجوب

مولانا جلال الدين الرومي

وبيّنوا أن السماع:

يرقّق القلب

يفتح باب الانكسار والخشوع

يزيد من محبة الله

يوجّه طاقة الشباب نحو الطهارة

يخفّف الهموم

يُعدّ القلب لتلقّي الأنوار

فالسماع الروحي جزء أصيل في سلوك كثير من الطرق

العرفانية.

٩) البركة، السعة، وانشراح الرزق – نصوص صحيحة
ورد في سنن أبي داود:

**«مَن لَزِمَ الاستغفار جَعَلَ الله له من كلّ همٍّ فرجًا، ومن كلّ ضيقٍ مخرجًا، ورزقه من حيث لا يحتسب.»**

وأهل الطريق يلازمون:
الاستغفار، التسبيح، الصلوات، الأوراد اليومية
لذلك تظهر آثار البركة واليسر والفتح في حياتهم بشكل واضح.

١٠) أسرار الطريق والمقامات العرفانية
في المراحل المتقدّمة من السلوك، يصل السالك إلى الأسرار

والمكاشفات ومراتب الإشراق الروحي.

وقد تحدّثت عن هذه المقامات أمهات كتب التصوف، مثل:

الرسالة القشيرية للقشيري

إحياء علوم الدين للإمام الغزالي

كشف المحجوب للهجويري

الفتوحات المكية لابن عربي

وجميعها تُجمع على أن:

الأسرار ليست معلومات تُكتب، بل أنوار تُذوق،

وهي مواهب ربّانية تُمنح بحسب صدق السالك واستعداده القلبي، ولا تُكشف إلا لمن صفا قلبه واستقامت سريرته.

وقد لخّص جلالُ الدِّينِ الروميُّ هذه الحقيقةَ بقولٍ مشهورٍ مفادُه:

مَن أُعْلِمَ أسرارَ الحقّ وُضِع على فِمِه خَتْمٌ، فلا يبوحُ بها.

لأنّ الأسرار أمانات، وهي بين السالك وربّه، ولا تُروى إلا لمن هو أهلٌ لها.

النتيجة النهائية للمقارنة المؤمنون من أصحاب اليمين:
يُنَجِّيهم الله بإيمانهم وأعمالهم الصالحة.

أهل الطريق (السابقون):
يرتقون بفضل:
الذكر الكثير، الصيام المستحب، مجالس الذكر، المجاهدات الروحية، صحبة أهل الله
إلى مقام السابقين والمقرّبين كما وصفهم القرآن.
والفرق بين الفريقين ليس في أصل الإيمان، بل في درجات القرب والنورانية.

# طريقة إعطاء البيعة

# في الطريقة العلية القادرية الكسنزانية

## أولًا: ضوابط شرعية وروحية

لا يُعطي البيعة إلا: مَن لديه إذنُ الإرشاد أو كارت الخلافة الصادران بتصديق الشيخ الحاضر للطريقة.

كل من يُعطي البيعة من غير إذن:

فهو مخالف لقوانين الطريقة، ولا ينقل نورًا ولا بركة، وقد يترتب عليه ضررٌ روحي للبيعة والبيعة عليه.

البيعة ليست تجارة، فلا يجوز للبيعة أن يأخذ:

مالًا، هديةً أو خدمةً ومن يفعل ذلك فليس من الطريقة العلية القادرية الكسنزانية.

البيعة هي الخطوة الأولى في طريق السلوك، وهي:

توبةٌ صادقة، عهدٌ روحي بين السالك ومشايخ السلسلة،

ربطٌ للقلب بأولياء الله، اتصالٌ معنوي برسول الله ﷺ.

وليست البيعة مجرد ألفاظ، بل:

ميثاق داخلي، فتح باب الأنوار الإلهية، وضع السالك تحت التربية الروحية، توجيهه على يد الشيخ والمشايخ، وإعداده لسلوك الطريق وصولًا إلى القرب والإحسان.

البيعة = مفتاح الدخول إلى عالم النور والبركة.

## كيفية إعطاء البيعة

١) إن كان المُبايِع رجلًا:

يضع يده اليمنى في يد البيعة (المرشد أو الخليفة).

يُتلى نصّ البيعة بصوت واضح.

يكرّر السالك الألفاظ خلف البيعة،

وبذلك تتمّ الصلة الروحية.

٢) إن كان المُبايِع امرأة:

يمسك صاحب البيعة مِسبحة بيده اليمنى.

تضع المرأة يدها اليمنى على المسبحة.

تُقرأ صيغة البيعة، وتعيدها المرأة،

فتتحقّق البيعة دون ملامسة اليد،

التزامًا بآداب الشريعة.

**ما بعد البيعة**

بعد البيعة يبدأ السالك في:

تلاوة الأوراد اليومية

حضور مجالس الذكر

الالتزام بالتربية الروحية

إزالة الحجب، والسير نحو مقام الإحسان والمقربين

هذه هي أبواب النور والفتح في الطريقة الكسنزانية المباركة.

## رواية عجيبة عن تغريد الكناري أثناء إعطاء البيعة

وقبل أن نختم هذا القسم، من المناسب أن نتحدّث قليلًا عن النور الذي يُنقَل أثناء البيعة، والذي أشرنا إليه في الأقسام السابقة.

هذا النور نورٌ إلهيٌّ يتجلّى في القلوب، ويهدي الأرواح إلى ربّها،

نورٌ سماويٌّ متجذّرٌ في فطرة الإنسان، يجري في سريرته منذ اللحظة الأولى لوجوده.

وهو نفس النور الذي يجعل الرضيع محبوبًا، لطيفًا، ذا جاذبيةٍ عجيبة؛

وهو مصدر البهجة، والحيوية، والانشراح في كيان الإنسان.

نورٌ يرفع النفس من ظلمات الغفلة والاكتئاب إلى ساحات الحضور والطمأنينة.

وحين ينفصل المولود عن أمّه، يبتعد هذا النور عنها قليلًا،

ولهذا تُصاب كثيرٌ من الأمهات بما يُسمّى طبيًّا: اكتئاب ما بعد الولادة،

إذ يبتعد جزءٌ من النور الذي كان يملأ قلوبهنّ أثناء الحمل.

وهذا النور لا يحيي قلوب البشر فحسب، بل يؤثّر حتى في قلوب المخلوقات الأخرى،

حسنًا كانت أم صغيرة الحجم — كعصفور الكناري.

منذ سنوات، كنت في ليلةٍ ضيفًا في أحد البيوت.

وبناءً على رغبة سيّدتين مشتاقتين، أجريت لهنّ بيعة الطريقة.

وما إن نطقتُ بالكلمات الأولى من صيغة البيعة،

حتى ارتفع فجأةً صوتٌ عجيبٌ، مفعمٌ بالفرح والنشاط...

كان تغريدَ الكناري — قويًّا، متناسقًا، كأنّه نشيدٌ جماعيٌّ من عالمٍ آخر. فقلت في نفسي:

هل في هذا البيت كناري؟

ولماذا كانت صامتة طوال الوقت؟

وكيف انطلقت بهذه الحماسة في هذا الوقت المتأخّر من الليل؟

كان تغريدها في غاية الوضوح والقوة،

واستمرّ بالضبط إلى نهاية آخر كلمة من كلمات البيعة،

ثمّ... سكتت فجأة، وعاد الصمت العميق يملأ المكان.

كان المشهد مهيباً، أدخل كلَّ من في البيت في سكينةٍ عرفانية لا تُنسى.

التفتُّ بعد ذلك إلى صاحبة البيت وسألتها:

«هل لديكم كناري؟»

قالت: «نعم، ولكنّها منذ الصباح لم تُصدر أي صوت...

والآن – بعد الساعة العاشرة ليلًا – إذا بها تغرّد بهذا الشكل!»

وكان الأغرب من ذلك أن الكناري كانت محفوظةً في مكانٍ بعيد داخل المنزل،

مكانٍ لا يصل إليه صوتي أصلًا.

ولو وصل، فمجرد كلمات البيعة لا يمكن أن تُحدث هذا الانفعال عند طائر.

وأهل تربية الطيور يعرفون جيدًا أن الكناري لا تُغنّي في الليل، بل تغرّد في النهار فقط، فهي حسّاسةٌ جدًّا للنور، وترتبط حيويتها بالضوء.

لكنّ ذلك الليل...

كان هناك نورٌ آخر، نورٌ ليس من الشمس، بل نورٌ إلهيٌّ رافق لحظات البيعة، فانبعث من القلوب المشرقة، وسرى في فضاء البيت، حتى أثّر في أرواح الطيور نفسها.

كان نورًا من عالم المعنى، نورًا يوقظ القلوب، ويُحيي النفوس، ويجعل حتى الكناري...

ترقص تغريدًا.

## بعضُ أسبابِ السقوطِ في الطريقة

إنّ الذين يُقبِلون على العِرفان والطريقة، يلمسون بعد مدةٍ قصيرةٍ حقّانيةَ هذا الطريق، وكأنّ بذرةَ النور والعشق الإلهي تُزرَع في قلوبهم.

لكن—وبحسب التجربة—فإن نسبةً كبيرةً منهم تسقط بعد مدة، وتبتعد عن هذا الطريق المشرق، ومن هنا نعرض لأهمّ الأسباب المؤدّية إلى السقوط.

أعظم أسباب السقوط في الطريق هو الشكّ، والسبب في هذا الشكّ غالبًا هو وساوس الشيطان في داخل النفس، أو وساوس شياطين الإنس الذين كثروا في هذا الزمان من حولنا. وكم رأينا من مُريدين كانوا قبل أخذ الطريقة:

لا يصلّون، يقترفون الكبائر، يشربون الخمر، أو يتعاطون المخدرات ويمارسون أعمالًا فاسدةً ومحرّمة.

ثم ما إن يدخلوا الطريق حتى:

ينتظموا في الصلاة ويذكروا الله آلاف المرّات يوميًا ويصوم بعضهم يومين من كل أسبوع ويقضوا ساعاتٍ طويلة في تلاوة القرآن، ذلك الكتاب الذي كانوا يسخرون منه يومًا ما! وقد تغيّرت وجوههم تغيّرًا واضحًا، فبعد أن كانت مظلمةً قاتمة، أصبحت مشرقةً نضِرة.

ومع ذلك، فإنّ بعض هؤلاء—بسبب كلمةٍ صغيرة من جارٍ أو زميلٍ أو شخصٍ معانِد— يبدأ يشكّ في حقّانية الطريقة، ويخاف أن تقوده الطريقة إلى الضلال أو تُضعِف إيمانه!

وهذا الإيمان نفسُه لم يحصلوا عليه إلّا ببركة الطريقة!

وليس هذا بغريب، فإنّ الشياطين والنفس الأمّارة قد تُسيطر على عقل الإنسان إلى درجةٍ أنّ بني إسرائيل—

على الرغم من معجزة شقّ البحر، وعلى الرغم من رؤية العصا وهي تتحوّل إلى حيّةٍ تسعى، واليَد البيضاء، وغير ذلك من الآيات العظمى— عادوا إلى الشكّ، ونسوا فضل الله،

واتّخذوا العِجلَ إلهًا!

فلا ينبغي أن نتعجب من مثل هذه الحالات اليوم.

ولو فكّر هؤلاء قليلًا، لأدركوا أنّ فضل الطريقة هو الذي أنقذهم من الكفر والضلال. ولولا البيعة والاتصال الروحي بالشيخ، لما كان لديهم أصلًا الإيمان الذي يخافون من فقدانه!

ولهذا نقول لهم:

بدلًا من الهروب من هذا الطريق الإلهي، —والابتعاد عنه كطفلٍ يبتعد عن أمّه في مدينةٍ مليئةٍ بالوحوش— عليكم أن تُعمِلوا عقولكم، وتنظروا:

أيُّ أمرٍ من أوامر الطريقة يخالف القرآن أو سنّة النبي ﷺ؟ ولماذا الخوف المبالغ فيه من «فقدان الإيمان»؟

إنّ ما يقوله المعاندون وشياطين الإنس غالبًا:

غير منطقي، مخالف للقرآن، ومناقض للسنّة المطهّرة

فقد قال لي أحد الإخوة:

إنّ فلانًا قال بأن «الذكر الكثير يجلب الشيطان على الإنسان». فقلت له:

هو صادق في حقّ من ليس له شيخ؛ أمّا من له شيخٌ وطريق، فلا.

لأنّ القرآن مليء بالأوامر الربانية التي تحثّ على كثرة الذكر، وقد قال الله تعالى إنّ النبي ﷺ هو القدوة الحسنة لمن يكثر الذكر.

## الأدلّة العملية على حقّانية الطريقة

من الأمور التي تؤكّد بسهولةٍ صحّة الطريقة وحقّانيتها، وكذلك صحّة الأذكار التسعة عشر، أنّكم عندما تبدؤون بذكرٍ من هذه الأذكار، تلاحظون في أنفسكم أوّلًا عكس الفائدة المذكورة في جدول الأذكار لذلك الذكر. ثمّ تبدأ هذه

الأعراض بالانخفاض تدريجيًا، حتى يكتمل الذكر وتظهر آثاره الإيجابية كما وُصِفت تمامًا.

فمثلًا: في جدول الأذكار ذُكِر أنّ ذكر «يا حي» يُطهّر القلب من الخيالات القبيحة. وعندما يصل السالك إلى هذا الذكر تحديدًا، تعود إليه - ولو بصورة مؤقّتة - كلّ الخيالات السيّئة التي مرّت عليه منذ طفولته، حتى تلك التي نسيها.

وكذلك في جدول الأذكار ذُكِر أنّ ذكر «يا رحمن» يُنقذ الإنسان من كلّ حزنٍ وهمّ. فإذا كان الشخص يعاني من الاكتئاب، فإنّه عند بدء هذا الذكر، يشعر بتفاقم حالة الاكتئاب بشكلٍ مؤقّت، ثمّ تبدأ حدّته بالانخفاض تدريجيًا، ويزول - بإذن الله - بعد تمام مئة ألف مرة من الذكر.

وقد شاهدتُ بنفسي حالات كثيرة لأشخاص كانوا يعانون من اكتئابٍ شديد، لكن بعد إكمال مئة ألف من ذكر «يا رحمن»، زال اكتئابهم تمامًا. منذ عدّة سنوات، اتّصلت بي

امرأة في رأس السنة، تشكر الطريقة وأذكارها، وقالت: «بعد ثماني سنوات كنت أقضي فيها كلّ سنةٍ جديدة في مستشفى الأمراض النفسية، هذه أوّل سنة أقضيها مع أسرتي في البيت.»

وينبغي التنبيه هنا إلى أنّ ما يُذكَر من آثار ذِكر «يا رحمن» وغيره لا يعني أبدًا أنّنا ننفي العلاجات الطبية. فنحن لا نوصي أبدًا بترك العلاج الطبي، ولا ندعو لاستعمال الطريقة كبديلٍ عن الطب، ولكن قد تكون الطريقة علاجًا مُساندًا لحالات لم تستفد كفايةً من العلاج الطبي.

## لماذا تظهر في البداية عكس خواص الذِّكر؟

حتى نُبسّط لكُم الأمر، نحتاج إلى مثال رمزيّ يوضّح طبيعة النفس الإنسانية.

تخيّلوا النفس البشرية كحوضٍ كبير ممتلئٍ بالطين، وفي قاع هذا الحوض يختبئ تنينٌ مخيف ذو رؤوسٍ كثيرة.

حين يكون ماء الحوض ساكنًا، ويكون هذا التنين نائمًا، يشعر الإنسان بالإيمان، والسكينة، والانشراح، والروحانية.

لكن عندما تضرب الشمسُ الحوضَ وتحرك الطين الراكد داخله، يستيقظ هذا التنين ذو الرؤوس الكثيرة، فيعكّر صفو الإنسان ويفسد حاله.

بعض المدارس الروحية، من خلالِ الجلوسِ في صمتٍ وممارسةِ ما يُسمّى بالتأمّل والمراقبة، تحاول إسكات هذا التنين وجعله ينام، أي أنها تحاول تهدئته مؤقّتًا ليشعر الإنسان بالراحة. وهذا الأسلوب يعطي نتائج مؤقّتة فقط، لأن التنين يهدأ أثناء التأمّل، فيعيش الإنسان لحظاتٍ من الصفاء، لكن ما إن يعود إلى الحياة العادية، ومع أوّل اضطرابٍ بسيط، حتى يستيقظ تنين الشهوات والخواطر برؤوسه التسعة عشر، ويهجم من جديد على الإنسان.

أمّا في الطريقة، فإنّ الذكر لا يُسكِت التنين فقط، بل يُخرجه من مكمنه ويطهّر الحوض تدريجيًا، ولذلك يظهر أوّلًا

«عكس الخاصية». فكل ذكر من الأذكار التسعة عشر يجب أن يُقال مئة ألف مرة. وفي البداية تشتدّ أعراضه السلبية حتى تبلغ ذروتها عند عشرين ألفًا، ثم تبدأ بالانخفاض تدريجيًا، وعند خمسين ألفًا يصل السالك إلى مرحلة التوازن. ومع الاستمرار، تتلاشى العوارض، وعند إكمال مئة ألف مرة تختفي تمامًا، وتبدأ فوائد الذكر بالظهور كاملةً بإذن الله.

ففي ذكر «يا حي» مثلًا، تعود الخيالات القبيحة في البداية وتشتد حتى تصل ذروتها عند عشرين ألفًا، ثم تنخفض تدريجيًا، ومع إكمال المئة ألف، يُطهَّر القلب منها بالكامل.

وكذلك في ذكر «يا رحمن»، يزداد الاكتئاب عند السالك المُبتلى به، ثم ينخفض تدريجيًا حتى يزول مع إتمام العدد.

**بعض المدارس تفعل ما هو أسوأ من التأمّل**

هناك بعض المدارس الروحية التي تفعل ما هو أسوأ من

مجرّد إسكات هذا التنين أثناء التأمّل؛ فهي تدفع له الجزية كلّ يوم، وتقوم بتسمينه وجعله أقوى وأشدّ بطشًا.

هؤلاء يتخيّلون هذا التنين المخيف على أنّه طفل بريء لطيف ويُطلقون عليه اسمَ «الطفلِ الدّاخلي» (Inner Child)، ويعملون باستمرار على تهدئته عبر تقديم القرابين له.

ومثال ذلك كمثال أمٍّ لها طفلٌ شرّيرٌ نزِق، وكلّما صرخ أو أساء التصرف، وضعت في فمه قطعة شوكولاتة لتسكّته. صحيحٌ أنّ الشوكولاتة تُسكت الطفل مؤقّتًا، لكن الطفل - مع مرور الوقت - يزداد سمنًا وقوّةً، وبالتالي يحتاج إلى شوكولاتة أكبر وأكثر ليهدأ.

وحين تصبح طلبات هذا الطفل الشرير فوق طاقة أمّه المسكينة، وعندما لا تعود الشوكولاتة تكفي لإرضائه، ينقضّ عليها ويهلكها.

وهكذا هي النفس إذا تمّ تسكينها بالترضية بدل المجاهدة،

تبدو هادئة مؤقّتًا، ثم تتحوّل إلى قوّةٍ مدمّرة.

وقد قال الشيخ عبدالقادر الجيلاني قدس الله سره في شأن النفس:

«عَدُوُّكَ نَفْسُكَ الَّتِي بَيْنَ جَنْبَيْكَ، فَجَاهِدْهَا وَلَا تُطِعْهَا، فَإِنَّهَا تُبْعِدُكَ عَنِ اللهِ.»

## منهج الطريقة في مواجهة هذا التنّين

أمّا الطريقة القادريةُ الكسنزانية، فطريقتها في مواجهة هذا التنّين الشيطاني تختلف تمامًا عن تلك المناهج. فالطريقة لا تُغنّي له لتهدئته، ولا تُطعمه ليهدأ، بل تجاهدُه وتقاتله.

وفي القرآن الكريم، يقول الله تعالى في سورة النساء، الآية 76: "فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا"

وهذه الآية تُصرّح تصريحًا واضحًا بأنّ هذا التنّين الشيطاني

ضعيف، وأنّ الطريق إلى الانتصار عليه هو القتال والمجاهدة، لا الهروب ولا الاستسلام.

وقد قرأتُ هذه الآية يومًا في جمعٍ من الناس، فقال أحدهم: «كيف تقول إنّ كيد الشيطان ضعيف؟! كيد الشيطان قويّ جدًّا وقد دمّر حياتي!»

فقلت له:

أولًا: أنا لا أقول هذا من عندي، وليس هذا رأيي الشخصي، إنّما هو كلام خالق الشيطان جلّ جلاله.

وثانيًا: الله تعالى يقول لك: قاتِلْ، فإذا قاتلتَ، كان كيد الشيطان ضعيفًا.

فالشيطان مثل الكلب:

إذا هجمتَ عليه، هرب منك.

وأمّا إن خفتَ منه وهربتَ أنت، فإنه يركض خلفك، ويُمسك بك متى وجدك ضعيفًا أو وحيدًا.

## كيف تقاتل الطريقةُ هذا التنّين؟

الطريقة لا تُسكِتُ التنّين، بل تضربه ضرباتٍ نورانية عبر الأذكار التسعة عشر.

فكلّ ذكرٍ من هذه الأذكار هو ضربة نورانية مكوّنة من مئة ألف ضربة.

ومجموع هذه الضربات يشكّل سلسلةً من التطهير العميق للنفس، بحيث تتكسّر رؤوس التنين واحدًا بعد الآخر حتى يُهزم تمامًا.

أوّل رأسٍ وهو أقوى رؤوس هذا التنّين، هو النَّفْسُ الأمّارة، وقد أشار الله تعالى إليها في سورة يوسف، الآية 53 بقوله:

**"إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي"**

ومعنى ذلك أنّ النفس تأمر صاحبها بالشرّ، ولا يستطيع أحدٌ أن يغلبها إلّا برحمةٍ من الله تعالى.

والطريقة تقطع رأس النفس الأمّارة بواسطة مئة ألف من ذكر «لا إله إلا الله»، وهو أقوى الأذكار على الإطلاق.

أمّا الرأس الثاني من رؤوس هذا التنّين، فهو النَّفْسُ اللَّوّامة، وهي أيضًا من أقوى مراتب النفس، وقد تحدّثنا عنها بالتفصيل في بحث فوائد أذكار الطريقة.

وقد ورد ذكرها في سورة القيامة، الآية 2:

**"وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ"**

ومعنى الآية: لا أقسم بيوم القيامة، ولا أقسم بالنفس اللوّامة، أي: إنني أقسم بهما.

كما نقول في كلام الناس: «لا أقسم بروح ولدي» بمعنى أنّك في الحقيقة تُقْسِم بها.

ومواجهة النفس اللوّامة تتمّ عبر مئة ألف من ذكر «الله».

أمّا الرأس الثالث فهو النَّفْسُ المُلهَمة، وقد ذكرها الله تعالى

في سورة الشمس، الآيتين 7-8:

**"وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا"**

وتُضبط هذه النفس وتُهذَّب بواسطة مئة ألف من ذكر «يا هو».

**وهكذا سائر مراتب النفس التسعة عشر، وقد بيّنّا تفاصيلها في «فوائد أذكار الطريقة».**

**ماذا يحدث عند بدء ضرب كلّ رأسٍ من رؤوس التنّين؟**

عند بداية توجيه الضربات النورانية إلى أيّ رأسٍ من رؤوس هذا التنين بواسطة الذكر المخصّص له، يكون ذلك الرأس في حالة خمول، وما إن تُوجَّه إليه أوّل ضربة حتى ينتفض ويهاجم السالك.

فمثلًا: إذا كان الشخص يقرأ ذكر «يا حي» الذي يطهّر

القلب من الخيالات القبيحة، فإنّ هذه الخيالات تتكاثر في البداية وتشتدّ، وتبلغ ذروتها عند عشرين ألف ذكر.

ثم بعد ذلك يبدأ هذا الرأس الخبيث بالنزيف والضعف، ومع إتمام مئة ألف من الذكر، يزول تأثيره من وجود السالك تمامًا.

سؤال: إذا كانت هذه الأذكار تملك هذه القوة، فلماذا نحتاج إلى أخذ الطريقة؟

كثير من الناس يأتون إلينا ويقولون: عندما رأى أهلُنا آثار الأذكار علينا، أصبحوا يريدون أن يقولوا هذه الأذكار أيضًا.

فنقول لهم:

لا بدّ من الإذن الروحي لقول هذه الأذكار، فبدون الإذن تكون كالذي يحمل سيفًا بلاستيكيًا ويحاول مقاتلة تنّين مفترس!

فكلّ ضربةٍ يوجّهها ستزيد التنّين غضبًا وشراسة.

وقد جرّب بعض الناس قول هذه الأذكار دون إذن، وبعد مدّة قصيرة ظهرت عليهم الآثار السلبية لبداية الذكر، مثل: الخيالات القبيحة، الاكتئاب، الاضطراب، وضعف الإيمان.

## لماذا يُعدّ ذكر «لا إله إلا الله» أقوى الأذكار؟

كما قلنا، أكبر رؤوس التنين هو النفس الأمّارة، ولا يقضي عليها إلّا أقوى الذِكر وهو «لا إله إلا الله».

ولهذا السبب عُرِف هذا الذكر بأنّه أعظم الأذكار، وليس كلّ أحدٍ قادرًا على تحمّله عندما يصل إلى مرحلة الآلاف.

فمجرّد قول الذكر قليلًا يستطيع الجميع فعله، لكنّ الإشكال يظهر عند بلوغ الذكر آلاف المرات، حيث ينتقل الذكر من اللسان إلى القلب، وتبدأ حالات روحية قويّة تظهر على السالك. وهنا مَن ليس له إذنٌ، يتعرّض لآثارٍ روحية

معاكسة ومؤذية.

وقد قالت لي امرأةٌ كبيرة في السنّ، ذات إيمانٍ عظيم، كانت منذ طفولتها تذكر الله بكثير من الأذكار:

«أستطيع أن أقول كلّ الأذكار، إلا ذكرًا واحدًا لا أستطيع النطق به.» قلت لها: وما هو؟

قالت: «لا إله إلا الله.» فقلت: ولماذا؟

قالت: «لا أعلم، كلّما حاولتُ قولها يُغلق لساني.»

فقلت لها:

عندما تقولين «يا رحمن» أو «يا رحيم» أو «يا ودود»، فأنتِ لا تمسّين الشيطان مباشرة.

ولكن عندما تقولين «لا إله إلا الله»، فإنكِ تنفين وجوده وباطله مباشرةً، وتوجّهين طعنةً قاتلة له؛ ولهذا هو يوجّه لكِ طعنةً مقابلة.

## لماذا نُعطي أعظم الأذكار لمن يدخل الطريقة حديثًا؟

قد يسأل سائل: لماذا نُعطي أكبر الأذكار لمن هو جديد في الطريقة؟

أليس هذا مثل شخصٍ يبدأ دورة تدريب على رفع الأثقال، فيعطيه المدرّب أثقل وزن في أوّل يوم؟

وليس شكٌّ أنّ ذلك سيؤذيه.

لكن الأمر في الطريقة مختلف تمامًا.

ففي اللحظة التي يُبايع فيها السالك، ويعقد العهد، يدخل نور البيعة إلى قلبه، فيُوقِع هذا النور تنينَ النفس في غيبوبة تامة، ويهيّئ فرصة ذهبية لقطع رؤوسه دون خطر.

وقد تحدّثنا سابقًا عن نور البيعة وذكرنا قصة تغريد الكناريّين عند بيعة امرأتين، وكيف أنّ الطيور شعرت بالنور الذي نزل.

فما دام هذا التنين قد أُغمي عليه، فإنّ أفضل ما يمكن فعله هو التوجّه مباشرةً إلى أعظم رؤوسه.

ولهذا يبدأ السالك منذ اليوم الأول بذكر «لا إله إلا الله»، لأنه أقوى ضربة نورانية تُوجَّه إلى أقوى رؤوس التنين.

## مدّة غيبوبة تنّين النفس

من خلال تجارب كثيرة مع المريدين، لاحظ كثير منهم أنّ حالة الهدوء والسكينة التي شعروا بها بعد البيعة، تبدأ بالانخفاض بعد أربعين يومًا.

وشبّه بعضهم هذا الشعور بطفلٍ يتعلّم ركوب الدراجة، يشعر خلال الأسابيع الأولى أنّ والده يمسك بالدراجة من الخلف كي لا يقع.

ثم بعد أربعين يومًا، يشعر بأنّ الأب تركه، وأنّ الدراجة بدأت تتمايل، فإذا لم يكن قد تعلّم التوازن بعد، وقع في المشكلة.

ولفظ الأربعين يومًا له دلالات روحية عميقة.

فقد حدث أن جاءتني امرأة حديثة العهد بالطريقة تقول

إنها رأت في الليلة الماضية أفعى سوداء تهاجمها في المنام.

وعندما راجعنا معها تاريخ بيعتها، فتحت التقويم وقالت: «البارحة كانت اليوم الأربعين بالضبط بعد البيعة.»

وقد رويت هذه القصة في مجالس أخرى، فذكر أشخاصٌ آخرون أنهم رأوا الرؤيا نفسها في اليوم الأربعين بدقّة.

فإذا افترضنا أنّ نور البيعة يبقى أربعين يومًا يضع تنّين النفس في غيبوبة، فمن الأفضل للمريد أن يستغل هذه المدة ليقطع أكبر رأسين من رؤوسه:

النفس الأمّارة عبر مئة ألف لا إله إلا الله

النفس اللوّامة عبر مئة ألف الله

ولتحقيق ذلك، يُستحبّ أن يقرأ المريد:

مئة ألف لا إله إلا الله خلال عشرين يومًا

ثم مئة ألف الله خلال العشرين التالية

ولكي ينجز ذلك، يحتاج يومياً إلى قراءة خمسة آلاف ذكر.

وإذا افترضنا أنّ ألفًا من «لا إله إلا اللّٰه» تحتاج أقلّ من عشرين دقيقة، فإنّ خمسة آلاف تحتاج تقريباً إلى ساعة ونصف يوميًا. ويمكنه تقسيم هذا العدد إلى خمس دفعات يومية، أو إلى أيّ توزيع يناسبه.

وهذا هو البرنامج المثالي، أمّا من لم تسمح ظروفه، فيقرأ ما يستطيع بقدر طاقته.

## فوائد الأذكار ومثال الذكر الثالث عشر

ذكرُ التنين متعدّد الرؤوس كان مجرد مثال للتوضيح الذهني، أمّا الأذكار، فلها فوائد حقيقية ملموسة.

ومن أهمّها الذكر الثالث عشر: قراءة مئة ألف سورة الإخلاص.

وقد ورد في جدول الأذكار أنّ فائدته:

**«أنّ الله يغفر للإنسان ولوالديه.»**

وقد رأيتُ بأمّ عيني أشخاصًا رأوا في المنام أحد والديهم المتوفّين يظهر بثيابٍ ممزقة أو ملطخة بالدماء، وهي إشارة إلى سوء حالته في البرزخ.

لكن بعد إتمام مئة ألف سورة الإخلاص، رأوه من جديد بثيابٍ بيضاء نظيفة، في حالة سرور وانشراح، ممّا يدلّ على نزول رحمة الله ومغفرته عليه وعلى صحّة هذا الذكر العظيم.

**الذِّكر والصدقة: أعظم ما يُهدى للميت**

الذكر والصدقة هما أعظم وسيلتين لنفع الأموات.

ولكي أُقرّب لكم الأمر، أروي ما وقع لي أنا شخصياً:

قبل مدّة، تصدّقتُ بنية الإحسان لروح والدتي المرحومة، فساعدتُ شخصًا كان بحاجة لعملية جراحية.

وفي اليوم التالي، اتصلت بي امرأة من الأقارب البعيدين وقالت إنها رأت والدتي في المنام:

كانت ترتدي ثوبًا من حريرٍ أخضر، وعلى أكمامها شرائط

ذهبية كالتي على ألبسة الضباط، وفي يدها ساعة ذهبية.

ورفعت الساعة وقالت لها:

«انظري... انظري ماذا اشترى لي ابني!»

وهذا يوافق ما جاء في القرآن الكريم عن لباس أهل الجنة، في سورة الإنسان، الآية 21:

**"عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ"**

أي: يلبسون أثوابًا من الحرير الأخضر الرفيع والثقيل.

# البركة وقوانينها

من أهمّ عناصر تقدّم السالكين في طريق العرفان، معرفتهم بحقيقة البركة والقوانين التي تحكمها.

وسنتناول هنا خلاصةً تمهيدية لهذا الموضوع.

كثيرٌ من الأمور التي تقع لنا في حياتنا اليومية، إنما تعود إلى ظواهر متافيزيقية وروحية لا تُرى بالعين المجرّدة، لكن آثارها تظهر في عالم الواقع.

وقد أشار الشيخ محمود الشّبستري في گلشن راز إلى هذه الحقيقة بقوله:

"كلّ ما يبدو في هذا العالم،

ليس إلا صورةً لِشمسٍ ذاك العالَم."

**الناس الذين تلازمهم سوء الطالع**

هناك أشخاصٌ يبدو أنّ الحظّ السيّئ يرافقهم دائمًا:

فإن كانوا طُلّابًا، يُطردون من الصفّ عند أيّ شغبٍ جماعي.

وإن سقط حجرٌ من أعلى البناء، وقع على سيّارتهم تحديدًا.

وإن حدث خطأ في العمل، وقع اللوم عليهم ولو لم يكونوا السبب.

هذه الفئة تُسمّى في ثقافات مختلفة بأسماء متعدّدة:

"منحوس"، "سيّئ الحظ"، "عديم البركة".

وفي الثقافة الأمريكيّة يسمّونهم: Looser أي "الخاسر".

وقد ألّف أحد الكتّاب قبل أكثر من مئة عام كتابًا في أمريكا، أجرى فيه مقابلات مع كبار الناجحين آنذاك:

عائلات كايزر، روكفلر، وغيرهم. وسألهم عن سرّ النجاح.

فأجمعوا كلّهم على نصيحة واحدة:

"لا تُصاحبوا عديمي البركة، ولا تعملوا معهم."

كان هؤلاء عباقرة الاقتصاد، وقد توصّلوا بالتجربة إلى قاعدة مهمّة ينبغي للسالك أن ينتبه لها.

## من هم أصحاب سوء الطالع؟

قد يمرّ بالإنسان أحيانًا شعورٌ بأنّ "الحظّ قد انقلب عليه".

ولو فَكَّر قليلاً:

لوجد أنّ هذه الفترات حدثت عندما تغيّر وضعه الداخلي أو سلوكه. وقد مررتُ أنا شخصياً بهذه التجربة.

ففي سنوات دراستي الجامعيّة—بعد أن حصلتُ على مكانةٍ علميّة ومعيشيّة جيّدة—دخل الغرور إلى قلبي.

وصرتُ أظنّ نفسي "ذكيًّا" بما يكفي لأختصر الطريق وأبلغ القمّة دفعةً واحدة.

لكنّ النتيجة كانت انهيارًا تامًّا في البركة:

امتحان أعرفه جيّدًا... أملأ ورقة الإجابة بطريقة خاطئة!

موعدٌ مهمّ مع شخصيّة مؤثّرة... أضيع رقم هاتفه!

تصوير حفل زواج كامل... ثم أكتشف أنّني لم أضع الفيلم في مكانه!

حوادث سير متكرّرة... كأنّ السيارات مُرسَلة خصّيصًا لتصطدم بسيارتي!

حتى إنّني أصبحتُ أخشى القيادة، وأتلفّت يمينًا ويسارًا خوفًا من الاصطدام، ومع ذلك، وأنا واقفٌ عند إشارة المرور، صدمتني سيارةٌ بعنفٍ من الخلف حتى دُفعت سيارتي إلى الأمام كقطعة معدن!

وكان السائق خلفي مرتبكًا أكثر مني، لا يعرف كيف حدث الأمر...

ثم تبيّن أنّه هو أيضًا رجلٌ من أصحاب سوء الطالع!

عندما لاحظتُ أنّ الأمور أصبحت غير طبيعيّة، بدأتُ

أراجع نفسي:

أهدافي، أصدقائي، أسلوبي في الحياة.

ثم بدأتُ بإجراء تغييرات داخلية وخارجية.

ومع الوقت، عادت حياتي إلى حالتها الطبيعية، وكأنّ البركة رجعت من جديد.

ولم أكن آنذاك أعرف شيئًا عن قوانين البركة،

لكن لأنّي كنتُ قبل ذلك من أصحاب "الحظّ الجيّد"،

فإنّ عودتي إلى السلوك الصحيح أعادت لي ما فقدتُه.

هذه القوانين تجعلنا ننتبه إلى أمورٍ لم نكن نحسب لها حسابًا، لكنها تؤثّر مباشرةً في حياتنا اليومية.

وبحسب هذه القوانين، هناك أشياء لا ينبغي أن نفعلها:

لا ينبغي أن نذهب إلى بعض الأماكن،

ولا أن نجالس بعض الأشخاص،

ولا أن نأكل بعض الأطعمة،

ولا أن نقوم ببعض الأعمال...

لأنّ كلّ واحدٍ من هذه الأمور يحمل أثرًا روحيًا خفيًّا إمّا بالبركة... وإمّا بزوالها.

## قوانين البركة وما يكشفه لنا فهمُها

وبموجب هذه القوانين ندرك أنّ المال غير المبارك أو الطعام الخالي من البركة الذي ندخله إلى بيوتنا، يمكن أن يتسبّب في إصابة جميع أفراد الأسرة بسوء الحظّ وانقطاع البركة. وهناك تفاصيل كثيرة سنتعرّض لها لاحقًا.

لكن يبقى السؤال:

ما هي البركة؟ ومن هم عديمو البركة؟ وما خصائص الطعام غير المبارك والمكان غير المبارك؟

**أولًا: ما هي البركة؟**

كلمة البركة تتردّد كثيرًا على ألسنة الناس،

لكنّ معظمهم لا يعرف معناها الدقيق.

يقولون: "إن شاء الله الله يبارك في مالك."

ويقولون عن الطعام الذي يشبع سبعة وقد طُبخ لخمسة: "طعام مبارك."

ويقولون عن المال الذي ينفد سريعًا: "مالٌ بلا بركة."

أمّا عند أهل العرفان، فللبركة معنى أدقّ وأعمق.

فالعارفون، عبر صفاء قلوبهم وحساسيّة مستقبلاتهم الروحية، يستشعرون طاقةً نورانيّة يفيض بها بعضُ الأشخاص أو الأماكن أو الأشياء— وهي طاقة لا يدركها الناس العاديون. وقد قال رسول الله ﷺ:

«اتَّقوا فِراسةَ المؤمن، فإنّه ينظر بنور الله.»

فالصوفيّ المتمكّن إذا نظر إلى شخصٍ ما، يستطيع أن يميّز هل هو ذو بركة أم لا.

وإذا دخل مكانًا، يشعر براحةٍ أو ضيقٍ لا يشعر بهما الناس العاديون.

وإذا أكل طعامًا، لا يستشعر فقط طعمه... بل نوره وروحه. هذه الطاقة يسمّيها أهل الطريق: البركة.

**ثانيًا: ماهيّة البركة في المخلوقات**

البركة هي طاقة روحيّة / ماورائيّة موجودة في:

البشر، الأماكن، الأطعمة، الأشياء، وحتى في بعض الظروف.

وكما أنّ الإنسان يتكوّن من جانبٍ ماديّ وجانبٍ روحاني، فالجسد يتغذّى بالطاقة الماديّة: السكّريات، البروتينات، النشويات...

أمّا الروح فتتغذّى من طاقة البركة.

الجسد إذا حُرم من الغذاء يضعف،

والروح إذا حُرمت من البركة تذبل وتكدر.

ولهذا ترى بعض الناس لديهم أفضل نظام غذائي صحي...

ومع ذلك يعيشون في همٍّ وضيقٍ واضطراب داخلي.

والسبب هو: ضعف البركة أو فقدانها.

**ثالثًا: كيف تُخزَّن الطاقات؟**

الطاقات تُختزن بطرق مختلفة:

فقطعة الحديد يمكن أن تكتسب طاقةً مغناطيسية إذا احتكّت بمغناطيس.

وكذلك البركة—هي نوعٌ من الطاقة الروحية— لها آليات تخزينٍ وتوليدٍ معقّدة،

لكن يمكن تشبيهها بشكل مبدئي بالطاقة الكهرومغناطيسية من حيث التأثير والانتقال.

**رابعًا: كيف تُكتسب البركة؟**

للبركة طرقٌ عديدة في التوليد والاكتساب، أهمّها:

1) الأعمال المباركة

الأديان عبر القرون دعت البشر إلى أعمالٍ تزيد البركة، وتسمّى في الشريعة الأعمال الصالحة، مثل:

عبادة الله، مساعدة الفقراء والمحتاجين، الإصلاح، الإحسان.

هذه الأعمال تمنح صاحبها طمأنينةً روحية يشعر بها فورًا.

2) الأقوال المباركة

الكلمات التي تُقال بروح صدقٍ ونصحٍ وهداية،

والأذكار والدعوات، جميعها تولّد البركة في قلب الإنسان.

وفي المقابل:

الغيبة، النميمة، كشف أسرار الناس، التهمة، الكذب—

كلّها تُطفئ البركة فورًا.

3) الأفكار المباركة

الأفكار التي تُشعل في القلب نورًا وطمأنينةً وسكينة—
هذه تُسمّى أفكارًا مباركة.
أمّا التفكير في عيوب الناس، والظنّ السيّئ،
والأفكار العدائية أو الحاسدة،
فكلّها تستنزف البركة وتطفئها.

4) مصاحبة أهل البركة

ومن أعظم أبواب البركة: الجلوس مع أهل البركة.
فمصاحبتهم تُشعل:
سلامًا داخليًا، محبّةً في القلب، شوقًا للخير، صدقًا، نشاطًا، نورًا. وكلّ من يملك هذه الصفات فهو مؤمنٌ— حتّى لو لم يوحِ مظهره بذلك.
لذلك يُوصى بشدّة بمصاحبتهم، ومجالستهم، والعمل معهم.

## الأشخاص عديمو البركة وصفاتهم

الأشخاصُ عديمو البركة هم أولئك الذين تؤدّي مصاحبتهم والاقتراب منهم إلى فقدان النشاط الروحي والطمأنينة،

وتُثير في النفس أفكارًا سيّئة، وتزرع النفاق، والغيبة، والبهتان، وسوء الكلام،

وتغذّي ميول الشرّ، والعداوة، والكسل، والبطالة، وحبّ الذات، وتقود الإنسان إلى التشاؤم من الله، والضجر من الحياة، بل وقد تدفعه إلى الرغبة في الانتحار.

من يحمل هذه الصفات فهو عديم البركة، ولو بدا في مظهره متدينًا أو متشبّهًا بأهل الصلاح.

وإنّ مصاحبتهم أو مشاركتهم في التجارة والعمل سُمٌّ قاتل يلحق بصاحبه أضرارًا لا يمكن جبرها.

ومن كانت له صداقة مع مثل هؤلاء بدافع الرحمة أو محاولة الإصلاح، فعليه أن يحذر، لأنّ التعامل مع عديمي البركة

يحتاج إلى وفرةٍ من البركة وخبرة روحية عالية، وهو أمر يتجاوز قدرة أغلب الناس.

## صفات أصحاب البركة

الأشخاص ذوو البركة يُعرَفون بعلاماتٍ واضحة:

رطوبة عيونهم ولمعانها ونفاذ بصرهم،

إشراق الهالة المحيطة بوجوههم،

اللطف، ورقّة القلب، والتواضع، والخشوع.

وحتى الحيواناتُ—كالكلابِ وغيرها—نادراً ما تعتدي عليهم، والأطفال الصغار الذين لم تُغطِّ عيونهم حُجُبُ الدنيا، يميلون إليهم ويأنسون بهم أكثر من غيرهم.

## صفات عديمي البركة

أمّا عديمو البركة فيُعرَفون بـ:

عيونٍ باهتة خاملة، هالة وجهٍ كَدِرة، جمود الإحساس،

قسوة القلب، الأنانية.

**والمراد بكدر الهالة ليس لون البشرة،**

فقد يكون الرجل أسود اللون لكن هالته نورانية،

بينما قد يكون آخر أبيض البشرة لكن هالته ميتة.

الهالة تُدرَكُ بالبصيرة الروحية:

من امتلك صفاء النفس أو فتح الله عليه بالرؤية القلبية

يستطيع أن يراها أو يميّزها.

أمّا الناس العاديون فلا يرون الهالة، لكنّهم يشعرون بها:

يحسّون بأنّ وجه صاحب البركة مُشرق،

وأنّ وجه عديم البركة مُظلم.

ولهذا تجد السالكين المتقدمين في العرفان يتجنّبون مصاحبة عديمي البركة، إلّا في أحوالٍ لها مصلحة إرشادية أو تربوية.

وبعض الأرواح النورانية تتأذّى من قرب هؤلاء كأنّها

تتأذّى من جيفةٍ متعفّنة، حتى إنّ الواحد منهم لو صافح عديم البركة يشعر مدّةً بعد ذلك برائحةٍ معنوية كريهة على يده.

## البركة في الأشياء

البركة لا تكون في الأشخاص فقط،

بل تكون أيضًا في الأجسام والأماكن والأمتعة.

فمن كان ذا بركةٍ عظيمة، فإنّ البيت الذي يسكنه، بل قبره بعد موته، وحتى الأشياء التي يلمسها أو يستخدمها— كلّها تحمل شيئًا من الطاقة الروحية والأنوار.

ولهذا يحتفظ الناس بمِسْبَحَةِ الوليّ، أو قلنسوته، أو قطعة من ثيابه للتبرّك، لأنّها تحمل أثرًا من بركته.

وبالمقابل:

الأشياء التي تخصّ الأشخاص عديمي البركة

تصبح هي أيضًا خالية من البركة، ومجرّد لمسها أو الاحتفاظ بها قد يُسبب نقصانًا في بركة الإنسان.

ومن ترقّى في مراتب العرفان قد ينظر إلى حذاء فيقول: هذا لصاحب قلبٍ نوراني، أو لرجلٍ فاسد!

ويروى أنّ جماعةً من أهل السوء زاروا أحد مشايخ الطريق، فلما رأى أحد المريدين الواصلين أحذيتهم عند الباب، اغتاظ وقال:

«تريدونني أن أخبركم كم من أصحاب هذه الأحذية سيكون من أهل النار؟»

فنهره الشيخ وأمره بالصمت.

المكوث في أماكن الفساد والحرام يُضعف البركة ويُتلف الطاقة الروحية. بينما المكان الطيب— كمجالس الذكر،

والمساجد، وبيوت الأولياء والصالحين– يشحن روح الإنسان بالنور والطمأنينة

كالمغناطيس الذي يشحن قطعة الحديد.

أمّا المكان الفاسد والغارق في المعاصي

فيجلب الضيق، واضطراب النفس، وزوال البركة،

ومن آثاره:

برود القلب، القلق، اليأس، حبّ الدنيا، ضعف الإيمان،

الميل إلى الشهوات.

ويحاول بعض الناس الهروب من هذا الضيق

بالانغماس في المعاصي الكبرى،

أو اللجوء إلى الخمر والمخدّرات،

أو السهر في مجالس اللهو.

أمّا الأماكن التي يزورها أهل البركة – كقبور الأولياء– فإنها تصبح ذات بركة مضاعفة بسبب نور أصحابها وبسبب زائريها الصالحين.

وكما أنّ الإنسان يشمّ رائحة العفن عند دخوله غابة مظلمة رطبة، كذلك السالك المتقدم يشعر بضيقٍ شديدٍ في منزل شخصٍ فاسد، ويتجنّب هذه الأماكن قدر الإمكان.

وإذا دخل صاحب البركة مكانًا مظلمًا فإنه ينوّره بحضوره، لكنّ ذلك يؤثر عليه سلبًا ويستنزف بركته.

## تطهير البيوت بالذكر

ومن أفضل الوسائل لزيادة البركة في البيت إقامة مجالس الذكر الجماعي فيه.

كما أن حضور مجالس الذكر في التكايا والمساجد يُعين

الإنسان على تجديد طاقته الروحية ويرفع عنه ثقل الحظّ السيّئ. ولهذا يشعر الناس براحةٍ كبيرة عند زيارة الأماكن المقدّسة، ويشعرون بالضيق عند دخول أماكن المعصية.

## أثر الطعام في السلوك الروحي للسالك

من أهمّ العوامل المؤثّرة في تقدّم السالكين في الطريق العرفاني نوع الطعام الذي يتناولونه.

فالناس العاديون لا يولون هذا الجانب اهتمامًا كبيرًا،

أمّا أهل الطريق—مثل الرياضيين الذين يعتنون بدقّة بنظامهم الغذائي— فيولون طعامهم رقابةً دقيقة.

فهم لا يأكلون في بيت كلّ أحد، ولا يتناولون طعامًا ما لم يطمئنّوا إلى أنّه حلالٌ طيب وأنّ الشخص الذي أعدّه مؤمنٌ صادقٌ وكاسبٌ للحلال.

فإذا كان صاحب البيت ربويًا، أو سارقًا، أو محتالًا، أو ممّن اكتسب ماله من طريق غير مشروع، فإنّ أهل الطريق يتحرّجون من دخول بيته أصلًا، ولا يأكلون من طعامه بأيّ حال.

كما أنّهم يتجنّبون تناول الكالباس، والسجق، واللحوم التي يُشكّ في مصدرها، أو التي قد تحتوي على دمٍ أو لحمٍ غير موثوق. وعندما يريدون الأكل في مطعمٍ أو محلٍّ عام، فإنهم ينظرون أوّلًا إلى صاحب المكان والعمّال الذين يُحضّرون الطعام. فإن رأوا أن وجوههم غير مطمئنة، أو أنّ المكان خالٍ من الناس، تجنّبوا الشراء، لأنّ الأماكن ذات البركة يكثر روّادها، كأنّها مغناطيسٌ يشدّ الناس إليها.

أهل الطريق يميّزون بركة الطعام من ظاهره، كما يميّز الناس العاديون جودة الطعام من لونه ورائحته.

فالعارفون إذا ترقّت أحوالهم يشعرون بما يشبه "الرائحة الروحية" أو «لون الباطن» للطعام، فيعلمون هل فيه بركة أم لا.

## تجربة مع أحد كبار دراويش الطريقة الكسنزانية

لقد عشتُ لسنوات مع أحد دراويش الطريقة الكسنزانية المعروفين، وكان اسمه الخليفة عارف—وكانت لديه هذه الحواس الروحية بوضوح.

وذات مرّة ذهبنا مع جماعة من الدرويش لزيارة أحد الأشخاص، وكان صاحب البيت يبدو عديم البركة.

فقدّم لنا حلوى. فقال الخليفة عارف فورًا:

«لا تأكلوا؛ ليس مناسبًا.»

فامتثل الجميع—وكانوا نحو عشرين رجلًا— إلا رجلًا واحدًا تناول قطعة. وبعد نصف ساعة أصيب بغثيانٍ شديدٍ وألمٍ قوي في معدته.

ولمّا خضع الخليفة عارف لاحقًا لعملية إزالة الماء الأبيض من عينيه، قال كلمة عجيبة: «عقلُ عينيَّ قد نقص.»

وكان يقصد بذلك القوة الروحية الباطنية التي كانت في بصره، لا البصر الحسي.

## الطعام الملعون والطعام المبارك

الطعام غير المبارك يشمل:

1. الطعام الحرام.

2. الطعام الذي أُعدّت مكوّناته على يد أشخاصٍ عديمي البركة كالربويّ، والسارق، والمخادع.

3. الطعام الذي يُطهى أو يُقدَّم في أماكنٍ عديمة البركة.

أمّا الطعام المبارك فهو:

1. الطعام الذي قُرئ عليه الدعاء—مثل النذور.

2. الطعام الحلال الذي أُعدّت مكوّناته على يد أشخاصٍ مباركين من أهل الإيمان وكاسبي الحلال.

3. الطعام الذي يُطهى أو يُقدَّم في أماكن طاهرةٍ مباركة كالمساجد، والتكايا، وبيوت الصالحين.

السالكون عادةً يتجنّبون تناول الطعام النذري الذي لا يُعرف صاحبه. وسبب ذلك أمر يسمّى «الإهانات».

## أنواع الخوارق الخارجة عن العادة

الخوارق هي الأعمال التي تتجاوز المألوف، وتنقسم إلى خمسة أصناف رئيسية:

1 — المعجزة

وهي ما يظهر على يد الأنبياء بقدرة الله إظهارًا لصدق نبوتهم.

2 – الكرامة

وهي ما يظهر على يد الأولياء بقدرة الله تكريمًا لهم وبيانًا لمقامهم، من غير ادّعاء للنبوة.

3 – المعونة

وهي ما يجري على يد الأشخاص العاديين ببركة الأولياء وتوسّلهم، وغالب كرامات الدراويش من هذا النوع.

4 – الإهانة

وهي أمر خارقٌ يُجريه الله على يد أعدائه ليُظهر كذبهم ويفضح دعواهم؛ كمن يضع يده على رأس مريض فيزداد مرضًا بدل الشفاء. وهذه من أخطر ما يتعلّق بالطعام النذري المجهول.

5 – الاستدراج

وهو ما يحصل على يد أهل الشيطان، مثل السحر والشعوذة وما يُسمّى بالكرامات الشيطانية.

## حقيقة السِّحر وحكمه في الشريعة

فيما يتعلّق بالسِّحر، فقد اتّفق كبار المفسّرين على أنّ أصل السحر حقيقةٌ ثابتة وليس مجرّد خيال،غير أنّ تعلّمه وتعليمه وممارسته محرّمٌ تحريمًا قطعيًا، وهو من الكبائر التي تجرّ الإنسان إلى المهالك. وهذا العلم له جذورٌ في تعليمات الشياطين والجنّ الكافر، وهو طريقٌ يقود إلى الكفر، والضرر، والضياع الروحي. وقد بيّن الله تعالى ذلك بوضوح في قوله عزّ وجلّ في سورة البقرة (آية 102):

**"وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ...**

**وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ"**

وهذه الآية من أقوى الأدلة الشرعيّة على تحريم السحر وخطورته.

### نقاطٌ تفسيرية مستندة إلى التفاسير المعتبرة

1) سليمان عليه السلام لم يكن ساحرًا قط كان قومٌ من اليهود يتّهمون سليمان عليه السلام زورًا بأنّه حكم بالسحر.

فردّ القرآن عليهم بقوله تعالى: "**وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ**"

أي أنّ سليمان لم يأتِ بسحر، ولم يتعلّمه، ولم يمارسه، بل كان نبيًا كريمًا منزّهًا عن هذا الباطل.

2) الشياطين هم المعلّمون الحقيقيّون للسحر

تذكر التفاسير أنّ الشياطين:

كانوا يعلّمون الناس العزائم، والطلسمات، والخداع البصري، والتخييل، وإثارة الفتن، وإحداث الفرقة بين الناس. وكانت هذه التعليمات مرتبطةً بالكفر، والفساد الأخلاقي، وتدنّس الروح بالارتباطات الشيطانيّة.

3) هاروت وماروت أُرسلا للامتحان لا للفساد

اتّفق جمهور المفسّرين على أنّ هاروت وماروت كانا مَلَكَين مبعوثين للاختبار، مهمّتهما بيان حقيقة السحر، وآثاره، وكيفية دفعه وإبطاله.

وكانا قبل تعليم أيّ شخص يقولان له صراحة:

**"إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ"**

أي: نحن وسيلة اختبار، فلا تستخدم هذا العلم في الإفساد، وإيّاك أن تتجاوز حدّ المعرفة إلى العمل المحرّم.

فالمقصود من تعليمها كان التحذير، وكشف حقيقة السحر، وبيان طرق إبطاله، وليس تشجيع الناس على تعلّمه أو ممارسته.

4) تأثير السحر محدودٌ ومربوط بإذن الله

تؤكّد الآية والتفاسير أنّ الساحر لا يملك ضررًا مستقلًّا:

**"وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ"**

وهذه الجملة هي الأساس العقدي في باب السحر:

لا تأثير للسحر خارجًا عن مشِيئة الله، ولا قدرة للساحر على الإضرار إلا ضمن الابتلاء الإلهي.

5) أهمّ نوعٍ من السحر ذُكر في الآية: التفريق بين الزوجين

تذكر التفاسير أنّ أبرز ما كان يفعله السحرة:

إثارة الوساوس، نشر العداوة، زرع الشكّ، إضعاف المودّة والرحمة، وإحداث النفور بين الزوج والزوجة.

ولهذا نصّت الآية على:

**"فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ"**

مما يدلّ على أنّ السحر غالبًا يؤثر في المشاعر والنفس والعلاقة، ولا يتجه أساسًا إلى الإيذاء الجسدي المباشر.

6) متعلّم السحر لا نصيب له في الآخرة

قال تعالى: "**مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ**"

وقد فسّرها العلماء بأنّ:

متعلّم السحر يقع في سقوط روحي شديد،ويحرم نفسه من رحمة الله، وقد يصل بكفره إلى هلاك الإيمان نفسه.

وهذا أعظم تحذيرٍ ورد في شأن السحر وأهله.

## العودة إلى موضوع الخوارق وشرح "الإهانات"

لأجل فهمٍ أعمق للبند الرابع من أقسام الخوارق، وهو ما يسمّى الإهانات، أذكر لكم المثال الآتي:

يحدّث أحد الإخوة أنّه في مجمّعهم السكني كان هناك رجلٌ ربويّ، يدّعي التديّن ويُسمّي نفسه "حاجًّا".

هذا الرجل، لأجل خداع الناس وإظهار الورع الكاذب، ربط عِجلًا عند سور موقف السيارات لأيام، وكان الناس يسألون عن السبب، فيقال لهم: "الحاج ينوي أن يقدّم نذرًا

كبيرًا!" وبعد عشرة أيام ذبح العجل، ووزّع الطعام على مئات الناس، فما كان من النتائج إلا أنّ كلّ من أكل من الطعام أصيب بمرضٍ شديد، وتحوّل الدعاء له إلى لعنات ونقمات!

وهذا نموذج واضح لما يسمّيه أهل الطريق الإهانات:

خوارق تظهر على يد أهل الفساد والكِبْر، لا لتكريمهم، بل لفضحهم وإظهار سوء باطنهم.

ولهذا السبب لا يأكل أهل الطريق من الطعام النذري الذي يَجهلون أصحابه، فقد يكون بين المساهمين في شرائه من هو على شاكلة ذلك "الحاج" الذي أهانه الله بدل أن يكرّمه.

## الدعاء على الطعام والماء وتأثيره

كنتُ في البداية لا أقبل بسهولة فكرة تأثير الدعاء على

الطعام أو الماء، لأنّ ذلك لا يخضع للتفسير المادي المباشر.

غير أنّي رأيت مرارًا بأمّ عيني أنّ بعض العارفين إذا قرؤوا الدعاء على ماءٍ أو طعام، شُفي أشخاصٌ متعددون ببركة ذلك.

ثم ظهر بحثٌ علمي نادر أجراه عالم ياباني يُدعى البروفيسور ماسارو إيموتو، قام فيه بتعريض عينات مختلفة من الماء لتأثيرات:

الأدعية، الكلمات الطيبة، أنواع معيّنة من الموسيقى، وأنواع أخرى سيّئة. ثم جمّدها، وصوّر التركيب البلّوري لها.

وقد أظهرت الصور أنّ:

الدعاء، والكلمات الإيجابية، وبعض الموسيقيات الهادئة (مثل السيمفونية الرعوية لبيتهوفن) تُنتج بلّورات متناظرة جميلة. بينما الموسيقى الصاخبة كـ Heavy Metal تُحدث تشوّهًا وفوضى بلّورية في بنية الماء.

والصور متاحة على الإنترنت لمن أراد الاطلاع عليها. وبناءً

على هذا الاكتشاف، وحيث إنّ ٧٠٪ من جسم الإنسان ماء، يمكن الاستنتاج أنّ الدعاء يجعل بناء الجسد أكثر تناغمًا وانتظامًا، وأنّ كثيرًا من الأمراض (كالسرطان والتصلّب اللويحي وغيرهما) يرتبط بنوعٍ من عدم التناسق الجزيئي، وبالتالي يمكن للدعاء أن يُعيد شيئًا من التوازن.

## أهل العرفان وبنية الوجود المتناغم

أهل العرفان بسبب دوام الذكر، يمتلكون وجودًا موزونًا متناغمًا، وهم أقلّ عرضة للتضاد الداخلي الذي يعاني منه الناس عادة.

وحين يكون الوجود الداخلي متناغمًا، تصبح "المتجهات الروحية" كلّها متّجهة في اتجاه واحد، فتزداد طاقة النفس، وترتفع تردّداتها الروحية، ولهذا يتمتع العارفون بسكونٍ خاص وطمأنينةٍ عجيبة.

ولكي يحافظوا على هذه الحالة، لا بد أن يكون الطعام والشراب الذي يدخل أجسادهم نظيفًا طيّبًا مباركًا.

فإذا تناولوا مالًا حرامًا أو طعامًا فاسد البركة—ذي بنيةٍ مضطربة— فإمّا:

لا يستطيعون ابتلاعه أصلًا،

أو يشعرون مباشرةً باشمئزازٍ روحي وجسدي،

أو يتأثرون به سلبيًا مدة طويلة—وقيل أربعين يومًا—حتى تنخفض طاقاتهم الروحية.

ولهذا قال الشيخ الجليل عبد القادر الجيلاني (ق):

**"إذا أكلتَ طعامًا خبيثًا، فصُمْ حتى تُذيب اللحم الذي تولّد منه، فيزول أثره الفاسد من بدنك."**

## كيف تفقد البركة في الطعام؟

لتوضيح ذلك، خذ المثال الآتي:

إن كنتَ زارعًا مؤمنًا تكتسب رزقك بالحلال، فالقمح الذي تنتجه سيكون مباركًا.

فإذا طُحن القمح وصار دقيقًا، ثم أُرسل إلى خبّاز:

فإن كان الخبّاز رجلًا فاسدًا عديم البركة، فإن خبزَه لا يتنجّس فورًا، لكن إن بقي الدقيق عنده فترة طويلة، صار الخبز الناتج فاقدًا للبركة.

ولهذا، إذا اضطرّ السالك أن يأكل في بيت شخصٍ عديم البركة، فالأفضل أن يكتفي بـ: الخبز، اللبن، ما لم يبْقَ طويلًا عند صاحب البيت، ويتجنّب:

الدجاج، الأطعمة التي مُسّت كثيرًا باليد، المربّى، المخلّلات، وكلّ ما يُخشى أنّه مكث طويلًا في بيتٍ عديم البركة.

## أعمالٌ يظنّها الناس ذكاءً وهي في الحقيقة جهلٌ وفقدانُ بركة

بعض الناس يقومون في حياتهم بأعمالٍ يظنونها ذكاءً وخبثًا محمودًا، لكنها في الحقيقة جهلٌ محض، لأنّهم بفعلها يخسرون بركاتٍ عظيمة دون أن يشعروا.

فلو أنّ شخصًا خَدَعك أو مكر بك ظنًّا منه أنّه "ذكيّ"، ثم أنت عفوت عنه عن علمٍ وبصيرة— فأنت هنا الذكيّ الحقيقي، لأنّ هذا الإنسان قدّم إليك كمية كبيرة من بركته من حيث لا يدري.

## رؤية نزول البركات عند أهل السلوك

أهل العرفان المتقدّمون، في حالاتٍ روحانية معيّنة، يشاهدون نزول البركات على هيئة أمواجٍ لطيفة، تشبه

الأمواج الحرارية التي تُرى فوق الطرق في حرّ الصيف.

ومن يرتاد التكايا يلاحظ أحيانًا أنّ السالكين يُظهرون حالاتٍ روحية متشابهة في نفس اللحظة، وذلك انعكاسٌ لما ينزل عليهم من بركات الذكر الجماعي.

ويروي أحد دراويش الطريقة الكسنزانية قصة لطيفة:

"كنتُ في باصٍ عام، فتوقّف في منتصف الطريق وصعد رجلٌ فقير يظهر عليه شدّة الحاجة.

بدأ يسأل الركّاب جميعًا فلم يعطه أحد شيئًا.

ثم التفت إليّ وقال: "أنا بحاجة ماسّة، بالله عليك ساعدني!"

فلما أقسم باسم الله رقّ قلبي، فأعطيته نصف ما في جيبي، مع أني لم أكن أملك الكثير. فبكى ودعا بخيرٍ ونزل.

عندها رأيتُ من سقف الباص أمواجًا من البركة تهبط عليّ، مثل موجات الحرارة، وصار هذا النزول يتساقط كحبّات الثلج عليّ وعلى من حولي (مقعدان يمينًا ويسارًا،

وأمامًا وخلفًا)، وظلّ يتنزّل ساعاتٍ طوالًا حتى توقّف."

هذه الرؤية توضّح الصفة التجميعية للبركة.

## البركة قوة ذات أثرٍ تجميعي

كما أنّ النور يزداد بازدياد مصادره، فإنّ البركة كذلك تتضاعف وتتجمّع.

فإذا قام شخصٌ واحد بعملٍ صالح أو ذكرٍ أو عبادة، فإنّ من حوله—بل والأرض التي يقف عليها— تنال نصيباً من بركته. فإذا كان اثنان يذكران الله معًا، فكلٌّ منهما يستفيد من: بركة عبادته هو، وبركة عبادة صاحبه.

فيضاعف كلٌّ منهما نصيبه من البركة.

ولهذا أكّد الشرع على العبادات الجماعية،

كـ صلاة الجماعة، و مناسك الحج، و الذكر الجمعي، لما لها

من أثرٍ عظيم على التسريع في الترقي الروحي وتصفية القلب. فالمريدون في الطريقة عادةً يقيمون مجلسًا أو مجلسين للذكر الجماعي كلّ أسبوع. وهذه المجالس بالغةُ البركة، ولها أثرٌ كبير في تقدّم المريد الروحي. فبعض المريدين يحصلون خلال الأسبوع، بسبب التزامهم بالأوراد والعبادات والأذكار، على بركاتٍ كثيرة، ثم يأتي غيرُهم إلى المجلس ليستفيدوا ـ إضافةً إلى أثر الذكر الجماعي نفسه ـ من بركة حضور هؤلاء.

إنّ تأثير العبادات الجماعية لا يُقاس بالعبادات الفردية. فلو اجتمع عشرةُ أشخاص على ذكرٍ واحد، وكلٌّ منهم قال عشر مرّات، فهذا لا يساوي مئةَ ذِكرٍ يتلوها شخصٌ واحد منفردًا؛ لأنّ البركة الجماعية تكون مركّزة، تدخل إلى القلب في زمنٍ قصير بقوّةٍ أشبه بما يشبه الضربة الثقيلة للمطرقة التي تُسقِط صدأ القلب. أمّا الذكر الفردي فهو كمطرقة صغيرة تحتاج زمناً أطول لإزالة الصدأ.

ويمكن تشبيه ذلك بالعدسة: فإذا أمسكتَ عدسةً ومرّرت عليها الضوء دون تركيز، فلن تسخّن الورقة، أمّا إذا ركّزتَ الضوء من خلال العدسة على نقطةٍ واحدة، فإنّ الورقة قد تشتعل.

وهكذا يكون الذكر الجماعي تركيزًا للنور والبركة على القلب.

وفي لحظات الذكر الجماعي تنزل البركة كالنور أو كالمطر من السماء، ويستفيد منها أهل الطريق بقدر ما يفتحون قلوبهم ويتحرّكون في سماعهم. والمريدون ذوو الشعر الطويل يتركون شعرهم منسدلًا ويتحرّكون به، وكأنّهم يكنسون بركاتٍ متدفّقة.

وعند كثرة البركة قد تظهر على الإنسان حالاتٌ ظاهرة يعرفها أهل الطريق: كالتثاؤب المتكرر، وامتلاء العينين بالدمع وبريقهما، وشعور بالخِفّة أو الوَهَن اللطيف. وقد

يكون نزول الدمع ـ في التعبير العامي ـ نتيجةَ دخول نور البركة غير المرئي إلى عين المريد.

ولهذا نرى في مجالس الذكر كثيرًا من الحاضرين يبكون دون أن يكون في المجلس ما يدعو إلى حزن أو مصيبة؛ وهذا دليل على نزول البركة الغزيرة. وقد يستغرب بعض الوافدين الجدد هذه الظاهرة، ويظنون أنّها تكلّف أو افتعال، غير أنّها حقيقةٌ يشهدها أهل الطريق مرارًا، بل تُرى كذلك عند الأطفال الصغار من عمر ثلاث أو أربع سنوات، إذ يتثاءبون مرارًا وتدمع أعينهم، ثم يهدؤون هدوءًا شديدًا، وهو أمرٌ مؤقّت يزول بعد حين.

ولأنّ نظرة أهل العرفان إلى التثاؤب تختلف عن نظرة الناس العاديين، نعرض فيما يلي أقسامه:

## أنواع التثاؤب عند أهل المعرفة

1. التثاؤب الجسدي

وهو المعروف لدى الأطباء: يحدث عندما يحتاج الجسم إلى أكسجينٍ أكثر أو عند الشعور بالتعب.

أمّا أهل السلوك فيرون أنّ هذا التثاؤب رسالةٌ من الجسد إلى الروح تقول:

"إنّ أداة سيرك تحتاج إلى راحة وتجدّد."

وإهمال هذه الرسالة يشبه إهمال الراحلة التي توصلك إلى المقصد.

2. التثاؤب الروحي

وقد يقع أثناء الذكر أو التلاوة أو حضور مجالس النور.

ويراه أهل الطريق علامةً على خروج الطاقات السلبية وتفريغ ثِقل القلب.

يكون التثاؤب هنا كريحٍ لطيفةٍ تنظّف مرآة القلب.
ومَن يفهم هذا المعنى، يُكمِل ذكره بهدوء ويقين.

3. التثاؤب المُعدي

وهو ما يُرى في المجالس: يتثاءب شخصٌ واحد فيتثاءب الآخرون من بعده.

ويفسّره العارفون بأنّه من تأثّر النفس بالنفس.

فإذا كان هذا التأثير الجسدي مرئيًّا بهذا الوضوح، فكيف بالتأثير الروحي لقلبٍ مضيء ينعكس نوره على عشرات القلوب من حوله؟ كما قالوا:

"القلب المنير يُنير قلوبًا كثيرة، كما أنّ تثاؤب شخص واحد يفتح أفواه الكثيرين."

4. التثاؤب الشيطاني

ورد في بعض الأحاديث أنّ الشيطان يدخل على الإنسان

من خلال التثاؤب، خصوصًا أثناء الصلاة.

وهذا النوع ليس نتيجةَ نقص الهواء أو إرهاق البدن، بل هو أثر الغفلة وتشتيت الخاطر.

ولذلك يُوصي أهل السلوك بأن يغلق المريدُ فمه بهدوء عند التثاؤب، وأن يستعيذ بالله ويُركّز على الحضور، ليغلق الباب أمام هذا النَّفَس المظلم ويستعيد صفاء قلبه.

5. تثاؤب الشوق

وقد يحدث للمريد أن يشعر بخفقانٍ شديد في أنفاسه عند لحظات الشوق العارم إلى القرب من الله تعالى؛ فيخرج منه تثاؤبٌ يمتزج بالبكاء، وكأنّه آهةٌ تخرج من أعماق القلب، يتنفّس معها الوجد، وينفتح بها بابٌ من السكينة والراحة.

## شهادات حيّة من مشاركين في البرامج الروحية

ولتعميق الفهم، نعرض شهادتين حقيقيّتين من بعض الإخوة المشاركين في برامج الذكر والسماع، وهي تعبّر بصدقٍ عن أثر البركة عند نزولها، وتدلّ على التجارب المشتركة التي يشهدها أهل الطريق:

### الشهادة الأولى

«السلام عليكم يا أصدقاء. كلّما دخلتُ هذا المجلس وسمعتُ التسجيلات الصوتية، أشعر كأنّ تيارًا من الكهرباء يسري في كامل جسدي. يأتيني إحساس يشبه البرد الشديد يغمر بدني، وأتثاءب بشكلٍ متكرر، وتفيض الدموع من عينيّ دون قصد. لقد حضرتُ مجالس كثيرة، ولم يحصل لي ما يحصل هنا، ولو جلستُ فيها من الصباح إلى الليل لم تدمع عيني. إنّه إحساس عجيب... وأسأل الله أن يرزق الجميع هذا الشعور المبارك.»

## الشهادة الثانية

«السلام عليكم، وأتمنى أن تكونوا جميعًا بخير ويزداد نوركم يومًا بعد يوم.

البارحة، أثناء الصلاة على النبي ﷺ، أصابني تثاؤبٌ متكرر ونزول دموع غزيرة، ثم غلبني النوم فجأة. مع أنّ بيتي لم يكن هادئًا، فقد استيقظتُ بعد قليل وأنا أشعر براحةٍ عجيبة، وكأنّ ثِقلاً عظيمًا رُفع عن كتفيّ.

نظرتُ إلى الساعة فوجدتُ أنّني لم أنم إلا خمس عشرة دقيقة فقط، لكنّني استيقظتُ وكأنّي نمتُ الليل كلّه. إنّ هذا الشعور الجميل لم أحصل عليه إلا في هذا المجلس، وأسأل الله أن يجزيكم خيرًا.»

## نعود الآن – أيّها الأحبّة – إلى موضوع البركة

إنّ من أعظم الأعمال جلبًا للبركة: برّ الوالدين وخدمة الأسرة، وإطعام الناس، ومساعدة الفقراء والمساكين. وقد

ورد عن حضرة غوث الأعظم عبد القادر الجيلاني (قدس الله سرّه) قوله: **«ما رأيتُ عملاً أنفعَ من إطعام الناس.»**

ومن جملة أوامر الطريق التي تُعين المريد على زيادة بركته: صيام يومين مستحبّين في الأسبوع، و الدوام على الوضوء.

كما أنّ قيام الليل من أعظم مصادر البركة؛ فالذين يستيقظون لذكر الله في ظلمة الليل، يظهرون في نظر أهل الباطن كالنجوم المضيئة في السماء.

## حفظ اللسان وباب خروج البركة

الفمُ هو أكبر منفذٍ لخروج البركة؛ ولذلك يُعدّ «حفظ اللسان» من أعظم أسباب الترقي الروحي. فكلمةٌ خاطئة أو آثمة قد تنفلت بسهولة، لكنها تُحدث أعظم الفتن. ولهذا يشدّد أهل المعرفة على الصمت واعتباره ركيزةً أساسية في تزكية

النفس.

## الغضب وأثره على البركة

ومن الأعمال التي تُنقِص بركةَ الإنسان ـ وإن كانت تُنزل البركة على المحيطين به ـ الغضب. فالناس الغاضبون غالبًا ما يكونون قليلي البركة. لذلك على المريد أن يجاهد نفسه حتى يتجنّب الغضب، ويُحافظ على نور قلبه من الانطفاء.

## تشخيص مواضع النقص في النفس

ومن أفضل أساليب ترميم الذات أن يُشبَّه المريدُ البركة بالنور. فينظر إلى أعضاء نفسه: أيُّها أشدُّ ظلمة ويحتاج إلى مزيدٍ من النور؟

فإن كان يؤذي الناس بلسانه أو يغتاب، فليُنوّر لسانه بالكلام الطيب ومحبة الخلق.

وإن كانت يداه امتدّت يومًا إلى مالٍ حرام أو ظلمٍ لأحد، فليُطهّرها بالصدقة والإحسان. وهكذا مع سائر الأعضاء...

## البركة طاقة باطنية للترقي الروحي

البركة ـ كما تقدّم ـ نوعٌ من الطاقة الماورائية التي يحتاجها المريد للترقي وبلوغ درجاتٍ أعلى. وذِكرُ الدرجات هنا ليس مجازًا، بل لأنّ الناس عند الله لهم درجاتٌ معنوية كالرتب في الجيش، والأمر مذكور في القرآن الكريم.

ومن ذلك ما رُوي عن الشيخ بايزيد البسطامي أنّه تنبأ ـ قبل أكثر من مئة عام من ولادة الشيخ أبي الحسن الخرقاني ـ بظهور هذا الشيخ الجليل، وذكر أنّ درجته ستكون أعلى من درجته بثلاث مراتب.

وكما أن الضابط في الجيش لا ينال رتبةً جديدة إلا بعد أداء مهامٍّ خاصة واجتياز دورات، فكذلك في عالم الباطن: لا يترقّى المريد إلى درجةٍ أعلى إلا بالالتزام بالشريعة، والعمل

بأوامر الطريق، وجمع البركة.

ومثلما تُشترط الإخلاص و ثقة القائد في منح الرّتبة العسكرية، فكذلك في الباطن:

الإخلاص، والصدق، ونظر الشيخ هي المفاتيح الأساسية.

## الطاقة الروحية وارتفاع الذبذبات

ومع ازدياد البركة ترتفع الطاقة الباطنية للمريد، فتزداد الذبذبات الروحية حتى تبلغ سرعاتٍ عالية تشبه سرعة الضوء. وعندها قد يشعر المريد بأنّه خرج من قيود الزمان والمكان. وقد يُستدلّ بهذا على:

الإلهام والتوقّعات الصادقة التي تظهر لبعض أصحاب الطاقة الروحية العالية (وهي صورة من «الحركة في الزمن»).

و طيّ الأرض عند الأولياء، وهو قدرةٌ على الانتقال في المكان.

وقد ألمح قانون النسبيّة لأينشتاين إلى تغيّر مفهومي الزمان

والمكان عند الاقتراب من سرعة الضوء، وهو ما يستأنس به للتقريب لا للتعليل القطعي.

## نظر الشيخ... أعظم أسباب البركة

ومن أهمّ الأسباب التي تجلب البركة في الطريق: نظرُ الشيخ.

وقد ضُرب لذلك مثال «الوجود الروحي» وتشبيهه بالبالون: عندما يُحبّ المريدُ شيخَه حبًّا صادقًا، يتكوّن بين قلبه الروحي وقلب الشيخ قَنَاةُ نورٍ (سَمّوها مجازًا «خرطوم هواء» لتقريب المعنى). فإذا جاهد المريدُ وسعى، ونظر الشيخ إليه نظرةَ قبول، اندفعت البركة عبر تلك القناة كما يندفع الهواء فينفخ البالون، فيرتفع المريد في آفاق الترقي.

ولهذا يعتبر أهل العرفان المحبّة والولاء للشيخ من أعظم أركان التقدّم الروحي.

## الآثار الباطنية لفقدان البركة من خلال الحبّ الفاسد

وبعد أن تبيّن لنا آليّة انتقال البركة من خلال المحبّة والارتباط القلبي، نستطيع أن نفهم كيف يمكن للإنسان أن يحفظ بركته، وكيف قد يفقدها بسبب بعض التصرفات.

## تأمّلوا ـ أيّها الأعزّاء ـ مثالًا واضحًا:

امرأةٌ محافظة، قائمةٌ بصلاتها، محسِنة، صاحبةُ بركة. تذهب إلى مناسبة اجتماعية، فتقع ـ بسبب لباسٍ غير مناسب أو تصرّفاتٍ لا تليق بالعفّة ـ في موضع إثارةٍ لبعض أهل الفساد. هؤلاء الأشخاص أشبه ببالوناتٍ مثقوبة خالية من الهواء، فإذا تعلّقوا بها في قلوبهم تعلّقًا شهوانيًّا، امتصّ كلّ واحدٍ منهم شيئًا من بركتها، كما تمتصّ العلقةُ الدمَ من الجسد.

والبركة التي تحصل عليها تلك النفوس الفاسدة من خلال انجذابها إليها لا تنفعهم؛ لأنّ بالوناتهم الروحية مليئة بالثُّقوب

الناتجة عن الذنوب، فلا تلبث البركة أن تتسرّب منهم سريعًا.

أمّا هي، فتصحو في اليوم التالي محطَّمة الروح:

تشعر بالقلق والضيق، يأسٌ وفتورٌ شديد، انقباضٌ في القلب، رغبة في النوم، انهيارٌ في الثقة بالنفس، شعور بأنها غير محبوبة وغير مقبولة...

والسبب هو ما حصل لبركتها في الليلة السابقة.

**شهادة أحد أهل الرؤية**

يقول أحد المريدين ممّن لديهم بصيرة رؤيانية:

«كنتُ أمشي قرب البحر، فرأيتُ فتاةً ترقص بين مجموعة من الشباب، بحركاتٍ مثيرةٍ لا تُرضي الله. وكانت تظنّ أنها تمارس أمرًا بسيطًا. لكنّني في عالم الباطن رأيتُ أولئك الرجال، الذين يصفقون حولها بشهوةٍ ولهو، كأنّهم ذئابٌ تدور حول نعجةٍ ضعيفة، يمزّقون وجودها الباطني تمزيقًا.»

ويضيف:

«لو أصيبت هذه الفتاة لاحقًا بأمراضٍ نفسية أو حتى جسدية، فقد يكون ذلك بسبب ذلك التعدّي الباطني الذي تعرّضت له تلك الليلة دون أن تدري.»

## أثر النظر في سلب البركة

ولهذا ننصح الشباب الداخلين في الطريق، الذين اكتسبوا بركةً بالتوبة والأذكار، أن يحفظوا أبصارهم. فالنظرة المحرّمة تُحدث في القلب تعلّقًا، وهذا التعلّق يسحب البركة سريعًا.

ولهذا كان أهل المعرفة يقولون:

«العينُ بابٌ عظيم من أبواب فقدان البركة.»

والأسوأ من ذلك هو النظر المباشر في العين بين رجلٍ وامرأةٍ بنيةٍ غير طيبة؛ فإنّه يكون كالمقبس الكهربائي الذي يُفرغ طاقة الإنسان في لحظة.

ولذلك لا تجد للمتفلّتين بأبصارهم بركةً، مهما أكثروا من عباداتهم وأعمالهم.

### وأين تُكتسب البركة؟

اكتسبوا البركة ـ رحمكم الله ـ من النظر في وجوه أولياء الله، وفي أعين أهل النور، واطلبوا أن تكون لكم مكانةٌ في قلوبهم. واحذروا أن تجدوا قبولًا ومحبةً عند أهل الفساد، فإنّ كثيرًا من الناس، مع أنهم أهلُ خيرٍ وصدقة، يفقدون بركتهم بسبب تعلّق أصحاب النفوس المظلمة بهم.

### تأثير إيجاد المحبّة والطلب في نيل البركة.

إنّ من العوامل المؤثّرة في جذب البركة أو نزولها على الإنسان هو وجود الحبّ والطلب في قلبه.

كتب جلال الدين الرومي قصيدة جميلة عن شوق القلب، جاء فيها:

"اطلب القليل من الماء، وازرع في نفسك العطش، حتى يتفجّر الماء من أعلاك وأسفلك".

وهنا نسلّط الضوء على الأمور التي تُنشئ الطلب الصادق في قلب الإنسان.

فالعمل الذي يقوم به شيخ الطريقة أثناء إعطاء البيعة للمريد يشبه العمل الذي يقوم به الطبيب عندما يسعى إلى إعادة الحياة لمريضٍ على وشك الهلاك، إذ يبدأ الطبيب بوصله بأنبوب الأكسجين، ثم يضخُّ في جسده عدة دفعات من الهواء، فينتقل شيء من الحياة إلى بدنه، وبعد أن يبدأ جهاز التنفس بالعمل، يزوّده بالطعام والهواء اللازمين ليبدأ الجسد عملية الإصلاح واستعادة عافيته.

وكذلك الأمر في نقل النور والبركة من الشيخ إلى المريد،

فكلما كان المريد أشدّ محبّة وطلبًا، كان ما يناله من البركة والنور أعظم. وبعبارة أخرى: كلما زادت قوة الجذب والطلب في قلب المريد، ازداد اندفاع نور الشيخ إليه.

**فكيف يمكن للإنسان أن يزيد من هذا الطلب؟**

في حياة الإنسان اليومية توجد رغبات كثيرة تولّد فيه أنواعًا من الحبّ والطلب. فإن استجاب المرء لجميع طلبات نفسه، ضعُف في قلبه مجال الجذب الروحي، ولم يبقَ فيه عطش ولا توق.

قد يرغب الإنسان في البقاء في الفراش من الصباح إلى الظهر، وقد يميل إلى ترك صلاة الفجر، أو يرغب في النظر إلى شخصٍ أجنبي، أو مشاهدة ما لا يليق، أو تناول طعام غير مناسب... فإذا لبّى كلّ ما تشتهيه نفسه، خمدت في داخله قوة الطلب.

ولكي يُنمّي الإنسان طاقة الطلب في قلبه، لا بدّ أن يمتنع عن تلبية رغبات النفس.

فإذا اشتهى ماءً باردًا، فليشرب ماءً دافئًا.

وإن رغبت نفسه في البقاء في الفراش، فليخرج منه أبكر من المعتاد.

وإن تاقت نفسه إلى حلوى لذيذة، فليكتفِ بشايٍ ساخنٍ مُرّ.

وعند قيام الليل، إن دعته نفسه إلى فراشٍ دافئٍ وثير، فليجلس على الأرض الصلبة مجاهدًا هواه.

وعند ذكر الله، إن اشتهت نفسه الجلوس متربّعًا في راحة، فليجلس على ركبتيه في خشوع ومشقّة.

بهذه المجاهدة يرتفع مستوى الطلب في القلب، فيتهيّأ الإنسان لاستقبال فيض البركة والنور، وتزداد قابلية القلب للاتصال بالحقّ تعالى اتصالًا أقوى وأصفى.

ومن الأمور الأخرى التي تُنمّي الطلب في قلب الإنسان:

الصدقة والبذل، ولكن لكي يكون لهذا البذل أثرٌ حقيقي، يجب أن يصدر من الأشياء التي يُحبّها الإنسان ويتعلّق بها، وإلّا فلن تكون له خاصيّة مؤثّرة.

وقد قال الله تعالى في سورة آل عمران (الآية 92):

**"لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ"**

أي: لن تبلغوا حقيقة البرّ وذروته إلّا إذا أنفقتم ممّا تحبّونه وتشتهيه نفوسكم.

وكلّما ازداد الطلب في قلب الإنسان، كانت سرعته في الترقي العرفاني والسلوكي أكبر وأقوى. ولهذا السبب نرى أنّ كثيرًا من العشق الدنيوي الطاهر يكون في كثير من الأحيان مقدّمةً للوصول إلى العشق الإلهي؛ وذلك لأن هذا النوع من العشق يوقظ في قلب العاشق قوة الطلب والتوجّه.

ومن أهمّ الأعمال في الطريق الروحي لإيجاد هذا الطلب: الخلوة و الأربعينية.

كما أنّ الصوم من الأعمال العظيمة في الطريق؛ فالسالكون، بالإضافة إلى صيامهم الفرائض السنوية، يصومون يومين في الأسبوع، هما الاثنين والخميس، اقتداءً بسُنّة النبي ﷺ. وفي ليالي هذين اليومين – حيث يكون الطلب في قلوبهم أشدّ – يجتمعون على الذكر الجماعي.

وفي الذكر الجماعي، ينال أصحاب المحبّة والطلب الأقوى حظًّا أوفر من البركة والنور. ولأجل ذلك يُستحسن لمن صاموا في هذين اليومين ألّا يستجيبوا كثيرًا لرغبات النفس عند الإفطار، وألّا يُكثروا من الطعام والشراب، حتى يدخلوا مجلس الذكر بقلبٍ أكثر عطشًا وطلباً.

واللافت في الطريق أنّ الأشخاص ذوي القابلية للبدانة غالباً ما يحققون تقدّمًا سريعًا في بدايات السلوك أكثر من غيرهم؛ لأنهم في حالة مجاهدة مستمرة مع رغبتهم في الطعام، فيكبحون شهوتهم ويمنعون أنفسهم عمّا تهوى. وهذا الكبح يولّد في داخلهم قوّة طلب تفتح مجاري البركة والنور إلى

قلوبهم. وقد نجد في المقابل أشخاصًا لا يستجيبون لرغبات النفس – أي إنهم يحافظون على عدم سقوطهم في الشهوات – ولكن في قلوبهم لا يوجد طلب لأيّ شيء؛ لا يحبّون أحدًا، ولا يميلون إلى شيء، ولا يفرحون بعمل. وهذا الأمر في الطريق الروحي غير مناسب إطلاقًا؛ لأن غياب الحبّ والطلب يعني غياب المحرّك الداخلي للسير والسلوك.

ولذلك ينبغي لهؤلاء أن يسعَوا إلى إحياء المحبّة في قلوبهم؛ وأسمى ما يمكن أن يوجِّه الإنسانُ محبّتَه إليه هو:

محبّةُ الله تعالى، ومحبّةُ رسول الله ﷺ، ومحبّةُ شيخِ الطريقة قدّس الله سرّه.

حسنًا يا أعزّتي، وفي سياق حديثنا عن البركة نذكر حكايةً عرفانيّة:

جاء مريدٌ إلى شيخه وقال له:

«يا سيدي، كيف أستطيع أن أرى رسول الله ﷺ في

المنام؟ دلّني على الطريق.»

ابتسم الشيخ وقال له:

«كُلِ السمكَ كثيرًا ثلاثة أيّام، ولا تشرب ماءً في هذه المدّة، ثم ارجع إليّ لأُبيّن لك ما تريد.»

(لأنّ السمكَ يُحدِث عطشًا شديدًا في الجسد، فيُوقظ قوّة الطلب في النفس).

فامتثل المريد لأمر شيخه، ثم عاد إليه بعد ثلاثة أيّام.

فسأله الشيخ:

«هل رأيت شيئًا في نومك؟» فقال المريد:

«نعم يا سيدي. كنتُ في كلّ ليلة أرى نفسي واقفًا عند بِركةٍ مملوءةٍ بالماء، فأشرب منها بشراهةٍ وعطشٍ لا أستطيع دفعه عن نفسي.» فقال الشيخ بهدوء:

«هذا هو. فإذا صار شوقك لرسول الله ﷺ كشوقك للماء، فاعلم أنّك ستراه في المنام. فطريق الرؤيا طريقُ العطش والطلب، لا طريق الذهن والخيال.»

والآن يا أعزّتي، قبل أن نختم حديث البركة، من المهم أن نتحدّث قليلًا عن الكلمة وقوّتها الخفيّة.

**هل تعلم أنّ كلّ كلمةٍ تنطق بها تُحدِث اهتزازًا في هذا الكون؟**

وهل شعرت يومًا أنّ بعض الأحاديث ترفع روحك وتزيدك صفاءً، بينما تُثقلك أحاديث أخرى وتُظلم بها نفسك؟

القرآن كشف هذا السرّ قبل أكثر من أربعة عشر قرنًا...

قال الله تعالى: **"مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ"**

(سورة ق، آية 18)

أي: لا تخرج من الإنسان كلمة واحدة إلا ويقوم الملك بتسجيلها وحفظها.

وفي الرؤية القرآنية، الكلمة كائنٌ ذو طاقة؛ فمنها ما هو نورٌ

وبركة، ومنها ما هو ظلمةٌ وتلوث.

وما يكثر على لسانك يُحدّد مسار طاقتك في الحياة.

وفي فلسفات الشرق يقولون:

«كلّ ما تركّز عليه، فإنك تُقوّي طاقته في حياتك.»

فإن أنتَ تكلّمتَ عن أحدٍ بسوءٍ — ولو بدافع الكراهية — فإنما تمنحه طاقة، وتُبقي شرَّه في مدار نفسك.

وأمّا إذا تكلّمتَ عن الحبّ والعفو والإيمان، فإن هذه المعاني تنمو في داخلك وتزداد رسوخًا.

وفي القرآن، الغِيبة ليست ذنبًا أخلاقيًا فقط، بل هي فسادٌ روحانيٌّ وطاقيّ أيضًا. قال تعالى:

**"وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا  أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ"** (سورة الحجرات، آية 12)

الغِيبة – في ميزان القرآن – كأكل لحمِ ميّت، أي: تغذّي النفس بطاقة فاسدة تُلوّث الروح وتُضعف القلب.

وفي العرفان الشرقي يقولون: الكلام السلبي غبارٌ في بيت القلب، إن لم تُزله، حجَب نورك.

وقال الله تعالى في شأن الكلمة الطيبة:

**"أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ" (سورة إبراهيم، آية 24)**

فالكلمة الطيّبة شجرةٌ من نور تنمو في روح الإنسان.

وحين تقول: «الحمد لله»، «سبحان الله»، أو حتى «شكرًا»، فإنّ شجرةً نورانيةً تُغرس في داخلك، وترتفع أغصانها إلى السماء.

فاحذر يا أخي ويا أختي ممّا تسمع وممّا تقول.

إن لم تُحبّ أحدًا، فلا تتحدث عنه...

كأنّه غير موجود.

واحتفِظ بطاقتك لما ينفعك:

للمحبّة، وللإيمان، وللخدمة.

فالقرآن قال قبل كلّ شيء:

**"وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا"**

وتذكّر: كلماتك هي طاقتك. فلا تُبذّر طاقتك في هدم نفسك أو إيذاء الآخرين.

## لماذا يكون لبعض الأعمال السيّئة نتائجُ حسنة؟

من أكثر الأمور التي تدفع البعض إلى الشكّ في وجود الله، أو في وجود قانونٍ يحاسب الخير والشر، هو أنّهم يرون أناسًا لا يصغون إلى أوامر الله، ويعيشون في المعاصي والذنوب، ومع ذلك تبدو أحوالهم في ظاهر الأمر أفضل من أحوال المؤمنين الملتزمين.

وفي هذا الكلام سنبحث هذا الموضوع بعمق، لكن الأمر يحتاج إلى مقدّمة بسيطة.

فعادةً يمكن تقسيم أعمال الإنسان ونتائجها في الدنيا إلى أربعة أقسام:

1. أعمال سيّئة أو آثام تُنتج نتائجَ سيّئة ظاهراً.
2. أعمال سيّئة أو آثام تُنتج نتائجَ حسنة ظاهراً.
3. أعمال صالحة تُنتج نتائجَ حسنة ظاهراً.
4. أعمال صالحة تُنتج نتائجَ سيّئة ظاهراً.

## القسم الأول: الأعمال السيئة التي تؤدّي إلى نتائج سيئة

هذا يحدث في الحالات التي يرتكب فيها الإنسان جرمًا أو معصية فيرى نتيجتها مباشرةً بصورةٍ مزعجة أو مؤلمة.

غير أنّ ما يبدو مصيبةً في الظاهر هو في الحقيقة رحمة من الله تعالى، إذ يكون بمثابة جرس إنذار لتنبيه الإنسان كي لا يستمر في طريق الهلاك، لا في الدنيا ولا في الآخرة.

وقد شرح الله تعالى هذا المعنى في سورة السجدة (الآية 21):

**"وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ العَذَابِ الأَدْنَى دُونَ العَذَابِ الأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ"**

أي: نُريهم بعض العقوبة في الدنيا قبل عقوبة الآخرة، لعلّهم يعودون إلى رشدهم.

وهذا ما يحدث مع كثيرٍ ممن ينحرفون حديثًا عن الطريق

المستقيم؛ فمن بدأ بالقمار حديثًا تجده يخسر ولا يربح،
ومن بدأ بالسرقة أو الرشوة قد يُفضَح أو يُصاب بمرض يمنعه من الانتفاع بالمال الحرام.

إنّ فعل الله هنا كفعل مراقبٍ رحيم يرى سيارةً تهوي في منحدرٍ خطير، فيحفر في طريقها حفرة صغيرة لتتوقف قبل السقوط المروّع.

**قصة معبّرة توضيحية**

في يومٍ قائظٍ من أيام الصيف، خلع طفلٌ صغير ثيابه على عجل، وارتمى ضاحكًا في البحيرة الصغيرة أمام منزله. وكانت أمّه تراقبه من النافذة مستمتعةً بفرح ولدها.
وبينما هي تنظر، رأت تمساحًا يسبح باتجاه طفلها!
فركضت مذعورة نحو البحيرة تصرخ وتناديه.
التفت الطفل، ولكن بعد فوات الأوان؛

فالتمساح التقم ساقيه وبدأ يشدّه إلى أسفل الماء.

وصلت الأمّ في اللحظة الأخيرة، وتشبثت بذراعي طفلها بكل قوتها. التمساح يسحب... والأم تسحب...

وكلٌّ منهما يقاتل الآخر بقوة رهيبة،

لكن حبّ الأم كان أعظم من أن يسمح بترك ابنها فريسة.

وفي تلك اللحظة، كان أحد المزارعين يمرّ قريبًا، فسمع صراخ الأم، وركض إليهما، وضرب التمساح على رأسه بمِخْلَبٍ حديدي حتى فرّ.

نُقل الطفل إلى المستشفى، وبعد شهرين من العلاج بدأ يستعيد عافيته،

كانت ساقاه مثقّبتين بأنياب التمساح، وعلى ذراعيه آثارُ أظافر أمّه.

جاء صحفي ليُجري معه مقابلة، فطلب منه أن يريه آثار

الجروح. فكشف الطفل عن ساقيه بحزن، ثم رفع ذراعيه بفخرٍ شديد وقال:

"أمّا هذه الخدوش... فأنا أحبّها!

هذه آثارُ حبّ أمّي!"

## المعنى العميق

على الإنسان أن يكون أحيانًا مثل هذا الطفل الشاكر،

أن ينظر إلى "خدوش الحب" التي يبتليه الله بها في حياته،

وأن يتأمّلها جيدًا.

فعندها سيدرك أنّها ليست عقوبات،

بل علامات رحمةٍ إلهية تمنعه من السقوط،

وأنها – مثل أظافر الأم – جاءت لتحميه لا لتؤذيه.

## القسم الثاني: الأعمال السيّئة ذات النتائج الحسنة ظاهراً

القسم الثاني هو الحالات التي يرتكب فيها الإنسان معصيةً أو جرمًا، ومع ذلك يرى أنّ النتائج التي ينالها تبدو مُرضية

وموافِقة لهواه.

ومشاهدةُ هذه النماذج هي أخطر الأسباب التي تدفع بعض الصالحين إلى تغيير الطريق، واعتناق أسلوب حياةٍ فاسد، لأنهم يرون - في الظاهر - أنّ بعض أهل الفساد والإثم يحققون نجاحاتٍ دنيوية كبرى.

غير أنّ هؤلاء الأشخاص هم في الحقيقة في أسوأ وضعٍ عند الله تعالى؛ وقد صرّح الله سبحانه في القرآن بأنّ هؤلاء، بعد فترة من حياتهم المادية، يُساقون إلى الشقاء، ويُصابون بالانتقام الإلهي والعذاب الأليم.

وهذه الحالة تقع عندما تُرسَل إلى العاصي إشاراتٌ متكرّرة ليترك المعصية، فلا يلتفت إليها ويصرّ على غيّه وفساده.

وقد وصف الله تعالى هذا الصنف بوضوحٍ في سورة الأنعام، الآية 44:

**"لَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ، حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ"**

أي: حين نسوا التحذيرات التي وُجّهت إليهم، فتحنا لهم كل أبواب الدنيا، ليغترّوا ويطغوا، ثم أخذناهم فجأة، فإذا بهم يائسون منقطعو الرجاء.

وفي هذا المثال يمكن أن نتخيل أنّ الله تعالى - من رحمته - حفر حُفَرًا صغيرة في طريق سيارةٍ تهوي نحو الهاوية لينبّه السائق، فلما رأى أنّه يعاند ويصرّ على السقوط، أزال تلك الحفر كلّها، وتركه يندفع بأقصى سرعة نحو النهاية التي أرادها لنفسه.

## لماذا يفتح الله للفسّاق أبواب اللذّات والمادّيات؟

الحكمة من ذلك واضحة تمامًا.

فانظر مثلًا إلى مجرمٍ مثل آل كابوني؛

هذا الرجل في شبابه في شيكاغو ارتكب من الجرائم ما لا

يُحصى: ابتزاز، قتل، وسرقات. ومع ذلك - كغيره من المجرمين - عاش في بداياته في فقر، ووحدة، وبؤس شديد.

لقد صارت نفسه خَشِنةً كجلد الثور من كثرة ما رأى من المآسي؛ فإن قلتَ له: لا تفعل هذا وإلّا أصبحتَ فقيرًا!

أجابك: أنا فقير أصلًا!

وإن قلتَ له: لا تفعل هذا وإلّا قُتِلت!

قال: الموت أهونُ من هذه الحياة البائسة!

فكيف يعاقب الله مثل هذا الإنسان القاسي الذي لا يتأثر بالتهديد ولا بالوعيد؟

إنه سبحانه يرفعه... يفتح له أبواب القصور، والمال، والسيارات الفاخرة، وأجمل النساء...

يُعطيه كل ما يشتهي قلبه، حتى تتجذّر هذه اللذّات في داخله كما تتجذّر شجرةٌ في عمق الأرض.

فإذا استقرّت في قلبه تمامًا...

سلبه الله إيّاها كلها دفعةً واحدة،

فيرتطم قلبه باليأس ارتطامًا قاسيًا، ويُساق إلى جحيم الدنيا قبل جحيم الآخرة.

وهكذا كان آل كابوني:

أصيب أولًا بمرض السفلس المؤلم،

ثم صودرَت جميع أمواله، وقُبض عليه،

وزُجّ به في أحد أعتى سجون أمريكا: سجن ألكاتراز.

ثم عاش بقية أيامه في ألمٍ وبؤس، حتى مات في قمة الشقاء وفقدان الكرامة.

**الرسالة الواضحة**

فإذا رأيتم بعد اليوم رجلًا فاسقًا يضحك، ويغرق في الثروة، ويزدري الآخرين، فلا تحزنوا.

فبحسب وعد الله تعالى، فإنّ هذا الإنسان إنما يعيش مرحلة ما قبل السقوط.

وما سقوطه إلا مسألة وقت.

ثم إن هؤلاء، فوق عذاب الدنيا، ينتظرهم عذابُ الآخرة، وهو عذابٌ أبدي، لا يُقارن بآلام الدنيا مهما اشتدّت.

قال أحد معارفي: كنتُ يومًا ما واقفًا في الشارع أتحدّث مع صديق لي، فرأيتُ رجلًا يقود سيارة قديمة ذات بابين، ويعمل بها سائقًا للأجرة. فقلتُ لصديقي: انظر إلى هذا المسكين، بسيارةٍ كهذه يشتغل في نقل الركّاب!

فقال لي: انظر جيدًا، ألا تعرفه؟

وما إن التفتُّ لأتأمّل وجهه حتى كانت السيارة قد ابتعدت عنّا. فسألته: من يكون؟

قال: ألم تعرفه؟ قلت: لا. فقال: إنه فلان ابن فلان.

ولمّا سمعتُ الاسم كدتُ أصعق من شدّة الدهشة! فهذا الرجل كان في زمنٍ سابق من أكبر أغنياء المدينة، وكانت المجالس كلّها تتحدّث عن حفلاته، وبذخه، وإسرافه. ومن

أشهر القصص المتداولة عنه أنّه ربح في ليلة واحدة أربعين مليون دولار على مائدة القمار (وكان هذا المبلغ في ذلك الزمن رقمًا هائلًا لا يُصدّق).

أما القصة فكانت على النحو التالي:

أحد رجال القمار احتاج إلى المال، فعرض قطعة أرض ضخمة - تُقدَّر قيمتها بأربعمائة وخمسين مليون دولار - للبيع بمبلغ مئةٍ وعشرين مليون دولار لأحد الجالسين معه على المائدة.

وكان المشتري يملك ستين مليون دولار فقط، فاستدان الستين المتبقية من الرجل الذي يعمل اليوم سائقًا للأجرة. فأعطاه المال قرضًا، وفي اليوم التالي قبض منه مئة مليون دولار كاملة!

ثم قال لي صديقي: إن هذا الرجل يعيش اليوم في حالةٍ يُرثى لها، في غرفةٍ علويّة صغيرة فوق مقهى، مع ابنه المدمن

الذي تركتهم زوجته منذ سنين. وابنه هذا يضربه كل ليلة، وينتزع منه بالقوة القليل الذي يجنيه من عمله ليصرفه على المخدرات.

وأضاف صديقي: الغريب أنّ هذا الرجل حاول الانتحار مرات عديدة، لكنّه في كل مرة ينجو بطريقة أشبه بالمعجزة!

فقلتُ له: أنا أعرف السرّ!

ثم تلوْت عليه قوله تعالى من سورة آل عمران (178):

**"وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ"**

لذلك، إذا رأى الإنسانُ أشخاصًا يعيشون في ظاهر الأمر حياةً رغيدة، رغم تمردهم على أوامر الله، فعليه أن يعلم أنّ الله يرفعهم فقط ليلقيهم أرضًا كما تُرمى حبّة البطيخ من علوّ، وكلّما طال زمن الرفعة، كان السقوط أشدَّ وأقسى.

وأنا، وقد آمنتُ بعدل الله منذ طفولتي، تتبعتُ بنفسي كلّ حالةٍ بدت لي كأن فيها ظلمًا أو اختلالًا في الموازين، ولم أرَ في حياتي - ولو مرّة واحدة - إنسانًا عاش على الفساد والباطل ثم ختمت له العاقبة بخير. وأنا واثق أنه لو بحث كل واحدٍ منكم في محيطه لوجد النتيجة ذاتها.

وما عرضناه هنا إنما هو من العقوبة الدنيوية، أما العذاب الأخروي - الذي أكّدت عليه جميع الكتب السماوية وجميع الأنبياء - فهو شأنٌ آخر، وعقوبةٌ أعظم.

### أما النوع الثالث، وهو أن الأعمال الصالحة تأتي بنتائج حسنة،

فهذا ينطبق أكثر على عموم المؤمنين. هؤلاء يهتمون بحياتهم الدنيوية، يحرصون على كسب الحلال، والالتزام بالأحكام، ويؤدّون عباداتهم، فيجمعون بين حسن التدبير وحسن الالتزام.

ويظن الكثيرون أنّ هذا هو النموذج الأفضل للحياة.

ولكن... بالنسبة للأولياء ومن يصلون إلى مقامات القرب الإلهي العليا، فهناك مرتبة رابعة أعلى وأعمق، سنتحدث عنها لاحقًا.

## القسم الرابع: الأعمال الصالحة التي يبدو أنّ نتائجها سيّئة

القسم الرابع يتعلّق بأشخاصٍ تكون أعمالهم الصالحة وعباداتهم سببًا لنتائج يظنّها الجهّال والبسطاء نتائجَ سيّئة أو مؤلمة، بينما هي في الحقيقة امتحانات شريفة يرفع الله بها درجات أوليائه.

فالذين بلغوا مراتب الولاية والقرب الإلهي يُعرَّضون لاختباراتٍ شديدة ليرتفعوا إلى درجات أعلى عند الله.

أمّا عامة المؤمنين - المذكورون في القسم الثالث - فإنهم كذلك يُبتَلون، لكن لأنّ طاقتهم محدودة، فإنّ الله يخفّف

عنهم، ولا يعرّضهم لامتحاناتٍ تفوق قدرتهم. وقد بيّن الله تعالى هذا الأصل في سورة العنكبوت، الآية 2:

"أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ"

أي: هل يظنّ الناس أنهم يُتركون بلا امتحانٍ لمجرّد قولهم: آمنا؟

وبحسب هذه الآية، فإنّ الامتحان سنةٌ إلهية لتمييز الدرجات، وبيان منازل العباد عند الله.

وكما لا يجرّب المعلّمُ طفلًا في المرحلة الابتدائية بامتحانٍ مخصّصٍ لطلاب الثانوية، فإنّ الله تعالى لا يبتلي عامة الناس بابتلاءات الأولياء.

ولهذا قال الله تعالى في سورة البقرة (214):

"أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ

يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ ۗ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ"

أي: لن تدخلوا الجنّة حتى تُبتَلَوا بمثل ما ابتُلي به السابقون من شدائد ورزايا، حتى قال الرسول والمؤمنون: متى نصر الله؟ ألا إنّ نصر الله قريب.

## طبيعة الامتحان عند الأولياء

الأولياء وأهل المقامات الرفيعة إذا مرّت بهم فترةٌ بلا ابتلاء، يشعرون بالقلق؛ لأنهم يعلمون أنّ الترقّي بلا امتحان محال، وأنّ كل درجة لا تُمنح إلا بعد اختبار.

وهذا يشبه تمامًا حال الطالب المجتهد المتفوّق الذي يُخبرونه فجأة بأنه لن تكون هناك امتحانات؛ فمثل هذا الطالب لا يشعر بالراحة، لأن الامتحان عنده فرصة لإثبات التميّز والارتقاء.

وقد قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم إنّه أشدّ الأنبياء بلاءً، وكان هذا البلاء سبب رفعة درجته فوق درجات كل الأنبياء.

وكذلك الإمام الحسين عليه السلام قدّم لله نفسه وأهله وماله وأصحابه، فأعطاه الله من الدرجات ما يليق بمقامه الرفيع.

ويقول الله تعالى في سورة الأنعام (132):

**"وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ"**

وعليه، فعند مغادرة الدنيا والانتقال إلى عالم البرزخ، يدخل كل إنسانٍ كما يدخل أفرادُ الجيش إلى صفوفهم: كلٌّ بدَرَجَتِه، وبالمكانة التي اكتسبها من عمله وصبره وابتلائه. وفي هذا السياق أروي لكم قصةً من قصص صحابة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

روِيَ أنّ أحد الصحابة جاء يومًا إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم،

فرآه رسول الله في حالة من الرفاه والراحة منذ مدّة طويلة؛

لم يُصب بمرض، ولم ينقص ماله، ولم يعترضه همٌّ أو ضيق.

فسأله النبي صلى الله عليه وآله وسلم بلطف:

**«هَلْ أَصَابَكَ شَيْءٌ؟ مَرَضٌ؟ ضِيقٌ؟ فَقْدٌ؟»**

«هل نزل بك في هذه المدة مرض أو ضيق أو مصيبة؟»

فقال الرجل:

«لا يا رسولَ الله، لم يُصِبْني شيء.»

فتغيّر وجه النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وبدت عليه أمارات القلق، وقال:

**«تِلْكَ نِعَمٌ لَمْ يُمْتَحَن شُكْرُهَا... فَأَخْشَى أَنْ تَكُونَ اسْتِدْرَاجًا.»**

«هذه النعم التي لا يُختَبَر شكرُها، أخشى أن تكون استدراجًا لك.»

فتعجّب الرجل وقال:

«فَمَاذَا أَصْنَعُ يَا رَسُولَ اللّٰه؟»

فقال له النبي صلى الله عليه وآله وسلم:

**«بَادِرْ بِالصَّدَقَةِ؛ فَإِنَّ الْبَلَاءَ لَا يَتَخَلَّفُ عَنِ الْمُؤْمِنِ.»**

«سارِعْ إلى الصدقة، فإنّ البلاء لا ينفكّ عن المؤمن.»

فسارع الرجل إلى التصدّق بمالٍ كثير.

وبعد أيامٍ قليلة، وقع له حادثٌ صغير.

فجاء إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأخبره بما حدث.

فابتسم رسول الله وقال:

**«الحَمْدُ للهِ الَّذِي رَدَّ عَنْكَ البَلاءَ العَظِيمَ بِهَذَا البَلاءِ الصَّغِير.»**

# الاعتكاف والخلوة الروحية

كثيرٌ من الناس يتعاملون مع هذه المفردات على أنها مجرّد أعمالٍ تعبّدية، ولكنّ الحقيقة أن الخلوة هي إحدى أقوى الوسائل في إعادة بناء روح الإنسان.

في الخلوة، يدخل الإنسان في رحلةٍ باطنية...

رحلةٍ تنفذ إلى أعماق وجوده، حيث تصمتُ أصواتُ الدنيا، وتعلو صوتُ الحقيقة المنبعث من الداخل.

وخلال هذه الأيام المعدودة يبتعد الإنسان عن كل شيء:

- عن الأحاديث الفارغة...
- عن صراعات الذهن...
- عن ضغوط الحياة...

وفجأة يدرك أنّ في الصمت أشياءَ تُسمَع،

لا يمكن إدراكُها في ضوضاء الدنيا مهما حاول.

ولكن... لماذا تمتلك الخلوةُ هذه القوة؟
لماذا يستطيع الإنسان في الخلوة أن يغيّر نفسَه،
وأن يفتح أقفال روحه، وأن يقترب من ربّه أكثر؟

للوصول إلى الجواب، دعونا نذكر مثالًا علميًا مدهشًا—
مثالًا سيغيّر نظرتكم إلى الخلوة إلى الأبد.

**المثال العلمي - الاستنساخ وفتح الأقفال الخفية في الخلايا**

في عالم العلم، كان الاعتقادُ السائدُ أنّ كلَّ خليةٍ لا تقوم إلا بدورٍ محدّد:
خلية الجلد تصنع جلدًا فقط...
خلية العين تصنع عينًا فقط...
وكأنّ لكل خلية «وظيفةً واحدةً محدودة».

لكن كان هناك سؤال يُحيّر العلماء:

إذا كانت كلُّ خليةٍ تحمل بداخلها كاملَ المعلومات اللازمة لخلق كائنٍ كامل...

فلماذا لا تستطيع إعادةَ بناء هذا الكائن؟

وهذا يشبه تمامًا روح الإنسان:

روحُنا تحمل طاقاتٍ هائلة، لكنّ أكثرها مغلق،

والإنسان لا يعيش إلا جزءًا صغيرًا من قدراته الروحية.

سنواتٍ طويلة حاول العلماء معرفة كيفية فتح هذه الأقفال... لكنّهم لم ينجحوا. إلى أن وقع حدثٌ كبير.

أحد العلماء قدّم اقتراحًا غريبًا:

قال:

**«لكي تفتح الخليةُ جميع أقفالها، يجب أن نغيّر بيئتَها.**

**يجب أن نُخرجها من ظروفها العادية. يجب أن نقلّل**

**عنها الغذاء حتى تدخل في حالة طوارئ.»**

وفعلوا ذلك بالفعل:

أخرجوا الخلية من منطقة الراحة...

قطعوا عنها الغذاء...

ودخلت الخلية في حالة أشبه بـ الاحتضار.

ولكن هنا، في هذه اللحظة بالذات، وقع التحوّل المعجز:

الخلية التي كانت بالأمس لا تؤدّي إلا وظيفة واحدة،

فتحت فجأةً كاملَ مخزونها الجيني،

وتحرّكت قدراتُها الكامنة،

وأصبحت قادرةً على العودة إلى مرحلة «الخلايا الجذعية»،

التي تصنع الجلد والعين والقلب... ويمكنها أن تعيد بناء كائن كامل. ونتج عن هذا الاكتشاف ولادةُ النعجة دولّي (Dolly) عام 1996؛

أوّل كائن حيّ صُنع بعملية الاستنساخ.

وماذا يثبت هذا؟

يثبت أنّ فتح الأقفال الكبيرة يحتاج أحيانًا إلى خروجٍ كامل من البيئة المألوفة.

**صلة ذلك بالاعتكاف - فتحُ أقفال الروح**

هذا بالضبط ما يحدث في الاعتكاف والخلوة.

عندما يبتعد الإنسان عن روتين يومه، عن عاداته، عن صخب الحياة، عن المتع والضغوط...

وعندما يقضي عدّة أيامٍ في الصمت، والعبادة، والتأمّل، وذكر الله...

تدخل الروح في حالة تشبه حالة الطوارئ الإيجابية التي دخلتها الخلية. لكنها ليست طوارئ الموت...

بل طوارئ اليقظة. في هذا الوضع:

- تُفتح الأقفال الداخلية

تظهر الأفكار المطمورة

تتكشف الحقائق الباطنية

ويرى الإنسان جذورَ مشكلاته بوضوح

• تتساقط صدأات الروح

يخِفُّ القلب

يهدأ الذهن

ويقترب الإنسان من ذاته الحقيقية

• ويقوى الاتصال بالله

تتكشف الحجب

يمتلئ الداخل بالنور

ويشعر الإنسان أنه يقترب من مصدر الحقيقة.

الخلوة هي أشبه بـ عودة الخلية إلى أصلها.

والإنسان كذلك، في الخلوة، يعود من ضوضاء الدنيا إلى فطرته الأولى...

إلى النور الذي أودعه الله في داخله...

إلى ذلك الذات الحقيقية التي تُنسى وسط ازدحام الحياة.

وبناءً على ذلك، فليس الاعتكاف عبادةً جافةً جامدة،
بل هو عمليةٌ روحية-علمية،
يخرج فيها الإنسانُ من بيئتِه المعتادة لتُفتح أقفالُه الباطنية.

وكما تُطلق الخليةُ قدراتِها الكامنة في ظروفٍ خاصة...
فإنّ روح الإنسان في الخلوة تُظهر طاقاتها المعنوية والإلهية المخبوءة.
هذه التجربةُ قادرةٌ على أن تغيّر حياةَ الإنسان،
وأن تبدّل نظرتَه إلى نفسه وإلى العالم،
وتقرّب قلبَه إلى الله تعالى قربًا لم يعهده من قبل.

## الخلوة في سُنّة النبيّ ﷺ

أوّلُ من سنَّ منهجَ الخلوة والاعتكاف هو النبيّ الكريم ﷺ.

فقد كان قبل البعثة يعتزلُ الناسَ ويصعد إلى غار حراء،
لينفرد بربّه تعالى بعيدًا عن ضوضاء الحياة،
متأمّلًا في خلق الله، متقرّبًا إليه،
حتى نزل عليه الوحي لأول مرة في ذلك الموضع المبارك.
وبعد البعثة استمرّ النبي ﷺ على هذه السُّنّة العظيمة،
ليُبرز أهميّة الخلوة والاعتكاف في تزكية النفس وتقوية الصلة بالله سبحانه وتعالى.

## مدة الاعتكاف

• الحدّ الأدنى: عشرة أيام؛ لأنها مدة اعتكاف النبي ﷺ.

• المدة المثلى: أربعون يومًا، كما ذهب إليه كثير من أهل الطريق، استنادًا إلى ميقات الله تعالى مع موسى عليه السلام، حيث اعتكف أربعين ليلة.

قال الله تعالى:

"وَوَاعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ

**مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً"** (الأعراف: 142)

## برنامجُ رياضةٍ روحيّة لمن لا يملكون وقتًا لخلوةٍ طويلة

الذين لا تسمحُ لهم ظروفُهم بالاعتكاف الطويل، يمكنهم بلوغُ ثماره عبر الرياضة الروحيّة التي أذكرها هنا.

فالرياضة جزءٌ من المجاهدة، ولها أذواقٌ خاصّة تُنير القلب وتُصفّي الباطن.

وفي الطريقة العلية القادرية الكسنزانية، وُضعت لهذا الهدف برامج دقيقة، ومنها:

ضوابط عامة:

1. الامتناع عن جميع المنتجات الحيوانية ومشتقاتها طوال مدة الرياضة.

2. التقليل التدريجي من الخبز، لأن له تأثيرًا مشابهًا للّحوم في تحريك الشهوات.

3. خفض الكلام الدنيوي واستبداله بالذِّكر.

4. الامتناع عن كثرة الأكل وكثرة شرب الماء، لأنهما يُنمّيان النوم والغفلة.

5. أكل الحلال الخالص الذي لا شبهة في مصدره، فهو أقربُ إلى يقظة القلب.

## البرنامج الغذائي لرياضةٍ روحية مدتها عشرة أيام

الإفطار:

من بعد صلاة الفجر إلى طلوع الشمس.

- يُؤكل مقدارٌ قليل من الخبز (بقدر كفّي اليدين)، ويُفضَّل أن يكون يابسًا، مع الشاي.
- وإن توافر خبز الشعير فهو الأفضل.

الغداء:

• نفس مقدار الخبز، مع الفواكه والخضروات.

العشاء:

• مثل الغداء: خبز + خضروات + فواكه. ويمكن للمبتدئين تناولُ كمية قليلة من الخضار أو البقوليات من دون لحمٍ أو مشتقاتٍ حيوانية، مطبوخةً بدون زيت (مشوية أو مسلوقة).

**تنبيه مهم:**

بين الوجبات لا يُسمح بالأكل مطلقًا،
ويُكتفى فقط بالسوائل.

**النوم:**

النوم الساعة 11 ليلًا،
والاستيقاظ قبل الأذان الفجر بساعة.

**الصيام:**

يصومُ السالكُ يومَي الاثنين والخميس،

وأيام البيض (13، 14، 15) مِنَ الشَّهرِ القَمَري إذا صادفت أيام رياضته.

**آداب السالك أثناء الرياضة الروحية**

- ألا يرى نفسَه أفضل من غيره كي لا تفسد مجاهدته.
- يكون قليلَ الكلام، قليلَ الضحك، قليلَ المخالطة.
- المحافظة على الصلاة في وقتها.
- السعي لإخفاء حاله، فلا يعلم أحد بما يقوم به.
- عدم الأكل بين الوجبات والاقتصار على السوائل.
- البقاء على طهارةٍ دائمة قدر المستطاع.
- تركُ الجماع خلال أيام الرياضة لتقوية الصفات الروحية وإخماد الصفات النفسانية.
- تجنّبُ الوسائد العالية والفُرُش الناعمة، والنومُ على

الأرض، مع عدم استعمال البطانيات الثقيلة، ليكون أنشطَ في العبادة. وأخيرًا:

يجب على السالك ألا ينزعج من الجوع، بل يُدرك أن الجوعَ يقوّي الروح، ويُضعف الشهوات، ويزيد القدرة على الذكر والتأمّل العميق.

## الإشراف والرعاية الروحية

إنّ الخلوة الروحية تحتاج إلى معلّمٍ ومراقِبٍ للروح، ولذلك يجب على المريد أن يستأذن شيخَه قبل الشروع في أي نوعٍ من الخلوة.

فمن دون توجيه شيخٍ صاحبِ سلطانٍ في العالَم الروحي، ستجلب الخلوة للمريد - بلا شك - مشكلاتٍ واضطرابات.

فالشيخ الروحي هو المسؤول عن رعاية المريد، وهو الذي يرشده إلى الطريق الصحيح، ويحفظه من الانحراف

والوساوس، ويقوده خطوةً بخطوة في هذه الرحلة الدقيقة.

## انتهاء الخلوة والعودة إلى المجتمع

وحين تنتهي مدةُ الخلوة، ينبغي للمريد أن يعود إلى العالم الخارجي تدريجيًا،

عودةً هادئةً، مملوءةً بالانتباه للعبادات والأذكار اليومية.

وفي هذه الفترة بالذات يكون إشراف الشيخ ضروريًا في كل مراحل العودة، حتى يبقى المريد في مأمنٍ من مخاطر الضلال ووساوس الشيطان.

## تنبيه صحي وروحي

الذين يريدون الدخول في هذا البرنامج، عليهم أولًا أن يستشيروا طبيبَهم للتأكد من سلامة قدرتهم الجسدية، فلا يدخل أحدٌ في رياضةٍ روحية تتجاوز قدرة بدنه على الاحتمال.

وأمّا من جهة الإشراف الروحي، فيمكنهم التواصل معي عبر رابط الواتساب أو التلغرام، أو من خلال البريد الإلكتروني المذكور في نهاية هذا الفصل، وذلك لترتيب الرعاية اللازمة، وتزويدهم بالأذكار والأوراد التي ينبغي عليهم المواظبة عليها.

رابط واتساب 👇

https://wa.me/9647731718421

رابط تلغرام 👇

https://t.me/noorvarahma

البريد الإلكتروني 👇

hamidrezaansari1103@gmail.com

# تأثير التعاليم العرفانيّة في الإبداع والقدرات الفنيّة

يرى أهلُ العرفان أنّ للمعرفة الروحيّة أثرًا عميقًا في فتح آفاق الإبداع لدى الإنسان ورفع قابليّاته الفنيّة. فقد ورد في الحديث القدسي أنّ نبيّ الله داود عليه السلام سأل ربَّه: "يا ربّ، لِمَ خَلَقتَ الخلَق؟" فقال سبحانه:

"كنتُ كنزًا مخفيًّا فأحببتُ أن أُعرَف."

ويعتقد العارفون أنّ الله تعالى يُظهر إبداعه بطريقين:

الأوّل: إبداعه المباشر الذي يتجلّى في الكون والطبيعة وفي نظام الوجود كلّه.

والثاني: الإبداع الإنساني الذي يفيض على قلوب البشر، فيكون ما يظهر من فنٍّ أو ابتكار أو جمال على يد الإنسان إنّما هو مظهر من مظاهر الإبداع الإلهي.

ومن هذا المنطلق، يعتبر أهلُ السلوك أنّ الإنسان مرآةٌ لآيات الله، وأداةٌ تعكس صفاته وأسمائه، بل هو «أسطرلابُ أوصافِ الحقّ»، يُظهِر في ذاته ما غاب عن الأبصار من المعاني العلويّة. فكلُّ ما يتجلّى في الإنسان العارف وفي سائر المكوّنات الممكنة ليس سوى انعكاسٍ لصفات الحقّ جلّ وعلا، كما ينعكس ضوء القمر في صفحة الماء الصافي.

فالخَلقُ في منظور العارفين يشبهون الماءَ النقيّ الرقراق، تتلألأ فيه صفاتُ الجلال والجمال، غير أنّ الإنسان قد يهبط بجهله إلى «سِجنِ غفلته»، أو يرتقي بعلمه ومعرفته إلى «إيوانِ أنوارِ الحقّ».

وفي هذا المعنى، تأتي كلماتُ الشيخ أبي مدين الغوث لتُلخّص التجربة العرفانيّة بأرقى بيان:

"يا سائراً نحوَ المعاني إنما
فيكَ التجلّي والوجودُ بما بدا،
فالكونُ مرآةٌ، وأنتَ صفاؤُها،
وبه تُرى أنوارُ مَن خَلَقَ المدى."

لكي يتجلّى النور الإلهيّ في وجود الإنسان، وتتفجّر من قلبه ينابيعُ الإبداع والحكمة والمعرفة، لا بدّ له أن ينجو بنفسه من شرّ الذنوب ودنسِ النفس. فقد جاء في الآية (58) من سورة الأعراف:

**"وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا"**

أي: إنّ الأرض الطيّبة تُنبت بثمرٍ حسن بإذن ربّها، أمّا الأرض الفاسدة فلا يخرج منها إلا ما لا نفع فيه ولا قيمة.

وقد رُوي أنّ أحدَ كبار السالكين كان يجد صعوبة في تحصيل العلم، فذهب إلى شيخه يشكو إليه حاله، فقال له الشيخ: "لتدخلَ أنوارُ العلم إلى قلبك، لا بدّ أن تُطهّر نفسك من الذنوب، لأنّ العلم نورُ الله، ونورُ الله لا يسطع على قلبٍ دنّسه العصيان."

إنّ إشراق النور الإلهيّ على القلب يُثمر في الإنسان قدراتٍ إبداعيّة عجيبة، فيحوّل الشخصَ العاجزَ العقيم، الذي يشبه الميّت من شدّة جفافه الروحيّ، إلى موجودٍ حيّ نابض بالإلهام والحكمة والابتكار.

وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا التحوّل في الآية (122) من سورة الأنعام:

**"أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا"**

## التطهّر والتزكية في الطريق

إنّ أهل الطريق يطهّرون أنفسهم بالتوبة الخالصة، ويجْلون مرآةَ قلوبهم بالأذكار المأثورة في الطريقة، حتى تستعدّ قلوبهم لاستقبال نور الله تعالى. هؤلاء يُعرَفون بما يُسمّى "البركة"، وهي طاقة نورانيّة روحيّة يفيض الله بها على قلوبهم. وقد بيّنّا في مباحث سابقة حقيقتها وآثارها.

فالإنسان الذي يملك نورًا قلبيًّا إذا لمس شيئًا أو أقام في مكانٍ ما، يفيض عليه من بركته. أمّا قليلُ البركة، فإنّه ينتفع حين يُجالس أهل النور، ويستريح قلبُه إليهم، لأنّ فطرته تنجذب إلى النور الذي يحملونه.

وهؤلاء - بفضل صفاء أرواحهم - يحدثون في الآخرين انجذابًا قلبيًّا لا شعوريًّا، فيكونون محبوبين لدى الناس، كما يُقال عن بعضهم إنّه «مبارَك» أو «مقبول». وهذا في حقيقته أثرٌ من آثار النور الإلهيّ الساري في نفوسهم.

ومن هنا يُنبّه الخلُفاءُ في الطّريقة المريدين الشباب إلى أنّ جاذبيّتهم الشخصيّة تزداد بعد أخذ الطّريقة والالتزام بالأوراد، فينبغي لهم أن يكونوا يقظين حتى لا تقودهم هذه الجاذبيّة إلى الغرور أو الزَّلل. ويقول المشايخ القدماء: "إنّما أحبّكم الناسُ لنور الله فيكم، لا لأنفسكم، فاحذروا أن تنسبوا النور إلى غير صاحبه."

## أثر النور في الإبداع والفنّ

أهل الطريق يرون أنّ آثار السالكين المتقدّمين في الطّريقة تستمدّ جمالها من توقيعاتهم الروحيّة، ومن بصمتهم العرفانيّة التي تنطبع في أعمالهم، حتى في الأمور العاديّة.

فطعامهم - وإن كان بسيطًا - يكون لذيذًا على النفس، ومجالستهم راحة للقلب، وكلماتهم تترك أثرًا باطنيًّا في السامع. ومن هنا جاء سرّ السحر الروحيّ في شعر حافظ الشيرازي أو جلال الدين الرومي، حيث أضفى هؤلاء العارفون على

كلماتهم روحًا نورانيّة جعلتها حيّة، تنطق بالغيوب وتخاطب القلوب، حتى لُقِّب حافظ بـ«لسان الغيب» لأنّ شعره يخاطب باطن الإنسان قبل ظاهره.

ولو لم يطّلع الإنسان على تجارب الباحث الياباني ماسارو إيموتو في تأثير الكلمات والمعاني على بلّورات الماء، لربّما استغرب هذا الكلام، ولكنّ تلك التجارب أثبتت علميًّا أنّ الكلمات المكتوبة والمسموعة تحمل طاقة دقيقة قادرة على التأثير في تركيب الماء، وفي البلّورات المتشكّلة منه. وهذا يؤكّد ما ذهب إليه أهل العرفان منذ قرون طويلة: أن للمعاني أثرًا حقيقيًّا في العالم المادّي، وأنّ النور الباطنيّ إذا تجلّى في الكلمة أو العمل، انعكس أثرُه في الوجود.

## أثر الترقّي العرفاني على القدرات المادّيّة والإبداع الإنساني

إنّ التقدّم العرفانيّ يترك أثرًا واضحًا على القدرات المادّيّة للإنسان وإبداعه العمليّ. فكما أنّ صحبةَ السالك العارف تُصبح محبّبة للناس، كذلك الأعمال التي تصدر عنه—من شعرٍ يكتبه، أو نصٍّ يصوغه، أو طعامٍ يطهى، أو بناءٍ يشيده، أو لوحةٍ يرسمها—تكتسب شيئًا من الجاذبيّة والأنس والقبول.

ومن الأمثلة على ذلك لوحة الابتسامة الغامضة (الموناليزا) التي رسمها ليوناردو دا فنشي. فقد حاول النقّاد والباحثون تفسير سرّ الجاذبيّة العجيبة في هذا العمل، فمنهم من نسبها إلى ملامح الوجه، ومنهم من قال إنّ السرّ في الظلال والألوان، غير أنّ الرأي الأقرب—في نظرنا—أنّ هذه الجاذبيّة تشبه جاذبيّة شعر حافظ أو جلال الدين الرومي؛ لأنّ من رسم اللوحة كان ذا روحٍ عرفانيّة، فصبغ عمله ببصمة باطنيّة أثّرت في القلوب. وفي القرآن الكريم يخبر الله تعالى أنّه جعل هذا

الكتاب "مباركًا". ومباركةُ الكلام تعني أنّ الكلمة اكتسبت شخصيّة روحيّة وطاقة عرفانيّة تميّزها عن الكلام العادي. فكلمة "الله" ليست مجرّد حروف (ألف - لام - لام - هاء)، بل هي بعد أن باركها الله صارت حقيقةً نورانيّة لها أثرٌ في النفس والروح.

ولهذا السبب إذا كرّر الإنسان الذكر «لا إله إلا الله» ألف مرّة، شعر ببركةٍ خاصّة تتدفّق في قلبه، بينما لو كرّر ترجمتها: "ليس هناك إله إلا الله الواحد" ألف مرّة، لم يشعر بالأثر نفسه، بل قد يعتريه الملل. فالمريد الصادق قد تجري الدموع من عينيه مع بضع مئات من التكرار، أو يشعر بثِقَلٍ لذيذ ونعاسٍ روحانيّ يدلّ على دخول البركة في كيانه.

ويقول تعالى في الآية (21) من سورة الحشر:

**"لَوْ أَنْزَلْنَا هٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ**

يَتَفَكَّرُونَ"

وليس معنى الآية أنّ وضع المصحف على صخرةٍ يفتّتها انفجارًا، بل إنّ المقصود أنّ الحقيقة الروحيّة للقرآن أعظم من الحقيقة الروحيّة للجبل، حتى إنّ الجبل—لو أدرك هذه الحقيقة—لخشع وتصدّع هيبةً من نور الله.

إنّ أذكارَ الطريقة المأثورة، والمستمدّة من القرآن الكريم، تحملُ كلُّ واحدةٍ منها طاقةً عرفانيّةً خاصّة، وتؤدّى في مراحل معيّنة ولغاياتٍ محدّدة. فإذا زِيد في عددها أو نُقِص، أو قُدِّم ذكرٌ على آخر أو أُخِّر، لم يتحقّق الأثر الروحيّ المطلوب في المريد، بل قد تظهر أحيانًا آثارٌ سلبيّة أو عوائق تُبطِئ سيرَه العرفانيّ.

وحين تُؤَدّى هذه الأذكار بحضورٍ قلبيّ، وتوجّهٍ عميق، ويقظةٍ ذهنيّة، تُنتج في داخل الإنسان درجةً عالية من التركيز الفكريّ، يستطيع كلّ من جرّبها أن يشعر بها بوضوح،

ويُدرك أثرها في صفاء الذهن واتّقاد القلب.

وإنّ أفضلَ طريقةٍ لفتح أبواب الإبداع والابتكار، وحلّ المشكلات العمليّة والمهنيّة، أن ينهض الإنسان في جوْفِ الليل، حين يسكن الخلق وتعمّ السكينة، فيتوضّأ ويتوجّه إلى ذكر الله تعالى، ويسأله أن يفتح قلبه، ويملأه بنور العلم والمعرفة والحكمة.

وبعد هذا البيان، قد يتساءل المرء:

هل يعني هذا أنّ الفنَّ المؤثّر لا يصدر إلا عن أشخاصٍ عارفين، ذوي قوّةٍ باطنيّة، وأصحاب هِمَمٍ نورانيّة إيجابيّة؟

والجواب: لا.

فإنّ الفنَّ المؤثّر إنما ينتج عن أولئك الذين يملكون في عالم العرفان أو الميتافيزيقا قابليّةً باطنيّة، وسِعةً روحيّة، وهمّةً

داخليّة، وليس شرطًا أن يكونوا «عارفين» بالمعنى الاصطلاحيّ للكلمة.

ويُقسَّم هذا الفنُّ إلى نوعين رئيسيَّين:

1) الفنُّ النورانيّ (وهو ما يُسمّيه الناس بالطاقة الإيجابيّة)

2) الفنُّ الظلمانيّ (وهو ما يُسمّيه الناس بالطاقة السلبيّة)

وكلا النوعين—النورانيّ والظلمانيّ—إذا واجههما الإنسان، فإنّهما يُحدثان فيه اهتزازًا داخليًّا وتأثيرًا مباشرًا، لأنّ الفنَّ في جوهره نقلٌ لاهتزاز الروح، أو ارتعاش النفس، من قلب الفنان إلى قلب المتلقّي.

وقد أثبت علمُ نفس الموسيقى وعلمُ نفس الفنّ أنّ العمل الفنّي يحمل «ذبذبةً عاطفيّة» (vibration) أو تردّدًا وجدانيًّا تنتقل إلى المتلقّي عن طريق الخلايا العصبيّة المرآتيّة

(mirror neurons)

، فيتأثّر بها شعوريًّا ولا شعوريًّا.

**أوّلًا: خصائص الفنّ النوراني**

الفنّ النوراني يُحدِث فيك المشاعر الآتية:

الطمأنينة، حبّ الحياة، المحبّة لله وللناس، الفرح والانشراح، الانبساط الروحي، الثقة بالنفس، الاطمئنان إلى المستقبل والإحساس بالطهارة والرحمة

وهذا اللون من الفنّ هو من جنس نور الله، كما يصرّح بذلك القرآن الكريم.

**"اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ" (النور: 35)**

أي أنّ أصل الجمال، والإلهام، والابتكار، واللمعة الفنيّة— إنما هو من نور الله.

وقال سبحانه:

**"أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ"**

(الزمر: 22)

فالإنسان النورانيّ هو الذي انفتح صدره، وارتبط روحه بنور ربّه، فتفيض أنواره في كلامه وفنّه وأعماله.

**ثانيًا: خصائص الفنّ الظلماني**

الفنّ الظلماني يبثّ في النفس:

التوتر، الاكتئاب، الخوف، القسوة، لذّة مشوبة بالذنب، اليأس، ضعف الثقة والأفكار السوداويّة

وقد أوضح القرآن أنّ الظلمة ليست وصفًا مجازيًّا، بل حقيقةٌ باطنيّة تُظلِم بها الأعمال.

وقد وصف الله تعالى الظلمةَ الروحيّة وصفًا بليغًا في قوله سبحانه:

**"وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً...**

أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ"

(النور: 39–40)

فأعمال أهل الظلمة—وما ينتجونه من فنّ—هي ظلمات متراكبة، بلا روح، ولا عمق، ولا بركة.

## سرنوشت (مصير) أصحاب الفنّ الظلماني

غالبًا ما يعيش الفنّانون الظلمانيّون حياة مضطربة، ومن أبرز ما يقع لهم:

الاكتئاب المزمن، اللجوء إلى المخدّرات، فقدان العلاقات المستقرّة، الانهيار النفسي ووصول بعضهم إلى الانتحار

وقالت الآية:

" وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا"

(طه: 124)

فالابتعاد عن النور الإلهيّ يجعل حياة الإنسان ضيّقة مضطربة— لو امتلك ملايين الدولارات.

آثارُ مثلِ هؤلاءِ الفنّانين تكونُ في العادةِ بلا قيمةٍ في حياتهم؛ فالناسُ لا يكونون مستعدّين لدفع مبلغٍ يسيرٍ لقاءَها. ولكن بعد موتهم تُباعُ أعمالُهم بملايين الدولارات — من غيرِ أن يكون فيها نورٌ أو بركة.

## سرنوشت (مصير) أصحاب الفنّ النوراني

أمّا الفنّانون النورانيّون فهم:

محبوبون في المجتمع، محترَمون في حياتهم، تنتشر أعمالهم ببركةٍ وتقدير، لهم تلاميذ ومريدون ويبقى ذكرهم طيّباً بعد الموت

القرآن يصفهم:

" **أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ" (الرعد: 28)**

فروحهم مطمئنّة، ونفوسهم هادئة، وهذا الانسجام الداخلي ينعكس في أعمالهم وفنونهم.

وقال تعالى:

" **وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَٰنُ وُدًّا" (مريم: 96)**

أي إنّ الله يجعل محبّة هؤلاء في قلوب الناس، ويُورِّث أعمالهم قبولًا عبر الزمان.

**النتيجة: رؤية علميّة–عرفانيّة–قرآنيّة**

1. الفنّ هو انعكاس مباشر لحالة الروح والباطن.
2. الفنّ النوراني والظلماني كلاهما مؤثّر، لكن أحدهما يرفع الروح، والآخر يهبط بها.
3. النور والظلمة حقائق قرآنيّة تظهر آثارُهما في العمل الفني.

4. معيار قيمة الفنّ هو «نوره» و«بركته»، لا سعره ولا شهرته.

5. قوانين النور والبركة في القرآن تؤكّد تمامًا هذه الرؤية.

# الحركة نحو الله بالتخطيط العلمي والمنهجي الحديث

نقدّم لكم هنا طريقة جديدة مبنيّة على التخطيط العلمي الحديث للتقرّب إلى الله تعالى. فكثير من الناس يجتهدون في سبيل الله سنواتٍ طويلة، ولكنّ جهودهم لا تؤتي ثمارها المرجوّة لأنّها جهود متفرّقة وغير منظّمة، تمامًا كأولئك الذين يتّبعون أنظمة حمية غذائية بلا تخطيط أو يدرسون بلا برنامج واضح.

ولا شكّ أنّكم رأيتم في العائلة أشخاصًا يقرّرون بين الحين والآخر اتّباع حميات غريبة للإنقاص السريع للوزن، ولكن ما دامت تلك المحاولات ناتجة عن لحظة انفعال أو رغبة مؤقّتة، ولا تعتمد على برنامجٍ طويل المدى ومنظّم، فإنّ نتيجتها لا تكون إلّا الجوع، والتعب، وتوتّر الأعصاب، دون فائدة حقيقية.

ونحمد الله أنّنا نعيش في القرن الحادي والعشرين، حيث يمكننا الاستفادة من أحدث التقدّمات العلمية والرياضية في معرفة الله، ومن آخر الأساليب المنهجية والنظامية في السير إليه سبحانه.

## مبدأ التخطيط العلمي للمشاريع والتقرّب إلى الله

في الطرق العلمية المنهجية لتنفيذ أيّ مشروع، لابدّ من المرور بمراحل محدّدة. فإذا أردتَ بناء سفينة مثلًا، وجب عليك أولًا رسم مخطّطها الهندسي، ثم تحديد المكان الذي ستُجمَّع فيه، ثم توثيق الأعمال المختلفة:

قطع صفائح الهيكل، ولحامها، وتركيب الأنابيب، والمحركات، وغير ذلك.

ثم تُحدَّد علاقات الأعمال بعضها ببعض، والتقدّم والتأخّر، ويُعطى كلّ عمل عنوانًا ورقمًا، ثم تُرسَم مخطّطات التنفيذ، والجداول الزمنية، وغير ذلك.

أمّا إذا لم يُتَّبع هذا المنهج، فحتى لو كان عندك آلاف العمال، وآلاف الأطنان من الحديد والمحركات والمعدّات، فلن تنتج إلّا مشهدًا عبثيًّا يضيع فيه الملايين من الأموال، وعشرات آلاف الساعات من العمل، دون بناء سفينة واحدة!

وهكذا الأمر تمامًا في الإيمان والتقرّب إلى الله. فإذا نظرنا إلى هذا الطريق كمشروعٍ حقيقي، وجب وضع عنوان للمشروع، وتحديد أهدافه، ووصف أعماله الأساسية والفرعية، وبيان الزمن المطلوب لكلّ عمل، والمدة الإجمالية لتنفيذ المشروع.

**الخطوة الأولى: إنشاء "دفتر التخطيط العرفاني"**

وقبلَ كلِّ شيء، عليك أن تشتري دفترًا وتسمّيه: «دفترَ التخطيطِ العرفاني».

ودفترٌ من مئةِ صفحةٍ يكفي في البداية.

وليكن الجزءُ الأيمنُ من الدفتر للتخطيط، والجزءُ الأيسرُ لمعارفِكَ العرفانية.

وفي قسم المعارفِكَ العرفانية، دوّن كلّ ما يؤثّر في تقدّمك الروحي:

من آيات قرآنية، وأشعار، وأمثال عرفانية، وكلّ ما له أثر في ارتقائك.

واقْرَأ هذه الصفحات بين الحين والآخر حتى تحفظها وتترسّخ في قلبك، بحيث تتمكّن لاحقًا من دعوة الآخرين إلى الطريق نفسه الذي سلكته أنت.

بعد كتابة اسم الله تعالى، سجّل تاريخ اليوم، واكتب أنّك في هذا اليوم تبدأ مشروع تقدّمك العرفاني.

ثمّ ابدأ في الجزء الأيمن ـــ قسم التخطيط ـــ بتسجيل

وضعك الحالي كما يلي:

١ ـ العادات السيّئة

اكتب كلّ عادة سيّئة لديك، وكلّ ما تشعر أنّه يبعدك عن الله، مع سطرين من الشرح.

وهذه تشمل:

الذنوب الكبيرة والصغيرة، الغيبة، التدخين والمخدرات، كثرة النوم، كثرة الأكل، الرشوة، وغيرها.

فمثلًا: عند كتابتك عادة "كثرة الأكل"، اكتب سببها، ثمّ اذكر الحلول الممكنة للتخفيف منها.

ويمكن الاستفادة من المشورة مع أشخاص مؤمنين موثوقين لمعرفة خبراتهم في التغلّب على هذه العادات.

بعض العادات تحتاج برنامجًا إصلاحيًّا على مراحل، إذ قد يكون تركها دفعةً واحدة أمرًا صعبًا. وفي هذه الحالة، يجب

تحديد المراحل مع ذكر التاريخ والزمن، وإلّا فلن تتحقق النتيجة المطلوبة.

**تشبيه عرفاني: الإقلاع بالطائرة**

التقدّم في عالم العرفان يشبه إقلاع طائرة ذات محرّكين.

فكما يجب تسوية وتمهيد مدرج الإقلاع قبل تحريك الطائرة، وإلّا علقت عجلاتها في الحفر وانقلبت، كذلك يجب على السالك أن يُنقّي نفسه من العادات السيئة قبل أن يبدأ في الارتقاء الروحي.

فبعض الناس بدل أن يُصلحوا مدرج الإقلاع المليء بالحفر (أي: العادات السيئة)، يبدأون بزيادة قوّة المحركات (أي: الإكثار من العبادات).

وحين تنطلق الطائرة بسرعة كبيرة، تصطدم بأول حفرة فتتحطّم قبل أن تقلع!

وكذلك السالك الذي يضاعف العبادات دون إصلاح

النفس، فإنّه يتعثّر سريعًا وينهار قبل أن يصل إلى أيّ درجة عرفانية.

٢- العادات الحسنة

في هذا القسم، اذكر العادات الجيّدة والصالحة التي ترضي الله تعالى، والتي يمكنك الالتزام بها عمليًا، مثل: الصدق، والكرم، وصِلَة الأرحام، ومساعدة المحتاجين، ودعوة الناس إلى الخير، وتسهيل شؤون المراجعين، وغير ذلك.

ولكلّ واحدة من هذه العادات، سجّل الأعمال التي يمكنك القيام بها لتعزيز هذه العادة، أو لزيادة تقدّمك في ممارستها.

٣- الأمور العبادية

دوّن في هذا القسم وضعك الحالي فيما يخصّ العبادات. فإن كنتَ لا تصلّي، أو لا تصوم، أو تفرّط في بعض

العبادات، فاذكر كل ذلك بوضوح، ثم تعامل مع هذا الجانب كما تتعامل مع مشروعٍ لإصلاح سفينة:

اكتب ما يجب فعله لإصلاح كلّ جزء، والزمن المطلوب لكلّ خطوة، حتى تعود العبادات إلى موضعها الصحيح في حياتك.

٤- الأشخاص الذين تُعاشِرهم

اكتب أسماء الأشخاص الذين تعاشرهم، ممّن يزورون منزلك أو تزور منازلهم، ثم قيّمهم وفق المعايير الآتية:

أولًا: أصحاب السلوكيات المنحرفة

الذين يمارسون السرقة، أو الرشوة، أو الربا، أو الأعمال المخالفة، هؤلاء أشخاص عديمو البركة.

وإن أكلتَ في بيوتهم أو خالطتهم مخالطة عائلية وثيقة، فلن تبلغ شيئًا في سيرك العرفاني، مهما اجتهدت.

وقد أوضحنا سابقًا الأسباب الروحية لهذا الأمر.

ويُقال: إنّ من الأمور التي تُذهِبُ البركةَ عن النفس والمال: الخيانة، والسرقة، وشرب الخمر، والزنا.

ثانيًا: أصحاب النحس الملازم والمشكلات المتتابعة

الذين تلاحقهم المصائب من كلّ جانب، ويعيشون في شكوى وبكاء دائمين، هؤلاء أيضًا أشخاص عديمو البركة.

ومن الأفضل إبعادهم عن دائرة الصداقة في المرحلة الأولى من سلوكك الروحي.

وفي المراحل المتقدّمة، حين تزداد بركتك بإذن الله، قد تتمكّن من مساعدتهم؛ أمّا في البداية فصحبتهم تُضيّع ثمار جهدك.

ثالثًا: أصحاب الوجوه المكفهرّة والعيون الجامدة

الذين تبدو وجوههم كادِرة (وليس المقصود لون البشرة)،

وعيونهم جافّة بلا رِقّة، وقساة القلوب، متكبّرون يرون أنفسهم فوق الناس، هؤلاء أيضًا أشخاص عديمو البركة، ولا يصلحون للمخالطة.

وغالبًا ما ينفر الأطفال منهم، وتهاجمهم بعض الحيوانات كالكلاب.

رابعًا: أصحاب الوجوه المنيرة والطباع المتواضعة

الذين يتميّزون بالطيبة والتواضع، ووجوههم مشرقة (لا كادِرة)، وعيونهم رطبة رقيقة، هؤلاء هم أهل البركة.

يحبّهم الأطفال، وترقّ لهم الحيوانات.

فإن كانت مخالطتهم تُنمّي فيك الرحمة، والرغبة في العمل، والإيمان بالله، والاستقامة، فهم مؤمنون ـ حتّى لو لم يَظْهَر ذلك عليهم. وأمّا الذين تُورِثُ صحبتُهم فيك اليأسَ والفتورَ والبعدَ عن الله والانحراف، فهم أهلُ سوءٍ ـ حتّى لو ظهروا بمظهر المتديّنين.

**تعديل دائرة العلاقات عند الحاجة**

إن لاحظت أنّ جميع من تعاشرهم يقعون في التقييم غير المناسب، فأنشئ قائمة جديدة بالأشخاص الصالحين الذين يمكنك التعرّف إليهم أو التقرب منهم، ثم خطّط تدريجيًّا لاستبدال الأصحاب الحاليين بهم.

وبما أنّ نيّتك في ذلك هي التقرب إلى الله تعالى، فإنّك ستُوفّق بإذن الله.

وقد قال الله تعالى في الآية 144 من سورة النساء:

**"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا"**

٥ ـ الأشخاص الذين يمكنكم أن تكونوا سببًا في هدايتهم

إنّ من الأمور التي يشتدّ التأكيد عليها في طريق التقدّم العرفاني ـ ولكن للأسف لا يُلتفت إليها كثيرًا ـ إرشاد

الآخرين ودلّهم على طريق الله. فالإيمان كباقة من الزهر العطر، تُطيّب حياة الإنسان، وتحوّله من موجودٍ يائسٍ خاوٍ من المعنى والمحبة، إلى إنسان مفعم بالحيوية، ممتلئ بالحبّ والطمأنينة، واثقٍ بعالم الغيب وبالحياة بعد الموت، ومتذوّق للذّة الإيمان الحقّ.

ولهذا، فإنّ من وجد هذا الطريق، يكون لزامًا عليه ـ شكرًا لله على هذه النعمة العظمى ـ أن يُشرك غيره فيها، وأن يُهدي هذه الباقة العطرة إلى أقاربه وأصدقائه.

يجب على المؤمن أن يكون كلّ يوم من أيامه خطوة جديدة في طريق التقرّب إلى الله، وأن يُسهِم في ارتقاء غيره كذلك.

ويقول سيدنا عليّ (كرّم الله وجهه):

**«مَن تَسَاوَتْ يَوْمَاهُ فَهُوَ مَغْبُون.»**

والمعنى: من مرّ عليه يومٌ جديد من غير زيادةٍ في العلم أو

العمل أو القُرب من الله، فهو خاسر، لأنّ عمره يَفنى بلا نفع.

والإرشاد من أعظم الأعمال، وله أجر يفوق مئات المرّات أجر الأعمال العبادية. فمن كان سبباً في هداية إنسانٍ غارقٍ في الذنوب، شاركَه في جميع أعمال الخير التي يقوم بها بعدها، فينال من الأجر والبركة ما لا يُقدَّر بثمن.

وكما أنّ أعظم ما يفرح الأمّ هو عودة ابنها الهارب إلى حضنها، فكذلك يكون أعظم رضا الله عندما يعود عبدٌ عاصٍ إلى طريقه وإلى عنايته.

ولهذا، اكتبوا في دفاتركم قائمة بالأشخاص الذين يمكنكم أن تكونوا وسيلةً لهدايتهم، واعمَلوا على ذلك باستمرار.

وقد قال رسول الله ﷺ لسيدنا عليّ (كرّم الله وجهه):

«لَئِن يَهدِيَ اللهُ بِكَ رَجُلًا واحِدًا، خَيرٌ لَكَ مِن حُمرِ النَّعَم.»

فإذا كان هذا الفضل العظيم لعليٍّ (كرّم الله وجهه)، فكيف يكون حالُنا نحن، ونحن لا نساوي أمام مقامه إلّا قطرة في بحر؟

ولكي ننجح في الإرشاد، يجب أن نجتهد ما استطعنا. ويمكن البدء بأساليب بسيطة، مثل:

التحدّث مع الآخرين عمّا قرأتموه،

إرسال رابط الحلقة الأولى من سلسلة «نحو النور» ،

شراء كتابٍ وإهداؤه،

إهداء فلاش يحوي القرآن الكريم،

أو ملفات نافعة أخرى.

أيّها الأعزّاء، ينبغي أن ننتبه إلى أنّه لا يُستحبّ أن نُرشِد الآخرين إلى أمرٍ لا نفعله نحن أنفسنا. قال الله تعالى في الآية 2 من سورة الصفّ:

**"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ"**

فإذا أردنا لإرشادنا أن يكون فعّالًا، وجب علينا إصلاح أنفسنا أوّلًا. ويقول الشيخ عبدالرحمن الجامي:

ذاتُ نـايلَتها مِنَ المَولى العَطـا
هَل تُعـطي الخَيرَ وهيَ مُستَعطِيَة؟
والغَيمُ إن لَم يَمتلِئ بالماءِ يومًا
فَهَل يُرجى لَهُ أن يُمطِرَ السَّماء؟

إنّ كلامنا لا يصل إلى قلوب الناس إلّا عندما يجعلنا الله أهلًا لأجر الهداية. فهناك من يحاولون هداية الناس بالمنطق والأدلّة العلمية دون أن يُحرزوا تقدّمًا، بينما نجد آخرين من المتقدّمين في طريق العرفان، لا يملكون علمًا كبيرًا ولا يستخدمون خطابًا معقّدًا، ولكنّهم يجذبون الناس إلى الله كالمغناطيس، دون أن يتكلّموا كثيرًا.

وهؤلاء الأشخاص قد أحبّهم الله بسبب عبادتهم وإخلاصهم، فجعلهم وسائط للهداية، وفتح من قلوبهم ينابيع نورٍ وحكمة.

قال الله تعالى في الآية 58 من سورة الأعراف:

**"وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ ۖ وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا"**

**عند الإرشاد: تصحيح النيّة والاستمداد من الله**

عند قيامكم بالإرشاد، يجب أن تكون النيّة دعوة الناس إلى طريق الله، لا أن تُظهِروا لهم مدى قربكم من الله أو ما تظنّونه من مقامٍ روحانيّ.

ولذلك ينبغي أن تكونوا على وضوء، وأن تقولوا في قلوبكم:

**«اللّٰهُمَّ إنّي عبدك الضعيف، أسألك أن تأذن لي بأن أدعو عبادك إلى طريقك.»**

وقد قال الله تعالى في الآيات 25-28 من سورة طه، على لسان موسى عليه السلام:

**"قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي (25) وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي (26) وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي (27) يَفْقَهُوا قَوْلِي (28)"**

## قاعدة مهمّة في الإرشاد

من أهمّ قواعد الإرشاد أنّه لا يجوز قطعُ حبل هداية شخصٍ قبل وصل حبل هدايتكم إليه.

فلا ينبغي مثلًا أن تذهب إلى مسيحيّ لتحاول إقناعه أوّلًا بأنّ الإنجيل محرّف، لأنّ ذلك ربما يقطع عنه اعتقاده الحالي، فيبقى بلا إيمان، فإن وقع في معصية تحملتم أنتم وزرها. والأولى أن تُثبِت له صدق القرآن، فإذا آمن بالقرآن، ترك كلّ ما سواه من تلقاء نفسه.

٦ ـ الأحلام والكرامات (الخواطر الخارقة)

الأشخاص الذين يسيرون في الطريق الإلهي قد يرون أحلامًا، أو يعيشون أحداثًا خارقة للعادة، يكون تدوينها والرجوع إليها سببًا في تقوية الإيمان.

دوّنوا هذه الأمور في دفاتركم، ولكن لا تذكروها للناس (إلا في حالات إرشادية نادرة)، وذلك لسببين:

1. لأنّ سردها قد يُشعِرُ النفسَ بنزعة الأوليائيّة، فيقود إلى الغرور.

2. لأنّ الناس قد يحسدونكم على هذه الأحوال، فيتسبّب ذلك بزوال البركة من طريقكم.

**مكان العبادة: أهميّة تخصيص موضعٍ مناسب**

كما أنّ أيّ مشروع يحتاج إلى مكانٍ مناسب، فكذلك أمور العبادة تحتاج إلى مكانٍ مهيّأ.

فإن أمكن، خصّصوا غرفة أو زاوية نظيفة، هادئة، بعيدة

عن الضوضاء، مجهّزة بإنارة جيّدة، وسجّادة أو بساط مناسب، ووسيلة تدفئة تمنع المرض إذا غلبكم النوم.

ووضع مبخرة أو نباتٍ صغير يضفي جوًّا جميلًا ويساعد على الروحانية.

أمّا وضع الفُرُش والأغطية داخل المكان فليس مناسبًا، لأن منظر الفراش يدعو إلى النوم لا إلى العبادة.

وحاولوا عدم تغيير مكان صلاتكم وسجّادتكم، واجعلوا سجّادتكم ثابتة في مكانٍ واحد. ولا تغسلوها كثيرًا.

ويُستحبّ غسل القدمين قبل العبادة، والمحافظة على نظافة الجسد، فالرائحة الكريهة للقدمين أو للجسد من أعظم موانع التقدّم العرفاني.

كذلك يفضّل بعض الناس تخصيص ثوبٍ أبيض خاص للعبادة، ولا يُغسَل إلا عند الحاجة، مثل السجادة.

التسبيح أيضًا من الأدوات المهمّة، ويُستحبّ استعمال مسبحة واحدة ثابتة في الذكر وعدم تغييرها.

تنظيم الوقت: نصف ساعة يومياً

للشروع، يجب تخصيص نصف ساعة على الأقل يوميًا.

ولا تقولوا إن الوقت لا يسمح؛ فحتى أكثر الناس انشغالًا يستطيعون انتزاع نصف ساعة من وقت النوم.

فإذا كنتم لا تستطيعون تقديم نصف ساعة يومية في هذا السبيل، فكيف تقنعون أنفسكم بأنكم تبذلون جهدًا فيه؟

حتى لو كان الإنسان ضعيف الإيمان، فإذا كان يؤمن بنسبة 1% فقط بوجود الغيب والحياة الآخرة، فإنّ تخصيص نصف ساعة للبحث في هذا الأمر يستحقّ المحاولة.

ويمكن البدء بتطبيق النقاط المذكورة في هذا الدرس.

## مدّة الأربعين يومًا

أقلّ مدة للحصول على نتائج ملموسة هي أربعون يومًا متواصلة (كلّ يوم نصف ساعة).

وفي كلّ أسبوع، اكتبوا برنامجكم اليومي، وسجّلوا ما أنجزتموه، ودوّنوا أحلامكم ومكاشفاتكم دون أن تحدّثوا أحدًا بها.

وإذا وجدتم خلال الطريق فتورًا أو بطئًا في التقدّم، فابحثوا عن السبب، واكتبوا الحلول المقترحة في دفاتركم.

فإن ازداد شغفكم بالله خلال هذه الفترة، فزيّدوا الوقت المخصّص للعبادة.

إنّ التوبة الصادقة، و أخذ الطريقة، و أداء الصلاة في أوقاتها، و المحافظة على الوضوء الدائم، و صيام يومَي الاثنين والخميس من كلّ أسبوع، هي كلّها أعمالٌ تُعجِّل تقدّمكم العرفاني بصورةٍ ملموسة.

وكما أنّ لاعب كمال الأجسام، حين يرى تحسّنًا في بنيته

أمام المرآة، يخصّص وقتًا أطول للتمرين يومًا بعد يوم، كذلك السائر في طريق العرفان: فكلّما قوي إيمانه وظهرت عليه تجلّيات السلوك الروحي، زادت رغبته في تخصيص وقتٍ أكبر للذكر والعبادة والسير والسلوك.

وبعض السالكين يخصّصون من أربع إلى ست ساعات فقط للنوم في كلّ يوم، ويقضون بقيّة الوقت في الذكر والعبادة والمجاهدة الروحية.

غير أنّ هذا المستوى لا يُطلَب من المبتدئ، ولا يلزمكم في بداية الطريق.

وإنّ ساعةً واحدة قبل أذان الفجر إلى طلوع الشمس هي من أفضل الأوقات لتزكية النفس، وطلب الاستغفار، والتقرّب إلى الله تعالى؛ فهي ساعة صفاء، وخشوع، وفتحٍ روحيٍّ لمن داوم عليها.

إنّ مشروع السير نحو الله تعالى مشروعٌ دائم يستمرّ طوال الحياة. ولذلك ينبغي تجنّب الأعمال المتعجّلة والانفعالية، والاستعداد بدلًا من ذلك لرحلةٍ طويلةٍ مستمرة. وفي هذا الطريق نمرّ بأحوالٍ روحيّة يسمّيها أهل العرفان القبض والبسط:

فأحيانًا يشتعل في قلوبنا نور الإيمان والشوق إلى الله، وهذا هو البسط؛

وأحيانًا نشعر بانخفاضٍ في الطاقة الروحية، وهذا هو القبض.

ولا ينبغي أن نتعجّب؛ فهذه ظاهرة طبيعية.

فحركة المؤمن نحو الله تشبه مسارًا متذبذبًا صاعدًا. المهمّ هو أنّ الاتجاه العام صعوديّ. فإن كان مستوى إيمانك اليوم أعلى من الشهر الماضي، فأنت تسير سيرًا صحيحًا، وإن لم يكن كذلك، فراجع أعمالك واقرأ التعليمات السابقة من جديد.

### تشبيه القبض والبسط بمبارزة الملاكمة

لتقريب المفهوم، تصوّر نفسك في حلبة ملاكمة في مواجهة "النفس الشيطانية".

في البداية يكون خصمك قويًّا، فكلّما ضربته، تراجع إلى الدفاع، ثمّ يعود فيضربك بالقدر نفسه.

في أول الطريق، قد تضربه خمس ضربات فيردّ عليك بخمس.

ثمّ بعد فترة، تضربه ستّ ضربات فيردّ بأربع.

وفي مرحلة متقدمة، قد تضربه تسع ضربات فلا يردّ إلا بواحدة، ولكن هذه الضربة الواحدة قد تحمل طاقةَ تسع ضربات!

وإن غفلتَ أو أنزلتَ حارسك لحظة، قد يطرَحك أرضًا.

### تشبيه الحالة الروحية بسطل ماء مثقوب

يمكن تشبيه الحالة العرفانية للإنسان بـ دلو ماء فيه ثقوب.

الثقوب هي منافذ خروج البركة: الذنوب، والمال الحرام، والطعام في بيوتٍ عديمة البركة، وغير ذلك.

أمّا الماء الذي يُصبّ في الدلو فهو البركة المتولّدة من الطاعات والأعمال الصالحة.

فإذا لم نسدّ الثقوب، فكلّما صببنا ماءً في الدلو تسرّب منه، ولن يرتفع مستوى الماء.

وبالتالي لن نشعر بأيّ تحوّل روحي.

فإن لاحظتَ أنّ مستوى الماء قد انخفض، فذلك لأحد سببين:

1. إمّا أنّك قلّلت من إدخال الماء — أي من العبادات والأعمال الصالحة،

2. أو أنّ في الدلو ثقوبًا خفيّة لم تنتبه إليها بعد.

وحين يمتلئ الدلو الأوّل تمامًا، تبلغ أولى درجات الولاية.

ولا تقلق، فالدلاء يمكن أن تمتلئ واحدًا بعد الآخر، ولا حدّ للتقدّم في هذا الطريق.

**الحياة الروحية كالدوران في حلبة سباق**

التقدّم العرفاني يشبه سيارة سباق تدور في مضمار دائري.

فكلّما أكملت السيارة دورةً كاملة ووصلت إلى نقطة البداية، يُلوَّح لها بالعلم إعلانًا لانتهاء دورة وبداية أخرى.

لكن خلال الدوران لا تلوَّح لها الأعلام في كل نقطة.

وهكذا السالك:

لا ينبغي أن يتوقّع علاماتٍ روحية في كلّ لحظة.

فالعلامات لا تظهر إلا عند انتهاء مرحلة كاملة (امتلاء الدلو)، إيذانًا ببدء مرحلة جديدة.

**العقل... أكبر مانع أمام ارتفاع الاهتزازات الروحية**

من أعظم الموانع أمام زيادة الاهتزاز الروحي العقل عندما يسيطر عليه الشيطان.

فالبركة أو الطاقة الروحية تزيد من اهتزازاتك الباطنية،

ولكن الشيطان يُلقي من خلال الذهن "حبالًا" في مروحة هذه الاهتزازات ليمنع ارتفاع سرعتها.

ولذلك، لزيادة اهتزازاتك الروحية، ينبغي تهدئة العقل.

ولا شيء يقطع تلك الحبال مثل سيف "لا إله إلا الله".

وقد سُئل سيدنا علي (كرّم الله وجهه):

كيف بلغتَ ما بلغتَ من المقام؟

فقال:

**«جلستُ على باب قلبي فلم أَدَع فيه لغير الله دخولًا.»**

إنّ من أكبر البلايا في طريق التقدّم العرفاني، إحساسَ الإنسان بروحانيّته. فالسالك يجب أن يعلم أنّه مهما بلغ من درجة، فإنّما هو بفضل الله تعالى وعنايته، لا بقوّته ولا بمقامه الشخصي.

وقد رُوي عن النبي داود عليه السلام أنّه قال: «يا ربّ، كيف أطلبك حتى أجدك؟»

فقال الله تعالى له: «يا داود، في أوّل خطوة خطوتَها نحوي تركتني؛ لأنّك رأيت الطلب منك، لا منّي، والحقيقة أنّي أنا الذي أطلبك.»

وقد عبّر العلّامة فريد الدين العطار عن هذا المعنى في أبياته المشهورة:

قُلتُ: بالقلبِ والنَّفْسِ أفْنَيْتُ عُمري
وما كانَ لي من غالٍ إلّا بَذَلْتُهُ لَكَ دَهْري

فقالَ: مَنْ أنتَ لِتَفْعَلَ أو تَمْنَعَ؟
إنّي أنا الّذي جَعَلْتُكَ في الشَّوْقِ مُضْطَرّا

**لمحة عن قصة الشيخ صنعان – كما رواها العطار**

لعلّ بعضكم سمع بقصة الشيخ صنعان التي رواها فريد الدين العطار.

كان الشيخ صنعان شيخًا كبيرًا، له أكثر من أربعمائة

مريد. رأى في المنام أنّه يتوجّه إلى «الروم» وتصيبه هناك حادثة. حذّره المعبّرون، لكنه انطلق مع مريديه.

وفي بلاد الروم وقع بصره على فتاةٍ نصرانية جميلة، فنسي مقامات العبادة وماضيه كلّه، وابتُلي بعشقٍ دنيوي غلب عليه.

اشترطت الفتاة لقبول الشيخ أربعة شروط، كان من بينها: السجود للنار، ورعاية الخنازير.

وبسبب غلبة العشق، قبل الشيخ الشروط، وسقط من مقامه الظاهر سقوطًا شديدًا، حتى انتهى به الأمر يخدم في حظيرة الخنازير، فتعجّب الناس من ذلك الانهيار العظيم.

عاد المريدون إلى مكة، وبكوا ودعوا له، فاستجاب الله دعاءهم، وشرح صدر الفتاة للنور والإيمان، فاهتدت، وبهدايتها اهتدى الشيخ، ونجا من السقوط الروحي.

إنّ هذه القصة تُظهر أنّ الغرور الروحي خطرٌ حتى على كبار

السالكين، وأنّ «حجاب الروحانية» – وهو رؤية الإنسان لنفسه ومقامه – قد يكون أشدّ الحجب حيلولةً بينه وبين الحقيقة.

وسقوط الشيخ صنعان لم يكن إلا تطهيرًا من هذا الغرور، أمّا توبته وعودته فشاهدةٌ على أنّ فيض الله أعظم من معصية العباد، ورحمته أوسع من سقوطهم.

### العودة إلى موضوع دفتر التخطيط العرفاني

وبالعودة إلى ما كنّا فيه:

لأنّ هذا الدفتر هو دفتر تعلّمٍ عرفاني أيضًا، فمن الضروري أن تخصّصوا قسمه الأخير للحِكَم والمعارف النافعة.

دوّنوا فيه الآيات القرآنية، والأشعار، والأمثال العرفانية، وكلّ ما تلمسون أنّه يقوّي مسيرتكم الروحية.

وأعيدوا قراءته بين الحين والآخر حتى ترسخ هذه المعاني في القلب، بحيث تمكّنوا لاحقًا من دعوة الآخرين إلى الطريق

نفسه الذي سلكتموه، طريق النور والحقيقة.

## صفات المؤمن صاحب البصيرة

المؤمن ينبغي أن يكون ممتلئًا بالنور، والمعرفة، والإرشاد، والنصيحة، والجمال الروحي، وأن يرى الأمور بنور الله.

وقد قال رسول الله ﷺ:

**«اتقوا فراسةَ المؤمنِ، فإنّه ينظر بنورِ الله.»**

أي: احذروا بصيرة المؤمن؛ فإنّ الله ينور قلبه فيرى الحقائق على حقيقتها.

# الطريقة والنور

أودُّ في هذا الموضع أن أوجّه كلمةً من القلب إلى أولئك الذين أنهكتهم رتابةُ الأيام، وأثقلتهم الحياةُ اليومية الخالية من الهدف، ومع ذلك لا يزالون يتشوّفون للسير في طريق النور والحقّ.

أخي الكريم، أختي الكريمة... سلامٌ من الله عليكم ورحمةٌ وبركات.

أعلم جيّدًا كم تتمنّون أن تقتربوا من الله أكثر فأكثر، وأعلم شدّة شوقكم لمعرفة عالم الباطن وأسراره ومعانيه. وأنتم، ما دمتم تُصغون لمثل هذه المعاني، وتُفرغون من أوقاتكم ما تجعلونه لخدمة الحقيقة والبحث عنها، فإنكم - في ميزان القرآن - من المجاهدين في سبيل الله، وقد تكفّل الله جلّ وعلا بقُربكم منه وهدايتكم إلى سُبُلِه.

يقول الله تعالى في الآية (69) من سورة العنكبوت:

**"وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا"**

أي: كلُّ من صدق في مجاهدته، وصحّت نيّته في طلب وجه الله، فتح الله له أبواب الطريق، وكشف له معالم الهداية، وأراه من أنواره ما يطمئنّ به قلبه.

وما أشدَّ خطورة أن يعيش الإنسان بلا طريقٍ واضح؛ فإنّه في هذه الحال يشبه أولئك الذين أنساهم اللهُ أنفسهم، فنسوا حقيقتهم ورسالتهم. هؤلاء قومٌ تائهون في دوّامة الحياة، يركضون من الصباح إلى المساء خلف أهدافٍ زائفة، وشهواتٍ عابرة، وتمضي أيّامهم وشهورهم كلمح البصر، ولا يبقى لهم من الحياة إلا روتينٌ مُتعِبٌ لا روح فيه ولا بركة.

إنهم أناسٌ يملأ قلوبَهم القلق، وتنهش أفئدتهم الهواجس، ويعتريهم الخوف والحيرة من دون سببٍ ظاهر. وكأنهم –

كما قال العارف أبو مدين الغوث في حكمته المشهورة -:

**«مَن فَقَدَ المُرشدَ ضَلَّ عن الطريق،**

**ومَن ضلَّ عن الطريق تاهَ في الظُّلمات.»**

فهؤلاء كقومٍ يتخبّطون في بحرٍ مظلمٍ هائج، لا يهتدون إلى برٍّ ولا ملجأ، ولا يجدون مرفأً يأوون إليه.

يقول الله تعالى في سورة الحشر (19):

**"وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ"**

أي: من أبعد اللهُ عن قلبه، وترك ذكره ومعرفته، ضاع عنه معنى ذاته، وفقد البوصلة التي تهديه، فلم يَعُد يدرك من هو، ولا إلى أين يسير.

وفي سورة النور يصوّر القرآن حال مَن ابتعد عن الله تصويرًا بديعًا يقطع نياط القلب؛ فهو كمن وقع في بحرٍ لُجّيٍّ عميق،

تغشاه الأمواج من فوقه أمواج، وتتكاثر عليه الظلمات، حتى إذا مدّ يده لم يكد يراها.

قال تعالى: "**ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ**"

ظلماتٌ متراكبة... خوفٌ فوق خوف... قلقٌ فوق قلق... حالةٌ يتخبّط فيها الإنسان بين ارتفاع الموج وانخفاضه، لا يجد لنفسه تفسيرًا لما يقع له، ولا يعرف سبيلًا إلى السكينة، فيعيش في قلقٍ دائم واضطرابٍ مستمرّ.

ومن اشتدّت عليه الظلمات، لجأ إلى المُهدِّئات، أو المُسكِرات، أو المخدرات، أو أيّ نوعٍ من أنواع "السكينة المزيّفة"، لأنه - من حيث لا يشعر - قد سلب نفسه بنفسه الطمأنينة الحقيقية؛ تلك الطمأنينة التي لا يهبها إلا الله وحده.

إنّ القرآن الكريم، حين يصف الكفر والمعاصي والابتعاد

عن اللّٰه، يصوّر حال أصحابها بعبارةٍ مهولةٍ موجزة:

**"ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ"**

ظلمةٌ فوق ظلمة، وتيهٌ فوق تيه، واضطرابٌ فوق اضطراب.

أمّا حين يتحدّث عن الإيمان، والقرب من اللّٰه، ونور المحبة الإلهية، فإنّه يقول:

**"نُورٌ عَلَى نُورٍ"**

نورٌ يتولّد من نور، ويزداد في القلب صفاءً وإشراقًا حتى يصير إشعاعًا يملأ الوجود كلّه.

فما هذا النور يا ترى؟

ما هذه القوّة التي – كما أشار إليها أينشتاين في نظريّة النسبيّة – تتجاوز قيود الزمان والمكان؟

ما هذا السرّ الذي تكلّم عنه العلماء من جهة، وتكلّم عنه الأنبياء والأولياء من جهة أخرى؟

ما هذا الذي يرفع الروح إلى مقام الانبساط، والتوحّد مع جمال الكون، والانسجام مع سرّ الوجود؟

إنه ذلك النور الذي ذكره العارفون، والذي قال عنه سلطان العاشقين ابن الفارض:

**زدني بفرطِ الحبِّ فيكَ تحيُّرًا**

**وارحم حشًى بلظى هواكَ تسعّرًا**

وهو ذلك الوجد الذي أشار إليه الحلاج حين قال:

**أنا من أهوى ومن أهوى أنا**

**نحن روحانِ حللنا بدنا**

هذا النور هو حرارة الحياة، وسكينة القلب، والطمأنينة التي بشّر بها الأنبياء، وسار على نهجها الأولياء.

هو النور الذي يُسكر الأرواح، وتضطرب له الوجدان، حتى يكاد العارف يضرب كفًّا بكفٍّ من شدّة الفرح والاندهاش، كما وصف أبو مدين الغوث حاله فقال:

**ما لذّةُ العيشِ إلاّ صُحبةُ الفقرا**

**همُ السلاطينُ والساداتُ والأمرا**

وهذا النور ليس ضوءًا محسوسًا كضوء الشمس أو المصباح، ولا تدركه العينُ الظاهرة، بل هو إشراقٌ يُلقيه الله في القلب؛ نورٌ معنويٌّ تتلقّاه البصيرةُ قبل البصر، وتعيه الأرواح قبل العيون.

وقد أشار إليه ابن عربي في أبياته المشهورة فقال:

لقد صارَ قلبي قابلاً كلَّ صورةٍ

فمرعى لغزلانٍ وديرٌ لرهبانِ

وبيتٌ لأوثانٍ وكعبةُ طائفٍ

وألواحُ توراةٍ ومصحفُ قرآنِ

أدينُ بدينِ الحبِّ أنّى توجّهتْ

ركائبه فالحبُّ ديني وإيماني

هذا هو النور الذي إذا نزل في القلب أحيا الميّت، وغيّر حال العبد، حتى يرى حياته السابقة كأنّها منامٌ بعيد، أو صفحةٌ باهتة من عمرٍ مضى.

فكم من عارفٍ وقف على باب الحقيقة، فلمّا لامس قلبَه نورُ الله تغيّر كلّ شيء في حياته!

تمامًا كما قيل عن أبي يزيد البسطامي حين عبّر عن حاله

بقوله:

**خرجتُ من نفسي كما يخرجُ السِّهمُ من الرمية،**

**فإذا أنا هو، وإذا هو أنا!**

فياللدهشة!

رجلٌ كان شيخًا في العلم، وإمامًا في الفقه، وصاحبَ تلاميذ كثيرين، ومع ذلك لمّا لامس قلبه نورُ الحقّ رأى ما كان عليه قبل ذلك كأنّه موتٌ بطيء، أو نقصٌ كبيرٌ في الحياة الروحية.

إنه نور العرفان، نورُ المحبة الإلهية، ذلك النور الذي يقول عنه ابن الفارض:

**ولولاكَ ما في الأرضِ شيءٌ يُرادُ**

**ولا لذّةٌ فيها لذي اللّبّ تُبتغى**

فمن حُرم هذا النور، عاش في جسدٍ بلا روح، وفي وجودٍ

بلا معنى؛

مسخًا بشريًّا يتحرّك بلا بصيرةٍ ولا صحوة.

يقول الله تعالى في الآية (122) من سورة الأنعام:

**"أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ، وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ، كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا؟"**

أي: هل يستوي من كان قلبه ميتًا، غارقًا في الجهل والغفلة، فأحييناه بنورٍ من عندنا، وجعلنا له بصيرةً وهدًى يمشي بهما بين الناس، مع من تائه في الظلمات، لا يجد منها مخرجًا ولا مهربًا؟

وكيف يمكن أن يُقاس هذا بذاك؟

فالقرآن يجعل إحياء القلوب من أثر نور الله، كما يجعل الضياع في الظلماتِ نتيجةَ البعد عنه والإعراض عن ذكره.

وهذا المعنى هو نفسه الذي نطقت به ألسنة العارفين: فالنور

عندهم حياةُ الروح، وبه يكون الوجد، والسرور، والبقاء الحقّ.

وقد عبّر ابن الفارض عن هذا المقام أبلغ تعبيرٍ حين قال:

**ولَو خُلِقَتْ أفواهُ أهلِ الأرضِ كُلِّهمُ**

**لَمَا أَدَّتْ شُكرًا لِما أوليتَ مِن مَنَنِ**

**وما ليَ إلّا روحٌ قد ضاقَ مُتَّسعًا**

**وهلْ لِرُوحٍ فَنَى في الحُبِّ مِن بَقِي؟**

ومعناه:

لو جُمعت أفواه الخلق كلّهم لتحمد نعمة العشق الإلهي، ما أدَّت شكر ما أولاه الله من مِنَنٍ وعطايا.

وليس لي إلا روحي، وقد جعلتها في سبيل هذه المحبة حتى كادت تفنى؛ وهل يبقى شيءٌ لمن فني في الحبّ؟

**فهذه هي حقيقة النور الإلهي:**

نورٌ إذا أشرق في القلب أحياه، وإذا انفجر فيه بدّل الكيان، حتى يرى العبد حياتَه السابقة كأنها موتٌ ممتدّ، وظلمةٌ طويلة، وغربةٌ عن الحقيقة.

وفي قولٍ قدسيٍّ مشهورٍ عند أهل السلوك يُتداول بهذا المعنى:

**«مَن طلبني وجدني، ومَن وجدني عرفني، ومَن عرفني أحبّني، ومَن أحبّني عشقني، ومَن عشقني عشقتُه.»**

أي:

من طلب الله بإخلاصٍ صادق هداه إليه،

ومن هداه إليه عرّفه به،

ومن عرفه المعرفة القلبية أحبه،

ومن أحبّه اشتعلت في قلبه نارُ العشق،

ومن استقرّ فيه عشقُ الله أحبّه الله محبّةً خاصّة.

وكلمة «عرفني» هنا هي عين المعرفة والعرفان، تلك المعرفة القلبية الذوقية التي تغيّر الإنسان، وتُحوِّله من حالٍ إلى حال، وتجعله يذوق من أنوار القرب ما لا تطيقه الكلمات.

ولهذا كان جلال الدين الرومي - على علمه الواسع، وعلى كونه صاحبَ فتوى في أربعة مذاهب - لم تشتعل في قلبه نارُ المحبة الإلهية قبل أن يُفتح له بابُ الطريق، ويلتقي بشمس التبريزي، ويتلقّى الإذن الروحي الذي غيّر باطنه وقلب حياته رأسًا على عقب.

فالشريعةُ علّمته، لكنّ العرفان هو الذي أحياه.

**ما هذا النور الذي منشؤه الله، ومن أين يفيض؟**

يجيبنا القرآن عن ذلك بوضوحٍ تامّ في الآية (35) من سورة النور، حيث يقول سبحانه:

**"اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ"**

أي إنّ الله هو العِلّةُ الأولى لكل نور، ظاهرًا وباطنًا، حسّيًا ومعنويًا؛ فهو مصدرُ الهداية، ومبدأُ الإشراق، ومنه ينبعث كلّ نورٍ يهدي القلوب والعقول.

ثم يشرع سبحانه في ضرب مثلٍ يقرب المعنى إلى القلوب، فيقول:

**"مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ"**

والمشكاة: تجويفٌ في الجدار يُوضع فيه المصباح؛

والمصباح: هو مصدر الضوء.

فالمعنى: إنّ نور الله في قلب المؤمن كمصباحٍ متّقد في مشكاةٍ تحفظه وتجمع ضوءه، ليكون أشدَّ إنارةً وأتمَّ إشراقًا.

ثم يقول تعالى: **"الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ"**

أي إنّ هذا المصباح موضوعٌ في وعاءٍ من الزجاج الشفّاف، يحميه ويزيد نوره نقاءً وسطوعًا.

وإذا عبّرنا بلغة أهل العرفان قلنا:

المصباح هو حبّ الله، والزجاجة هي قلب المؤمن؛ فإذا وقع نور المحبة الإلهية في قلبٍ صفت جوانبه، ولم تغشَهُ كدوراتُ النفس وأوساخُها، صار ذلك القلبُ كوكبًا دريًّا متلألئًا يفيض نورًا على من حوله.

ولهذا قال تعالى:

**"الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ"**

فإذا تراكم على هذه الزجاجة غبارُ الحسد، ودخانُ الطمع، وسوادُ الكذب، ولوثُ الشرك، حُجِب النورُ عن أن يخرج منها، وإن بقي المصباح في داخلها متّقدًا.

ثم يذكر الله مصدر هذا النور فيقول:

**"يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ"**

أي إنّ زيت هذا المصباح ليس زيتًا أرضيًا محدودًا، ولا

هو من عالم المادة وحده، بل هو من شجرةٍ مباركةٍ ربّانية الأصل، ليست منسوبةً لجهةٍ من جهات الأرض؛ لأنها منسوبةٌ إلى عالمٍ أعلى من عوالم المادة.

ثم يصف نقاء هذا الزيت وصفاءه فيقول:

**"يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ"**

أي إنّ هذا الزيت من شدّة صفائه وقوّة قابليته للاشتعال يكاد يضيء بذاته، ولو لم تمسّه النار.

وفي الإشارة:

إنّ القلب إذا صَفَا من الكدورات، ولم تُخنقه أهواء النفس وشهواتها، يكاد نور الله يتفجّر فيه من غير باعثٍ خارجي، فهو مهيّأ بطبيعته لتلقّي الفيض الإلهي.

ثم يذكر الله حقيقة هذا المقام فيقول:

**"نُورٌ عَلَى نُورٍ"**

أي نور الإيمان فوق نور الفطرة، فوق نور المعرفة، فوق

نور المحبة، فوق نور الهداية... أنوارٌ تتراكم وتتساند، حتى يصير القلب بحرًا من النور.

ثم قال سبحانه:

**"يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ"**

أي إنّ هذا النور ليس ثمرةَ الجهد البشري وحده، بل هو قبل ذلك وبعده هبةٌ إلهية يختصّ الله بها من يشاء من عباده، ممن صدقت نيتهم واستعدّت قلوبهم.

ويختم الله الآية بقوله:

**"وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا، فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ"**

أي من لم يفتح الله قلبه لنوره، وأبقاه محجوبًا بظلمات النفس والهوى، فلن يجد نورًا غير نور الله، ولن تُغنيه عنه أنوارُ البشر، ولا مبادئُ الأرض، ولا محبّات الدنيا.

فالقلب الذي لا تُشعِلُه محبّةُ الله، يعيش في ظلماتٍ تتراكم عليه، مهما تزيّن بزخارف الحياة.

## حين يشرق النور في القلب

حين يشرق نورُ الله في قلب العبد، تتّقد في داخله جمرةُ المحبّة الإلهية، اشتعالًا طبيعيًا لا يحتاج إلى برهانٍ أو تفسيرٍ أو جدال.

فالأمر يشبه إنسانًا تائهًا في مفازةٍ محرِقة، قد أفناه العطش أيّامًا طويلة، ثم قُدِّم له كأسُ ماءٍ باردٍ صافٍ عذب...

هل يحتاج هذا العطشان إلى من يشرح له لذّة الماء؟

هل يحتاج إلى من يُقيم له الدليل على عذوبته وطهارته وراحته؟

كلا، فكلُّ ذرّةٍ في جسده تشهد بذلك، وتُقبل خلاياه على الماء قبل عقله، ويعترف باطنه بصدقه قبل أن يُفكّر في تحليله.

وهكذا نور المحبّة:

من ذاقه عرفه، ومن عرفه استغنى عن كلِّ بيانٍ خارجيّ، إذ يشهد الباطن بما لا تشهد به الحواسّ.

أمّا من شرب من ماءٍ كدِرٍ متعفّن - مهما قدّمه الناس له بألف تبريرٍ وتسويغ - فقد يتوهّم في اللحظة الأولى أنّه نافع، ولكنّه سرعان ما يجد الألم في أحشائه، والاضطراب في كيانه، فيعلم عندها أن ذلك الماء لا يُطفئ عطشًا، ولا يُحيي قلبًا، ولا يهب حياةً.

وكذلك الجمال واللذّة والسعادة:

لا يهبها للإنسان حقًّا إلا نورُ الله، فهو الذي يُولّد في القلب العشق، ثم يُثمر السرور والطمأنينة، وهي الحالة التي لا توجد على الحقيقة إلا في حياة أهل الإيمان والمعرفة.

## آليّة العشق ونظامه الروحي

وكما أنّ السماع له آليّةٌ حسّيةٌ مخصوصة - فالذّبذبات تخرج من حنجرة المتكلّم، فتضرب الهواء، ثم تلامس طبلة الأذن، فتُحدِث فيها اهتزازًا، فينتج عن ذلك السمع - كذلك

العشق له آليّةٌ روحيةٌ مخصوصة.

فكما يصدر الصوت من الحنجرة، يصدر نور العشق من القلب؛

وكما تتلقّى الأذنُ الموجةَ الصوتية فتسمع، تتلقّى الروحُ الموجةَ النورانية فتطرب، وتخشع، وتخرج عن حدّ الزمان والمكان.

فكلّما لامس هذا النور قلبًا،

أوقد فيه وجدًا، وأثمر فيه بهجةً،

وحمل صاحبَه إلى مقاماتٍ لا تُدرَك بالأقدام، بل تُدرَك بالأسرار والأذواق.

## المريد والشيخ في طريق العرفان

في طريق العرفان، إذا أحبَّ المريدُ شيخَه محبّةً صادقة لله وفي الله، انفتحت بينهما رابطةٌ نورانية، يفيضُ الشيخُ بها عليه من نظره، ويمنحه من سرّه ما يرقى به ويطهّر باطنه.

ولهذا يقول أهل السلوك: إنّ نظرةً واحدةً من الشيخ الصادق تعدل سبعين خلوة؛ لأنّ نور الشيخ يمتدّ إلى المريد أسرعَ مما تمتدّ إليه مجاهدته وحده.

وقد عبّر الشيخ الأكبر محيي الدين ابن عربي عن هذا المعنى بقوله:

**نَظْرَةٌ مِنَ الشَّيخِ تُدْرِكُ لِلسَّالِكِ**
**في لَحْظَةٍ ما لا يُدْرِكُهُ في سَنَةٍ**

أي إنّ نظرة الشيخ، إذا صدقت وصفت وطاب معدنها، تُبلِغ المريد في لحظةٍ واحدة ما تعجز عنه مجاهداتُ السنين الطويلة.

### فمن أين يأتي الشيخُ بهذا النور؟

إنّ الشيخ الصادق لا يملك نورًا من ذاته، ولا يتصرّف في

الخلق من عند نفسه، وإنما يحمل نورَ الله أمانةً في قلبه، نورًا تلقّاه من شيخه، وتوارثه من سلسلة أهل الله، عن قلبٍ إلى قلب، وعن سرٍّ إلى سرّ.

فإذا أشرق هذا النور منه على قلب المريد أحياه، وطهّره، ورفعه إلى مقاماتٍ لم يكن ليبلغها وحده.

وقد قال بعض العارفين:

**«الشيخُ مرآةُ المريد؛ ينظر فيها فيرى حقيقة نفسه.»**

طوبى لمن يكون موضعَ نظرِ الأولياء، ومهبطَ أنوارهم، ومحلَّ عنايتهم؛ فإنّ هذا النظر يفتح للإنسان أبوابًا من المعرفة والمحبة لا تُدرك بالدرس والبحث وحدهما.

وقد كان سيّدُنا الغوث الأعظم عبد القادر الجيلاني قدّس الله سرّه يخاطب مريديه قائلًا:

**«لو علمتم مقدار محبّتي لكم لتقطّعت قلوبكم.»**

أي لو انكشفت الحجبُ بينكم وبين النور الذي يفيض من قلب الشيخ نحوكم، لانخلعت قلوبكم شوقًا وهيبةً، وعلمتم كم أنتم في عينه مقرّبون.

**شرط تلقّي النور: سعةُ الصدر**

ولا يمكن للإنسان أن يتلقّى نور الله إلا بقلبٍ منفسحٍ متشوّقٍ قابل.

وهذا ما عبّر عنه موسى عليه السلام بقوله:

﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾

أي وسّع قلبي، وطيّب باطني، وارفَع عني الضيق، ليتلقّى نور معرفتك ومحبتك، ولا يضيق بها ذرعًا.

فالقلبُ الضيّق إذا لامسه نورُ الحقّ لم يحتمله، وربما أهلك صاحبَه؛ لأنّ النور يحتاج إلى وعاءٍ واسعٍ نقيّ، كما يحتاج الماءُ الصافي إلى إناءٍ طاهرٍ سليم.

حين طلب قوم موسى رؤية الله جهرةً، تجلّى اللهُ للجبل، فانهار الجبل وخرّ القومُ صرعى؛ لأنّ صدورهم لم تكن مهيّأةً لتحمّل النور الإلهي.

ولم يثبت في ذلك المقام إلا موسى عليه السلام، لأنه كان صاحب قلبٍ مشرّحٍ منفتحٍ قادرٍ على استقبال التجلي.

إنّ الله الكريم يحبُّ أن يُفيض من نوره المبارك على قلوب عباده أجمعين، ولكنّ القلوب تختلف في قدرتها على تحمّل هذا النور.

ولهذا جاءت الأوامر في الشريعة والطريقة لتربية النفس، وتوسيع القلب، وتنقية الباطن، حتى يصبح القلب قادرًا على استقبال نور الله كما تُستقبل أشعّة الضوء في زجاجةٍ صافية.

فبقدر ما يتطهّر القلب ويتّسع،

يتنزّل عليه نور الله، وتتوقّد فيه شعلة المحبّة،

ويُشرق فيه سرّ القرب والأنس.

ومثل ذلك كمن يقدّم وعاءً نظيفًا ليُملأ له بالطعام الهنيء؛
أما إذا قدّم وعاءً دنّسًا ملطّخًا، فكيف ينتظر أن يُوضع فيه
ما لذّ وطاب؟

وكذلك يقول الحق سبحانه كأنّه يخاطب العبد:
«ناولني الإناء النظيف الذي وهبتُه لك - وهو قلبُك -
لأملأه لك بماءٍ باردٍ زلالٍ تُحيي به روحك.»
فإن لوّث العبدُ هذا الإناء، لم يُغلق الله الباب، بل يقول
له بلطفه:
«تُب إليَّ، وأنا أعلّمك كيف تُطهّره، ثم أعيده لك، فأملأه
بما يشرح صدرك ويُنعش روحك.»

ولذلك، فإن التوبة والبيعة في الطريق هما في حقيقتِهما:
تطهيرٌ للإناء البلّوري للقلب،
حتى يعود صالحًا لحمل نور الله من جديد.

## الشعور الحقيقي بالسرور

لقد قلنا إنّ السرور من النور، فإذا غاب النور غابت السعادة الحقيقية.

فالسرور حالةٌ من الوجد والانبساط والصفاء يعجز اللسان عن وصفها،

حالةُ إدراكٍ داخلي، ولطفٍ روحيّ، واتّساعٍ في الوعي،

وتناغمٍ مع الكون والطبيعة،

وشعورٍ عميقٍ بالانسجام مع إرادة الله في الوجود.

ولذلك فالسرور غير اللذّة، لأنّ اللذّة تحتاج دائمًا إلى تبرير، وإلى تعليلٍ ذهني:

«أنا سعيد لأني غنيّ، أنا مرتاح لأني نجحت،

أنا مبسوط لأني غلبت غيري...»

أما السرور الحقّ فيتدفّق ذاتيًا بلا تفسير، كنبعٍ يفيض من باطن القلب.

فالرجلُ الغنيّ يستلذّ بثروته،

فإن قيل له فجأةً إنّه أفقرُ أهل المدينة تبدّلت لذّته إلى غمٍّ وحسرةٍ وانكسار!

والطفلُ إذا رأى لعبةً أحبّها، صاح من الفرح، وانطلق يضحك من أعماقه، ولم يحتج إلى تفسيرٍ أو برهان، لأنّ هذا هو السرور الفطريّ الذي يولد مع الإنسان.

ولهذا، حين تُسأل كثير من النفوس:

«ما أجملُ أيام حياتك؟» تجيب: «أيام الطفولة.»

ولِمَ الطفولة؟

لأنّ حباب القلب - أي الزجاجة المذكورة في آية النور - تكون يومئذٍ صافيةً نقية، لم تُغطّها بعدُ غيومُ الشهوات، ولم تلطّخها أيدي الذنوب.

فتتلقّى نور الله بلا حجاب، فينطلق القلبُ في عالم السعادة، وترقص خلايا الروح في سماوات البهجة والأنس.

ولكن حين يكبر الإنسان، وتتراكم طبقاتُ الأنانية، والحرص، والطمع، والشرك الخفيّ، والكذب، والمعاصي والذنوب...

تسودُّ تلك الزجاجة البلّورية شيئًا فشيئًا،

فيحتجب عنها النور، فتخبو السعادة، ويبهت السرور، وتغيب البسمة الصادقة عن الوجه والقلب.

**ماذا تفعل العرفان والطريقة؟**

مهمّة العرفان والطريقة هي تنظيف الزجاجة من جديد،

لتعود كما كانت في صفائها الأوّل،

فإذا صَفَت عاد النور يتدفّق،

وعاد السرور الحقيقيّ يملأ كيان الإنسان...

سرورًا أعمقَ وأعلى من سرور الطفولة نفسها؛
لأنّه هذه المرّة مصحوبٌ بـ معرفةٍ وشهودٍ ووعي،
لا ببراءةٍ غافلة.

## اللبس بين السرور واللذّة

الإنسان يتذكّر سرور الطفولة فيبحث عنه طوال حياته،
لكنّه - في الغالب - يخطئ الطريق،
فينصرف إلى اللذّات بدل السرور، بينما اللذّةُ شيء،
والسرورُ شيءٌ آخر تمامًا.

فالسرور ماءٌ، واللذّة سراب.
السرور تأثيره ذاتيّ، عميق، فوريّ،
تشهده خلاياك من الداخل بلا أيّ تبرير،
وتحسّ به روحك قبل عقلك.

أمّا اللذّة فتحتاج دائمًا إلى توهّمٍ وتفسيرٍ وإقناع،

تمامًا كما ينظر الإنسان إلى السراب فيراها ماءً بسبب الخداع البصري،

فيتوهّم العطشانُ أنّه سيصل إلى الماء...

لكنّه حين يصل إليه لا يجد سوى الغبار والحرارة والخيبة.

وهكذا:

من ذاق ماء النور، يغنيه الذوق عن الدليل والبرهان.

ومن شرب من سراب اللذّة لا يزيده إلا عطشًا واضطرابًا.

إنّ القرآن الكريم يصوّر حالَ من ابتعد عن الله في سورة النور تصويرًا دقيقًا مؤثّرًا، فيسميهم طالبي السراب؛ فهم يرون الوهمَ ماءً، ويتّبعون الخيال على ظنّ أنّه حقيقة.

والله سبحانه يناديهم بلسان آياته:

إنّ ما تسعون وراءه سراب، ليس بماءٍ، ولن يُطفئ ظمأكم، ولن يُسعد قلوبكم.

ولكنّهم لا يُصغون، بل يمضون في الطريق حتى يصلوا إلى نهايته، فيدركون - متأخرين - أن ما كانوا يظنّونه ماءً لم يكن سوى خيالٍ باطل.

وحين تنكشف الحقيقة، يطلبون الرجوع إلى الطريق المستقيم، ولكن أنَّى لهم ذلك بعدما أهملوا طويلًا الآلاتِ الإلهية التي وهبهم الله إيّاها للتمييز بين الحقّ والباطل، وبين الماء والسراب:

العقل، والقلب، والسمع، والبصر.

ولهذا يقول الله تعالى في الآية (179) من سورة الأعراف:

**"وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ، لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا، وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا، وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا، أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ، أُولَئِكَ هُمُ**

الْغَافِلُونَ"

فهم ليسوا عُميانًا ولا صُمًّا من حيث الجسد، ولكنّ أعينًا لا تُبصِر الحقيقة، وآذانًا لا تعي صوت الهداية، وقلوبًا لا تتأمّل ولا تتفكّر...

فلا تختلف حقيقتهم عن العمى والصمم الروحيين.

## أقسام طالبي السراب

١) قومٌ أسرعُ من غيرهم

بعض الناس أكثرُ "مهارةً" - في الظاهر - من غيرهم، فيمضون بسرعةٍ كبيرة نحو السراب، فيصلون إلى آخر الطريق أسرع من الآخرين، وهناك يكتشفون الحقيقة المرة:

أنّ ما سعوا إليه سنين طويلة لم يكن سوى سرابٍ لا ماء فيه. وحين تنهار أوهامهم دفعةً واحدة،

يرون حياتهم باطلةً لا معنى لها،

وقد يبلغ اليأس ببعضهم إلى أن يُنهي حياته بالانتحار -

عياذًا بالله - مع أنّ الناس من حوله كانوا يظنّون أنّه في قمّة السعادة والرفاهية!

وهذا من أعجب مفارقات الحياة.

٢) قومٌ بطيئون في السعي وراء السراب

وهؤلاء لا يقلّون ضلالًا عن الأوائل، لكنّهم أبطأُ سيرًا، فيبقى السعي إلى السراب هو مشغلتَهم الكبرى طوال العمر.

فإذا قيل لأحدهم:

«ما هذا الذي تتّبعه؟ هذا الذي أمامك ليس ماءً، بل سراب!» قال:

«أنت متوهّم! لو كان سرابًا لما تبعه هذا العدد الكبير من الناس.» وإذا قيل له:

«انظر إلى الذين سبقوك في هذا الطريق، هل وجدوا ماءً؟»

قال: «نحن نريد أن نجرّب بأنفسنا! كونهم لم يجدوا لا يعني أننا لن نجد.»

وهذا عين ما وصفه القرآن في قوله تعالى (البقرة: 13):

**"وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ، قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ"**

أي إنهم يرون الإيمان - وهو النور والهداية - سفاهةً وحماقة، ويرون اتّباع السراب رشدًا وعقلًا!

وكذلك قوله تعالى (البقرة: 11):

**"وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ، قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ"**

ثم يقطع الله الحكم عليهم في الآية التالية:

**"أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ، وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ"**

أي إنهم بلغوا من الغفلة مبلغًا جعلهم يرون الفساد إصلاحًا، ويرون السراب ماءً، ويرون الظلمة نورًا.

وكما قلنا سابقًا:

نورُ الله هو الذي يُولِّدُ المحبّة، والمحبّةُ تُولِّدُ السرور، والسرورُ

يمنحُ القلبَ نشوةً وبهجةً وسُكرًا روحانيًا.

**فماذا يفعل من حُرِم هذا النور؟**

ماذا يصنع من لم يتذوّق حلاوة القرب، ولا لمس حرارة المحبة الإلهية؟

إمّا أن يسعى إلى تحصيل النور الحقيقي،

وإمّا أن يلجأ - والعياذ بالله - إلى تزوير الإحساس بالنور عبر العبث بحسّاسات الروح التي أودعها الله في الإنسان.

فالمعاصي الكبرى، والخمور، والمخدّرات، واللهو الفاسد...

كلّها ليست إلا وسائل لتضليل تلك الحساسات،

فتُنتج انطباعًا كاذبًا بالدفء والنور،

بينما حقيقتها ظلمةٌ مضاعفة، ووحشةٌ أشدّ.

فانظروا إلى من يدخل مجلسًا فاسدًا، يلتقي فيه أناسًا ذوي

قلوبٍ مظلمة، يبعثون فيه برودةً ووحشةً وغربةً داخلية.

فإذا شرب كأسًا بعد كأس، أو استنشق دخانًا محرّمًا، أو أطلق الموسيقى المجلجلة التي تُعطّل حواسّ الروح وتوقظ النفس الظلمانية...

تحوّل تلك البرودة شيئًا فشيئًا إلى إحساسٍ دافئٍ موهوم، ويتبدّل النفور من أولئك الناس إلى مودةٍ كاذبة.

والشخص نفسه - الذي كان قبل ساعات يجرّ جسده جَرًّا من شدّة الضياع والقلق - يشعر فجأةً بنشاطٍ واندفاعٍ وحيوية...

لكنّه نشاطُ مصطنع، لا يلبث أن ينطفئ.

وفي الصباح، يعود كلُّ شيءٍ أسوأَ مما كان:

الوجوه التي بدت لطيفةً في الليل تصير أثقلَ على قلبه،

والقلق يعود أضعافًا، والظلمةُ تشتد،

والخوفُ والفراغ والاضطراب - وهي علامات البعد عن

الله والقرب من الشيطان - تتسلّط على كيانه من جديد.

فهذا ليس نورًا،
بل سرابٌ يُميت القلب، ويُعمِي الفطرة، ويُغرِق الإنسان في لذّةٍ خاطفة، ثم يتركه في ظلمةٍ أعمق ووحشةٍ أشد.

فإذا كان النورُ الحقيقي هو وحده الذي يبعث في القلب محّبةً صادقة وسرورًا صافياً،
وكانت اللذّات الكاذبةُ لا تزيد القلب إلا عطشًا وظلمة...
يبقى السؤال الأهمّ:

كيف يسترجع الإنسان نورَه المفقود؟ وكيف يخرج من أسر اللذّة الوهمية إلى عالم السرور الحق؟
إنّ الإنسان لا يستطيع بمفرده أن ينتقل من ظلمات النفس إلى نور الروح؛

فالنفس أقوى من أن تُهزَم بالقرارات المؤقّتة،
والسراب أخدع من أن يُكشَف بمجرد التفكير العقلي.

وهنا يأتي دور الطريقة... الطريق الذي سنّه الله لأهل الإيمان ليصلوا إلى نوره.

**هنا يبدأ دور الطريقة**

فالطريقة ليست طقوسًا جامدةً تُؤدَّى بلا روح، ولا شعائر شكليةً فارغةً من المعنى،
بل هي السبيل العمليّ الذي يستطيع به الإنسان أن يتخلّص من سلطان الظلمة،
ويعود من أسر الشهوة إلى رحاب الطهارة،
ومن جفاف الحياة إلى ينابيع المحبّة الإلهية.

فالطريقة تُعلّم السالك كيف يواجه نفسه:

كيف يُنقّي قلبه من الأكدار،
وكيف يكفّ جوارحه عن المعاصي،
وكيف يُصغي لصوت الحقّ وسط ضجيج الدنيا،
وكيف يتهيّأ لاستقبال نور الله من جديد.

والشيخ في الطريقة ليس بديلًا عن الله،
ولا وسيطًا يحجب العبد عن ربّه،
بل هو دليلٌ صادقٌ يحمل المصباح بيده،
يقود القلب إلى منابع النور،
ويُخرج الإنسان من خناق الظلمة إلى فضاء المعرفة والمحبة.

وبالطريقة تحيا القلوب بعد موتها،
وتشرق الأرواح بعد غيابها،
ويجد الإنسان سرورًا لا يشبه سرور الدنيا،
ونورًا لا يُقاس بأيّ نورٍ آخر.

فهي علاجٌ لمن أعمته اللذّات الكاذبة،

وطوق نجاةٍ لمن غرق في سراب الحياة،

ومعراجُ كلّ روحٍ تائقةٍ إلى نور ربّها.

# رؤية بعد الموت (قصة حقيقية)

في ليلة من الليالي ذهبتُ إلى منزل أحد الأصدقاء الذي يملك محلًّا لبيع قطع غيار السيارات. قال لي إنه تعرّف على شاب كان مشهورًا في سوق قطع الغيار بالمَكْر والاحتيال. هذا الشاب، قبل فترة، نقل جميع أغراضه المنزلية - من ثلاجة وتلفاز وغيرها - من بيته إلى مخزنٍ كان أحد أصدقائه يقوم بترميمه، كما سحب جميع أرصدته من البنوك على شكل شيكات سياحية ووضعها على طاولة. ثم دعا كل الأشخاص الذين تعامل معهم طوال سنوات عمله إلى الحضور هناك.

بعد دخول آخر شخص، أغلق باب المخزن من الداخل، وبدأ يخاطب الحاضرين واحدًا تلو الآخر، ويخبر كلًّا منهم عن الصفقات التي قام بها معه وعن عمليات الاحتيال التي مارسها عليه. فمثلًا قال: "يا فلان، تلك الشحنة من نوابض السيارات التي بعتها لك على أنها جديدة لم تكن كذلك، بل

كانت مُعادَة الترميم، وقد اشتريتُ القطعة بعشرين دولارًا، وصرفتُ خمسة دولارات على ترميمها، وبعتها لك بخمسين دولارًا، فربحت من خداعي لك ستة آلاف دولار، وذهبتُ بها أسبوعًا إلى تركيا للاستمتاع.” ثم يلتفت إلى آخر ويقول: “يا فلان، تلك القطع التي بعتها لك كانت ضعف السعر الحقيقي، وبثمنها اشتريتُ سيارة جديدة.” وهكذا استمر في الاعتراف.

وبعد هذه الاعترافات التي أذهلت الجميع، قال للحاضرين: “كما ترون، لقد جمعت هنا المال والممتلكات وحتى أثاث منزلي. يمكنكم أن تأخذوا من هذه الشيكات أو من أثاث البيت ما يقابل ما تحايلته عليكم، وإن لم يكفِ، أقوم بالتقسيط لأدفع لاحقًا. وإن لم ترضَوا، فسأفعل ما ترونه مناسبًا، حتى لو اضطررتُ لبيع كليتي ودفع ثمنها لكم. لكن من يخرج من هنا يجب أن يكون قد صفّى حسابه معي وحلّلني.”

نظر الحاضرون إلى بعضهم بدهشة ولم يعرفوا ما يقولون. وبعد دقائق من الصمت، قام أحدهم مبتسمًا، وأخذ شيئًا من المال وساعة كانت على الطاولة، وقال: "أنا حلّلتك يا رجل! وأنتم أيضًا سامحوه، فقد كان يستطيع أن يخفي عنا هذه الأمور." وبعده بدأ الباقون واحدًا تلو الآخر بالتصالح معه والخروج.

أحدهم، دون أن يتفق معه، حاول الخروج وهو يقول: "ما فعلته بي أربكني، ولا أستطيع أن أقرر الآن، أحتاج إلى وقت لهضم الأمر." فقام الشاب بمنعه من الخروج، وبعد جدال وصراخ، تدخّل الآخرون حتى رضي أخيرًا.

بعد أن أنهى صديقي رواية هذه الحادثة العجيبة، قال إنه من الممكن أن يأتي هذا الشاب الليلة إلى منزلنا. ولم تكد كلماته تنتهي حتى دقّ جرس الباب، وبعد أن أجاب قال: "يا للمصادفة! إنه هو بنفسه!"

دخل شاب متواضع ووسيم، وسلّم بحرارة على كل

الحاضرين، حتى الأطفال. وبعد وقت قصير، وكأن عليه واجبًا لا بد أن يؤدّيه، بدأ يروي قصة حياته، والعامل الذي دفعه إلى ترك الأعمال السيئة والتوبة.

اتضح أن ما أجبره على ذلك كان رؤية بعد الموت، في حالة شبيهة بالحلم، رأى فيها حياته بعد الوفاة ومحاكمته يوم القيامة. ولإثبات صدق هذه الرؤية، فإنه بمجرد أن رآها شُفي - بطريقة معجزة - من السرطان الذي كان يعانيه منذ مدة طويلة.

قصة حياته طويلة، والخوض في تفاصيلها يخرج عن نطاق حديثنا هذا، لكن مما قاله إنه نشأ في أسرة فقيرة بعدما انفصلت أمه عن أبيه وهو صغير، وعانى من اليتم ومن ضيق العيش إلى أقصى حد، حتى امتلأ قلبه بالغضب على الله وروح الانتقام منه - والعياذ بالله - فكان منذ طفولته يبحث عن كل ما يظن أن الله لا يرضاه، ويفعله فقط بدافع الانتقام.

وحين حكى تلك الرؤية وما جرى له بعد الموت ومحاكمته، لم أكن أملك وسيلة لتسجيل صوته، ولأنني رأيت أن سماع هذه القصة قد يكون مفيدًا لغيري، حدّدت معه موعدًا آخر، وطلبت منه أن يعيد رواية رؤيته لي، فوافق، وها أنا أرويها لكم الآن بلسانه.

**شرح الرؤية:**

سألتُ الله أن يُريني ماذا سيفعل بي بعد أن أغادر هذه الدنيا، وكيف ستكون محاكمتي، وما الذي سأستحقه. وفي حالة شبيهة بالرؤيا - لا أعلم كم استغرقت زمنيًّا - شعرتُ وكأنني أتحرك في الزمان والمكان، فرأيتُ محكمة تشبه المحاكم العادية ولكنها أكبر بكثير، وكان نور أسود يملأ أرجاءها. الستائر والكراسي والأبواب والجدران جميعها سوداء اللون.

ذلك النور الأسود لم يكن كالنور المعتاد، بل كان إحساسه غير قابل للوصف بمشاعر هذا العالم؛ كأنه سواد يمكن لمسه

باليد وأخذه وتحريكه دون أن يكون له وزن أو كتلة. وفي المحكمة، إضافة إلى النور الأسود، كان هناك نور أبيض جميل للغاية، أشبه بضوء القمر، ممتزج بذلك السواد بطريقة يمكن معها فصل السواد عن البياض. لا أدري كيف يمكن للمرء أن يتصور ذلك، سواد وبياض مختلطان، ومع ذلك يمكن فصل كلٍّ منهما عن الآخر. أنا الذي رأيته أستطيع وصفه، لكني أعلم أن تصوّره بمقاييس مادية أمر صعب على الآخرين.

ذلك النور القمري كان يمنح الإنسان طمأنينة عظيمة، بينما كان السواد يبث في القلب خوفًا شديدًا يهزّ الفؤاد. وهكذا دخلتُ المحكمة بمزيج من الطمأنينة والخوف. كان شعوري أن ذلك السواد هو سواد نفسي وكياني، وقد امتزج بتلك الطهارة والبياض.

كانت في المحكمة جميع أماكن الجلسات كالمعتاد: منصة القاضي، مكان المحامي، مكان الشهود، كاتب الجلسة،

أماكن الحضور... لكن كلّها كانت خالية، ولم يكن فيها أحد سواي.

عندما دخلت، تأثرتُ بذلك النور والسواد، وشعرتُ بحالة من الإدراك الفائق، وكأن فهمي و وعيي أصبح أضعافًا مضاعفة - آلاف أو ملايين المرات - مقارنة بفهمي وإدراكي المادي في الدنيا. وكان إحساسي أن كل ما يجري يتمّ بأقصى درجات العدل والوضوح، وأنه حق مطلق وكامل.

بعد دخولي، خاطبني صوت هادئ ولطيف، فيه سكينة ونفوذ مطلق، قائلاً: ماذا تريد؟ فقلت: هل هذه محكمة العدل الإلهي؟ قال: نعم. قلت: أنا لدي شكوى وعندي دعوى. قال: على من؟ قلت: على الله أشتكي. فأجاب بهدوء تام: قل شكواك! الله الآن في موضع الاتهام ويسمعك.

قلت: ما الفائدة؟ أنا أتكلم وهو يسمع، لكن أين القاضي؟

أين المحامي؟ لا بد من مَن يقضي، مَن يصدر الحكم، مَن يدافع عني. هنا لا أرى أحدًا!

قال الصوت: أنت هنا القاضي، وأنت المحامي، وأنت عضو هيئة المحلفين، وأنت صاحب القرار الأخير.

وفي تلك اللحظة، كان إدراكي عاليًا لدرجة أن قلبي لم يشك لحظة في صدق ما يُقال. كان كل شيء هناك قلبًا صافياً، وما يقال ينفذ إلى القلب مباشرة بلا أي مجال للشك.

قبلتُ تمامًا أنني أنا القاضي، وصدّقت أن الله الآن في موضع الاستماع لشكواي. فقلت: يا رب، أنا لم أرد دنياك، ولا حياتك الدنيوية، لا مرضك ولا ألمك، لا هذا العمل ولا تلك الزوجة، لا هذه الوظيفة ولا هذا الإدمان على المخدرات، لا شرب الخمر، ولا مرض السرطان. لماذا في طفولتي طُلّقت أمي فكبرتُ يتيم الأم؟ لماذا عشتُ الفقر والشقاء ونشأتُ معقّدًا؟

يا رب، أنت تعلم أنني كنت تائهًا في حياتي، أذهب إلى من يدّعي القرب منك وأسأله: من أنا؟ ولِمَ خُلقت؟ فيقول: الله أعطاك عقلًا وفهمًا ويدين ورجلين، وأرسل لك نبيًّا، وأنزل كتابًا، وذكرك بآيات كثيرة، وعليك أن تفهمها. فأقول: من الذي يجب أن يفهم؟ أنا؟ أنا لا شيء! كل ما عندي، من الله. ذلك الذي أعطاه الله عقلاً وفهمًا ويدين ورجلين، من هو؟ ألم يكن الله قد خلقه من لا شيء؟ ألا يزال ذلك "اللا شيء" هو أنا؟ اللا شيء لا يمكنه أن يختار بين الخير والشر!

العقل عقل الله، والفهم فهم الله، والعين عين الله، فما الذي هو لي أنا؟ كنتُ نطفة، خلية، وكل ذلك من الله! إذن كل شيء لله، وأنا لا شيء! فإذا فعلتُ المعصية، هل أنا فعلتها أم أنت فعلتها؟ الوسائل كلها منك! والآن تريد أن تضعني في جهنم؟ يعني أنك ستضع نفسك؟ وإن وضعتني في الجنة، فأنت تضع نفسك في الجنة!

لكنني في المحكمة قلت أيضًا: بفطرتي وذاتي كنتُ أعلم حين أفعل الحرام أنه حرام، وأن روحي الطاهرة التي نفختها فيّ وضميري كانا ينهانياني عن المعصية، لكنني لم ألتفت لذلك لأني لم أرَ الحق أمامي ولا قدوة أتبعها، فكنتُ أختار ما أراه حسنًا: شرب الخمر، المخدرات، القمار... فطرتي كانت تقول لي: لا، كما تقول للجميع، لكنني كنت من النائمين حقًّا.

الناس صنفان: من هو نائم حقيقة، ومن يتظاهر بالنوم. وكلاهما يبدو نائمًا، لكن الفرق يظهر إذا ناديته: النائم حقًّا يستيقظ بذكر أو كلمة حق، أما من يتظاهر بالنوم فلن يستيقظ لأنه أصلاً مستيقظ ويسخر منك في نفسه!

من يسير في الفساد يعرف تمامًا أنه مخطئ، والله أعطاه ضميرًا ونورًا يوقظه في كل لحظة، لكنه يتجاهله كما يتجاهل المتظاهر بالنوم الصوت الذي يسمعه.

قلت في النهاية: يا رب، أنا لم أكن مخادعًا، لم أتظاهر بالنوم،

بل كنت نائمًا حقًّا، وأنت تعلم ذلك. وما قلته من أنني لم أرغب بهذه الحياة كان من أعماق قلبي، وكان حقًّا مطلقًا. وهناك، في ذلك المقام، لم يكن يمكن قول شيء غير الحق.

فقال الصوت، كأنه من الله: كل ما تقول صحيح، وأنت صادق حقًّا. الآن أخبرني، ما الذي تريده وما مطلبك من الله؟

في تلك المحكمة عرضتُ كل ما أردت، وقلت: كل ما فعلتُه أنت الذي فعلته، فنظر في قلبي وقال: كل ما تقوله حق. ثم قال لي: أخبرني، مقابل هذا الظلم الذي تزعم أنّه وقع عليك، مقابل دعواك، مقابل اليتم وفقدان الأب والأم، مقابل كل هذا الإدمان والتشرّد، مقابل أنّك أردتَ سيارة مرسيدس فأعطيتك دراجة، وأردتَ حذاء فمشيتَ حافيًا، وأردتَ بيتًا فنمتَ في الشارع، مقابل أنّك لم ترغب

الألم فأصبتك بالسرطان، وأردتَ زوجة صالحة فأعطيتك زوجة سيئة... مقابل كل ذلك ماذا تريد؟ مع أنّني - فيما أعطيتك - جعلته كله خيرًا، وأنت حوّلته إلى شر!

فقلتُ: هنا أريد كل ما كنت أتمنّاه ولم يتحقّق في الدنيا. فقال: اطلب وسأعطيك. قلت: كنتُ حافيًا وأريد الآن أفخر الأحذية، قال: أعطيك. لم تكن عندي سيارة وأريد أفضل سيارة، قال: أعطيك. كنتُ بلا بيت وأريد أكبر القصور، قال: أعطيك. لم تكن لي زوجة صالحة وأريد أفضل زوجة، قال: أعطيك. كنت بلا أم وأريد أفضل أم، قال: أعطيك. لم يكن لي عمل مناسب وأريد أعلى منصب، قال: أعطيك. لم يكن عندي مال وأريد أكثر الأموال، قال: أعطيك. وخلاصة الأمر أنّ كل ما كنت أذكره كان يقول: أعطيك. فهنا - عندنا - لا وجود لمعنى الفقد أو النقص، فإن النقص ليس من ذاتنا.

حتى انتهى بي الأمر إلى أن طلبت من الله كل الدنيا، فوعدني بها بلا أي تردّد، وكنتُ أعلم أنّ وعده حق وحقيقة مطلقة. وعندما أخذتُ الدنيا، شعرتُ بسعادة غامرة وقلت في نفسي: ها قد وصلتُ إلى غاية أمانيّ، وإلى أعلى المراتب! فما الذي يبقى للإنسان بعد أن يأخذ الدنيا كلّها؟ طلبت آسيا وأوروبا وأمريكا وأفريقيا وآسيا وغيرها... فأعطاني كل ذلك.

كنتُ أريد أن أقول: يا رب، هل أنت متأكد أنك لم تخلطني بأحد آخر؟ وهنا خالطني شك: ربما الله قد اختلط عليه الأمر وظنّني شخصًا آخر، أو أنّ هناك خطأ في الحساب! لأنني كنت قد ارتكبتُ بعض الذنوب، وكنت أقرأ في الكتب أنهم يأتون بالسلاسل والأغلال... لكن هنا لا أثر لذلك!

وبعد كل هذه الطلبات الكبيرة التي طلبتها وقَبِلَها الله،

عاد نخاطبني قائلاً: الآن هناك أمور أخرى لا تتذكرها أنت، ولكننا نحن حسبناها لك. هذه الأشياء التي أعطيتك إياها كانت تعويضًا عن الأضرار التي - بحسب دعواك - ألحقناها بك. حسنًا، نحن فعلناها، ونحن ظلمناك، لكن هناك أعمال فعلتها أنت ولا تذكرها، وقد سجّلناها لك.

قلت: ما هذه الأشياء التي لم أكن منتبهًا لها؟ فقال: ألا تذكر تلك اللحظة التي ذهبتَ فيها إلى المقبرة لدفن أحد أقاربك، وقلتَ عددًا من "لا إله إلا الله" وصلّيتَ على النبي مرات، ولكن كان ذلك لأجل أن يُعجب بك أقاربك؟ لم يكن ذلك لأجلي وأنت تعرف. أو حين شربت ماءً وسكبت آخره على جذور نبتة؟ أو حين مررتَ صدفة ورأيت نملة فَرَقّ قلبك وأبعدت قدمك عنها؟ أو حين مات أحد أقاربك نخفتَ وأقمت الصلاة أسبوعين؟ أو حين ركبت سيارة أجرة وألقيت السلام، وكان سلامك عادةً اجتماعية لا عبادةً لي؟

وأثناء كلامه، كانت كل الأفعال التي يذكرها تُعرض أمامي كصور حيّة، وكانت حقيقتها تستقر في قلبي. ثم قال: هذه الأعمال التي فعلتها، هل ذكرتني من أعماق قلبك يومًا؟ أو قلتَ: يا الله؟ نعم، في بعض الأحيان فعلت ذلك، مثلاً عندما كنت بلا مال، أو حين كسرتَ ساقك ذكرتني بصدق، لكن كان ذلك لأجل المال أو لأجل ساقك المكسورة، ومع ذلك استجبت لك.

لم يحدث أن خاطبتني قائلاً: يا الله، أنا أحبك كثيرًا لأجل المرض الذي ابتليتني به! أو قلت: يا الله، أنا أحبك كثيراً لأجل الصحة التي منحتني إياها!

ثم قال: لا بأس! الآن، مقابل هذه الأشياء التي لم تتذكرها أنت وقد سجلناها لك، أخبرني ماذا تريد؟

فقلت: يا الله، ما أعظمك! أنت تذكّرت هذه الأمور، وإلا كنتُ سأغادر دون أن أذكرها. فقال: أنا لا أنسى شيئًا، وأحسب الأمور بالتفصيل: السلام الذي ألقيته، الصلاة التي

صلّيتها، الصلاة على النبي التي قلتها... الآن عليك أنت أن تضع الثمن لها.

كنتُ - وقد غمرتني الحياء من كثرة ما أغدق عليّ - أقول: يا رب، هذه الأمور التي فعلتُها كانت - كما يقولون - "هكذا" فقط، لمجرّد أن لا يخلو الأمر، ولم تكن شيئًا ذا قيمة!

فقال: لا بأس، في النهاية هي خير، وفيها اسمي، ومخلوقاتي كانوا طرفًا فيها. فما شأنك أنت؟ نحن كرماء رحماء، ونريد أن نعطيك أجرها.

كان يقول هذا وأنا أطير من الفرح، وفي قلبي أقول: حقًّا أنت الإله الجدير بصفات الكمال التي لك!

فقلت: حسنًا، إذن أعطني مقابلها أيضًا كرة أرضية أخرى، فيصبح لديّ - مع ما سبق - كرتان، وآخذها وأمضي!

قال: يكفي؟ قلت: نعم، يكفي وزيادة.

وهكذا، أعطاني كل ما طلبتُ وما لم أطلبه أيضًا. وكان

هناك شريط يسير فوقها قلمٌ بلا يدٍ تحرّكه، بل كان القلم يتحرّك بسرعة من تلقاء نفسه، وكل ما أنطقه كان يكتبه، وكان الشريط يأتي من موضعٍ معيّن بين السواد والظلمة، وكلما كتب القلم شيئًا كان الشريط يطوى.

ثم خاطبني الله تعالى ثانية وقال: والآن، عدا كل ما أعطيتك، ماذا تريد أيضًا؟

هنا شعرتُ بشيء من الحرج، وقلت في نفسي: يا رجل، يبدو أنك تماديت، فقد أخذت الدنيا كلها مقابل أمور لم تفعلها، ومعاصيك وشرورك لم تُذكر ولم تُعاتَب عليها، فماذا تريد بعد؟

لذلك قلت: لا أريد شيئًا آخر! وبصدق، مهما فكّرت لم يخطر لي شيء لم أطلبه من قبل.

ورغم أنني قلت ذلك، أعاد الله السؤال عليّ مرارًا، حتى قلت: أقسم بأسمائك الحسنى أنّ ما أخذته يكفيني ويزيد، وهو أكثر من حقي، ولا أريد شيئًا بعد ذلك.

فقال: حسناً، الآن سأفعل لك ما أفعله من كرمي مع الجميع، وهو أن أضاعف لك كل ما كُتب عشرة أضعاف.
فضرب كرتيّ الأرض في عشرة، فصارت عشرين من حيث السعة والعظمة والثروة والملك والشعوب وكل ما فيها!
والآن، مع الإدراك والفهم الذي حصلتُ عليه هناك، ومع كل هذا الفضل والرحمة والكرم، تتصوّرون وحدكم ما الشعور الذي يملأ قلب الإنسان! لن أقول أكثر، فأنتم تستطيعون تخيّله. ولو قلت: إنني طرت من شدّة الفرح، لكان ذلك قليلًا!

لقد وجدت نفسي في نشوة وسعادة لا توصف، هي خاصة بالآخرة، لا وجود لها في الدنيا، ولا يمكن حتى وصفها بمصطلحاتها. ولو مُنح الإنسان في الدنيا مثل ذلك الشعور، لما استطاع تحمّله، ومات من شدّة البهجة.
تذكّرت حينها قول الله لموسى عليه السلام: ﴿لَن تَرَانِي﴾، وحين ألحّ أراه الله تجلّيًا من جلاله نخرّ صعقًا.

هكذا خرجت من المحكمة، متوجّهًا إلى المملكة التي منحني الله إيّاها. وعند خروجي، رأيت شخصًا شبيهًا بي في المظهر، يسير مع مَلَك. وبالإدراك هناك - حيث لا حاجة للشرح - علمت أنّ ذلك المَلَك من ملائكة جهنّم، ولم يكن في مظهره أي قبح، لكن لونه كان هو نفسه السواد الذي كان في المحكمة.

سألني ذلك الشخص: هل كنتَ في المحكمة؟ قلت: نعم. قال: وهل انتهت محاكمتك؟ قلت: نعم. قال: هل قلتَ كل أحزانك وآلامك ومعاناتك؟ قلت: نعم، قلتها كلها. قال: وهل طالبتَ بحقك عنها؟ قلت: نعم، وأخذتُ كل ما أردت. قال: حسنًا، هذه الأمور لم تكن مهمة كثيرًا، لأنّ الله كان سيعطيك حقك ولو لم تطلبه، لكن قل لي: ماذا أخذت مقابل تلك الصلاة والسلام على النبي والصلوات والصيام؟

قلت: يا رجل، أنا لم يكن عندي منها شيء يُذكر، بضع

مرّات فعلتها فقط للمجاملة أو لمجرّد المشاركة، ومع ذلك أكرمني الله عليها كثيرًا، فقلتُ له: أعطني أجرها بقدر الدنيا، فأعطاني. فقال: إذًا رصيدك قليل؟ قلت: نعم قليل، لكن في المقابل أخذت الكثير!

هزّ رأسه بأسى وقال: أنا آسف عليك! لقد أخذت القليل. فقلت: يبدو أنّك مجنون من هؤلاء الذين ماتوا وجاؤوا هنا! كيف تقول: قليل؟! صلاة وسلام و"لا إله إلا الله" وصلاة أنا نفسي أعلم أنّها لم تكن مؤثّرة، وأعطاني الله مقابلها كرة أرضية كاملة، وتقول: قليل؟! قال: نعم، قليل جدًّا.

قلت: دعني وشأني، دعني أذهب وأهتم بأموري. قال: حسنًا، اذهب!

فقلت له: وأنت إلى أين تذهب؟ قال: أنا ذاهب إلى جهنم. قلت: ومن تكون أنت؟ ماذا فعلت من الفسق والفجور والقتل حتى تذهب إلى جهنم؟! نحن - مع ما عندنا من سوء - أُعطينا كل هذا، فماذا فعلت أنت؟ هل أنت في

مستوى هتلر أو جنكيز خان؟ فقال المَلَك الذي معه: لا، بل هذا الشخص أفضل منك بكثير، وكان إنسانًا أفضل.

قلت: إذًا هو مجنون، لأنّ العاقل لا يذهب برجليه إلى جهنم! على كل حال، اذهبوا حيث شئتم، فقط دعوني وشأني. فقال لي: سأراك في جهنم، أنت أيضًا ستذهب وتعود.

هنا لعنتُه، وقلت: لعنة الله عليك، أنت وأهلك إلى جهنم، لماذا أذهب أنا؟! الله أعطاني عشرين ضعف الدنيا على ما فعلت!

ثم افترقت عن الاثنين، واتّجهت إلى المملكة الواسعة التي منحني الله إيّاها، وبدأتُ أملك وأحكم، وكل ما كنتُ أطلبه في الدنيا ولم أصل إليه أصبح عندي هنا: أموال، طائرات، قصور، نساء، زينة، كل ما أرغب فيه كان يحضر فورًا، وكنت أتلذّذ به إلى أقصى حدّ وبالكمال.

مضت أيّام على هذا الحال، وأنا أمارس الحكم في

إمبراطوريتي وأستمتع بها غاية الاستمتاع، إذ لم يكن في اعتقادي وقتها ما هو أعظم ممّا أنا فيه، وكنتُ ألهج بالشكر لله شكرًا حقيقيًّا لا كشكر أهل الدنيا، فأقول في قلبي: يا رب، أيّ فضل وأيّ رحمة منحتني! أيّ شيء عظيم أعطيتني! يا الله، إنك حقًّا أرحم الراحمين، وكلّ هذه الصفات التي تُقال لا تليق إلا بك. لم يخطر لي في الخيال أنني حين أموت سآتي إلى هنا وأعيش في مثل هذه النعمة.

وبينما أنا في هذه الحال، فجأة رأيت نورًا بديعًا لا يُوصف قد سطع على قصري، ولم يكن نورًا فقط، بل شيئًا عجيبًا مُدهشًا، مزيجًا من الضوء والموسيقى والشعر والنغم، مزيجًا فاتنًا يجعل كل ذرّة منك ترقص طربًا، ويملؤك بالنشوة. يا الله! كيف يمكن أن يكون هناك نورٌ ذو لحن، يُغنّي لقلبك، ويمتزج بروحك، فيجعل باطنك وخلايا جسدك ترقص معه، ويأخذك إلى لذّة لم تخطر لك ببال من قبل؟ لذّة حقيقية،

كأنّ كل خلية في جسدك تضحك من أعماقها.

سألت: ما هذا؟ أين كان هذا النور الآسر؟ لم أرَ مثله في نظامنا من قبل، لا في الماضي ولا في الحاضر! من أين أتى؟ فقيل لي: إنّ هذا النور بهذا الجمال والعظمة جاء ليقول للدنيا والوجود، ولكل ما في خلق الله - وهذه الأرض التي تملكها ليست إلا ذرة منه - أن اطمئنوا واهْدؤوا، فالحب قادم، الروح الحقيقية في طريقها، ذرة من الحقّ المطلق قادمة، فانتبهوا وتهيّؤوا حتى لا تنفجروا من شدّة الدهشة ولا تتفتّتوا.

هذا النور يرسل رسالته بالرقص والغناء، باللطف والشعر، ويقول: نمْ في سكينة، فالحب قادم، وكن مستعدًّا لاستقبال نور الحق المطلق وعشقه المطلق.

قلت: ولماذا تجلّى هذا النور؟ فقيل: عبدٌ من عباد الله،

رجلٌ عادي، عاملٌ في السوق ينقل البضائع، انتهت محاكمته، وأخذ حقه من الله، وهو الآن سيمر من هنا إلى مقرّه الأبدي في الجنة. هذا النور هو نور العظمة والصفاء والعشق، جاء ليهيّئ الكواكب والأزمنة والنجوم والكائنات لتستطيع أن تحتمل مروره، إذ لو لم تُهيَّأ لانفجرت من شدّة ما يحمل من عظمة وعشق.

عندما رأيت هذا النور وقعتُ في غرامه، لأنّه لامس كل ذرّة في كياني، وأشعرني أنّ لي قلبًا لطيفًا لم أكن أعلم به، إذ تسلّل إليّ ذلك النور، وتلك الألحان، وذلك العزف، حتى جلس في قلبي، كعاشق يرى محبوبه الذي عشقَه مليارات المرات وهو يمرّ أمامه، فأفسد عليّ حالي! وبقيت أيّامًا أنتظر حتى مرّ.

وحين مرّ، رأيت شخصًا على سرير داخل سرير، سرير في سرير... أحده كلّه نور، وآخر كلّه عشق، وآخر منسوج بالعشق والنور والحكمة، وبالحقّ الذي يستحقّه، وبالعظمة

التي هي حقّه. وكان هذا كلّه له، لأنّه هو الذي أوجد ذلك النور واستحقّه، وهو الآن جالس عليه.

وعندما عبرت هذه العظمة أمام كوكبي، مقارنةً بما أعطاني الله، غُشي عليّ من شدّة الحيرة، فسقط قلبي قبل جسدي، إذ أخذ قلبي ذرّة من ذلك العشق واحتواها، فأغمي عليّ. وعندما أفقت، قلت: هذا ما أريده! هذا ما كان يجب أن أطلبه!

ومنذ لحظة إفاقتي، انطفأت الدنيا وما فيها مما أعطاني الله، وصارت عندي عدمًا، وعدت إلى ذاتي، إلى ذلك النور الأصلي، وإلى صفاء القلب، وأدركت أنني طلبت طلبًا خاطئًا، وصرخت: وا حسرتاه! هنا بكيت بكاءً مرًّا. هناك أدركتُ أيُّ خديعة وقعتُ فيها!

عدتُ إلى المحكمة باكيًا نائحًا، بعد أن كنتُ قد خرجتُ منها من قبلُ مُحلِّقًا بالعشق، واثقًا، شاكرًا لله - شكرًا باللسان -

ظانًّا أنني خدعتُ اللهَ وأخذتُ حقي والدنيا، وبلغتُ مقصدي، ونلتُ ما كنت أتمناه. لكن الأمر لم يكن كذلك.

دخلتُ باكيًا نائحًا أقول: يا رب، يا مولاي، أعلم أنك أعطيتني كل ما طلبت، وخرجتُ من هنا شاكرًا وختمْتُ شريطي بيدي، لكني ما زلتُ أشكو إليك. وهنا لم تكن الكلمات تُقال باللسان، بل كان القلب هو الذي يتحدث مع الحق، والروح هي التي تنطق، فلا شك هناك ولا إنكار.

قال الله: لِمَ تشكو الآن؟

قلت: لأنك قصّرتَ في حقي، لم تُعطني ما كان يجب أن تُعطيني.

قال: أقصّرتُ؟ هل طلبتَ مني شيئًا ولم أعطك إياه؟ ألم تطلب الدنيا؟

قلت: بلى، أعطيتني. لكن أخبرني، لماذا لم تُعطني ما أعطيتَ ذلك العامل البسيط؟

قال: وهل طلبته مني؟

قلت: لا، لكني رأيتُه!

قال: رأيتَ عظمته؟

قلت: نعم!

وهنا كنتُ أنوح وأصرخ، وأهيم في الفضاء من شدّة الوجد، أقول: لماذا لم تُعطني ما أعطيته إياه؟

قال: وأنا أيضًا لم أُعطه ما تظن.

قلت: فما كان إذًا ذلك الذي أشرق ومرَّ؟ ذلك الجلال والعظمة؟

قال: ذاك جاءني، كما جئت أنت، فسألته: ماذا تريد؟ كم أعطيك؟ فقال: لكل "لا إله إلا الله" قلتُها، ولكل صلاة على النبي صلّيتها، أريد ان أصل العشق، أصل المعرفة، لأنني أرسلتُ هذه كلّها بعشق، لا من أجل دنيا أطلبها، بل لأني أعلم أن العشق الحقيقي هنا.

قال: والآن أريد ذلك العشق! فرأيتُ أنه صادق؛ ففي الدنيا حين قال "لا إله إلا الله" قالها من قلبه، ورأيته أمام

مئة مليون مال فلا يمد يده إليها، يأكل خبزًا جافًّا ويشبع بذكر الله، يطير قلبه بالصلاة والسلام، كان قادرًا على الغيبة فلم يغتب، قادرًا على شرب الخمر فلم يشرب، قادرًا على ترك الصلاة فلم يتركها... كل ذلك فقط من أجلي، لأنه عرف العشق وذاقه.

فقلتُ له: ماذا تريد؟

قال: أريد حق العشق، حق الصفاء، حق المعرفة، حق العلم الذي خلقته ولا أعلمه، ولأجله صلّيتُ لك، وامتنعتُ عن الكذب والبهتان والفحش، وغضضت بصري، وقرأتُ القرآن، وسرتُ في الطرق أذكر اسمك... أريد حق ذلك كلّه منك.

فقلت: أعطوه، فإنه مستحق.

أعطيته ذلك، لأنه هو الذي طلبه، وأنا لم أُظهر له شيئًا، بل هو الذي أظهره بنفسه، وناله بنفسه في الدنيا.

هنا تدركون عظمة الإنسان الكامل، لأنه يفرّق بين الحق والباطل. وهنا تغبطه الملائكة، وأقول لهم: اسجدوا لهذا الخلق! أيها الشيطان، سجدة واحدة من هذا العبد في لحظة، خيرٌ من سجدة لك طالت ثلاثمئة ألف سنة، لأن هذا العبد كان قادرًا على الذهاب إلى الباطل وأسفل السافلين، لكنه اختارني، فاستحق ما أعطيته إياه.

أما أنت، فقد استحققت ما أعطيتك! والآن جئت تبكي وتشكو؟ ألم أُقسِم لك بأسمائي الحسنى أن تطلب ما تريد، وأعطيك؟ وقد طلبتَ بقلبك وأعطيتك ما طلبت. لكن أي قلب طلب؟ قلب طلب الدنيا، قلبٌ أسود لا يطلب إلا السواد. وأما القلب المملوء بالعشق فلا يطلب إلا العشق.

والآن جئت تقول: ما الحل؟ ماذا أفعل؟

قلتُ: أنا أريد ذلك، فابحث لي عن حل، فأنت أرحم الراحمين، أنت العظيم، وأنت قادر على كل شيء.

قال: أنت رأيت تلك العظمة؟ إذن اسمع، سأُظهر لك الحقيقة، عندي عظمة إذا قورنت بتلك التي رأيتها لكانت هي لا شيء. العظمة التي رأيتها، ذلك الشخص نالها وهو ذاهب بها الآن، ومعها كل ذلك العشق والصفاء والمعرفة والشوق والنشوة.

لقد جئتُ بأُناسٍ إلى هنا وأعطيتُهم أشياء تجعل ما رأيته أنت لا يساوي شيئًا بجانبها، ومع ذلك، حين يذهبون بها، يعودون إليّ هنا يبكون! حتى ذاك الذي نالها - وقد ملأ حياته بالصلاة والسلام والدعاء والنجوى لي - يرجع ويبكي. أنتم جميعًا تبكون هنا.

أنت كنتَ في الظاهر تُصلّي، ولكنك كنتَ بعيدًا عنّي، ولو غرزتُ إبرةً في قدمك لقفزتَ مترين من شدّة الألم! بل أنت شخص لم يُصلِّ ولم يَصُمْ، ومع ذلك أعطيتك الدنيا، أفترى أنّي قصّرتُ معك أو ظلمتك؟

قلت: لا شيء! لكن افعل لي شيئًا، تدخّل لأجلي، أوجد

لي مخرجًا.

قال: حسنًا، أعطني قلبك الصافي، قلبك النقي، لأضع فيه عشقي الحقيقي. سأعطيك شيئًا يليق بمقامي الأعظم، وأرفعك من عرشي حتى تقف بجانبي. أعطني ذلك القلب النقي كما كان أول مرة أعطيتك إياه، حتى أملأه بنوري الطاهر وأرده إليك.

رأيتُ عندها أن الوعاء قد تحوّل إلى سواد، إلى قذارة! امتلأ حقدًا، امتلأ حسدًا، امتلأ طمعًا، امتلأ غيبةً، امتلأ بهتانًا، امتلأ فسادًا وخرابًا. أخذتُ الوعاء النقي وحوّلته إلى هذا الشكل، أخذتُ القلب النقي فجعلته كذلك، أخذتُ الروح اللطيفة فأفسدتها حتى امتزج الفساد بها، فصار الشر منسوجًا في خيوطها، ولم يعد يمكن فصله عنها.

قلتُ: يا الله، ماذا أفعل لأُزيل هذا التداخل بين الخير والشر في قلبي؟

قال: ليس لهذا إلا طريق واحد، وهو باختيارك أنت، فلا

إكراه فيه. عليك أن تذهب وتطهّر هذه الأدران، أن تنظّف هذا الإناء وتعود به إليّ. أَفكنتَ في الدنيا تشرب من إناء متّسخ؟! كنتَ لتغسله مئة مرة قبل أن تملأه، فكيف أملأ لك أنا هذا الإناء الملوَّث؟! لا يمكن أبدًا. رحمتي وكرمي ونوري لا تستقر في هذا الإناء، ولا تقبل هذا القلب وهو على هذه الحال.

هنا، أنا لن أسألك بعد الآن: ماذا تريد؟ لأنك لا تعرف ما الذي ينبغي أن تطلبه. أنا هناك أُظهر لك عظمتي. فإن كنت تريد هذا المقام، فطريقه هو الطهارة. وعلاج ذلك هو جهنّم. اذهب، طهّر نفسك في هذه النار، فهي لك رحمة. انظر، أنت الآن ملتهب من الداخل!

كنتُ في تلك اللحظة أشتعل نارًا، عندما رأيت تلك العظمة لم أستطع الثبات، كنتُ أقفز في الهواء، وأصرخ، وأصيح. الأمر يشبه في دنياكم أن يُخبَر شخص فجأة أن هناك وصية

تركت له مئة مليار دولار، وكان لا يعلم، فإذا اكتشف أنه فقدها، إن لم يُغشَ عليه فسوف ينهار. فكيف إذا رأيتَ عظمة هي حقك، لكنك أنت الذي حوّلتها بيدك إلى باطل؟!

كنتُ أصرخ: يا إله الحق، يا إله الخير، أنا ظلمت نفسي، أعترف بخطئي، فماذا أفعل؟ دلّني.

فقال: لا تصرخ هكذا، لا ترفع صوتك بهذا النحيب.

قلت: لا أستطيع أن أتمالك نفسي.

قال: هل تريد أن تهدأ؟ أن ترتاح من هذا العذاب وهذا الضيق؟

قلت: نعم، خلّصني!

قال: تعالَ، دع نار الحسد، ونار الكِبر، ونار النفاق، تأكلك حتى تنظّفك من هذه الأوساخ، عندها ستهدأ وتطمئن.

قلت: وأين هذه الجهنّم؟ أرِني إياها.

قال: لو أني لم أخلق جهنّم، ماذا كنتَ ستفعل؟ بهذه الأوساخ لا يمكنك دخول الجنة، ودنياك قد صارت لك أسفل السافلين. أنا حتى لا أريد أن أريك جهنّم، تخيّل أني لم أخلقها أصلًا!

قلت: يا رب، أرجوك، اخلق لي جهنّم. اخلق لي جهنّم، فأنا الآن أحترق، أشتعل، أموت وأحيا في كل لحظة!

قال: حسنًا، أنا أرحم الراحمين، سأخلقها لك، لتدخلها فتتطهّر من هذه الأوساخ، وتتخلّص مما جمعته ظلمًا وباطلًا، وتعود نقيًّا.

كنت أقول: يا الله، أسرع! عجّل! أين جهنّمك؟

قال: هناك، على بُعد عشرة أمتار... عشرين مترًا.

قلت: المسافة طويلة جدًا! طويلة للغاية!

قال: طويلة؟ خذوه! صدق، هو لا يستطيع أن يذهب وحده.

وأنا أقول: نعم، أسرعوا بي بأقصى سرعة إلى جهنّم، فأنا لا

بد أن أدخلها، لا بد أن تُطهَّر هذه الأوساخ. اربطوني بالسلاسل والقيود حتى لا أهرب من النار، أريد البقاء فيها!

هناك، تطلب أنت بنفسك الغلّ والسلاسل، فيأتون فيقيّدونك بإرادتك، وأنت تقول: خذوني بأقصى سرعة!

يأتون بك ويحملونك، بإرادتك أنت وبرغبتك أنت، إلى جهنم، وهناك تطلق صيحات تهزّ جدران جهنم وأهلها جميعًا! فيقولون لك: اهدأ، ستأتيك تلك النار التي طلبتها!

يقولون: أيُّ نار تريد؟ نار الحقد؟ نار الحسد؟ نار سوء الظن؟ تفضّل! كل هذه النيران تأتيك بناءً على طلبك، وحين تلامسك هذه النيران تبدأ لأول مرة بالشعور بشيء من الهدوء، لأنها تأخذ جزءًا من أحقادك وأوساخك وتلقي به في قعر جهنم.

أما المدة التي ستقضيها هناك، والوقت اللازم للتطهير، فمرتبط بلون قلبك الأسود: كم هو شديد السواد؟ كم فيه من

الكِبر؟ كم فيه من النفاق؟ كم فيه من الدنس؟ وكذلك مرتبط بمدى كرم ورحمة هذه النار، كم سيأخذ منك من هذه الأدران، وكم سيطهّرك منها، وكم سيستغرق ذلك حتى تصبح نقيًّا تمامًا. وهناك - كما تعلم - لا بُعد للزمن ولا للمكان، بل يستمر الأمر حتى تبلغ الخلوص الكامل. وعظمة جهنم، من حيث التأثير، لا تقل عن عظمة الجنة.

وخلاصة ما خرجتُ به من هذه الرؤية أن الجنة حق، والنار حق، وأن الباطل هو ما يضلّ الإنسان، لكن الله - بكرمه - يحوّل حتى ذلك الباطل هناك إلى حق.

ويا له من مشهد عظيم وجميل! تقول: أيمكنني أن أرى جنتك أيضًا؟ فيقول: تعال وانظر. تدخل لترى، ولكن بقلب أسود، فلا يأتيك ذلك النور، ولا تلك العظمة، ولا ذلك العشق ليستقر فيك فتفرح. تدخل فتجد أن القلب مقفل، عليه قفل يمنع العشق من الدخول والاستقرار. تدخل، فلا تنال إلا الحسرة والدموع؛ ترى الجنة وتبكي، وترى النار

وتبكي!

حقًّا... آهٍ وآهٍ وآه... لقد رأيتُ هذا، رأيتُ جنّته، ورأيتُ ناره، وعدتُ.

والآن، التوكّل على الله، والرجاء بالله، عسى أن يعيننا الله في هذه الأيام القليلة التي نعيشها في الدنيا - وهي في حقيقتها ليست أيامًا، بل لحظات - أن نجمع أكبر قدر من العشق، وأكبر قدر من العمل الصالح، وأن نسير في الصراط المستقيم، حتى لا نصل هناك خالي الوفاض. ومع ذلك، حتى هناك سنشعر بالندم، لأننا قصّرنا، ولأن ما جمعناه قليل. تذهب إلى مقامك في الحق، وتسير على صراطه المستقيم، وهناك تندم أنك جمعت القليل من الذهب واللآلئ والجواهر... فكيف بمن سار في الطريق المعوجّ؟!

**أخي القارئ / أختي القارئة،**

**إذا كنت مهتمًا بالحصول على هذا الكتاب بلغات أخرى أو بكتب أخرى ذات صلة، يُرجى التواصل مع مؤلف الكتاب عبر الواتساب أو البريد الإلكتروني الموضح أدناه.**


رابط واتساب 👇

**https://wa.me/9647731718421**

رابط تلغرام 👇

**https://t.me/noorvarahma**

البريد الإلكتروني 👇

**hamidrezaansari1103@gmail.com**

# فهرس المحتويات

كلمةُ المؤلِّف ............................................................ 3

إثبات متانة أُسُس القرآن الكريم.......................................... 12

المعجزات الرياضيّة في القرآن الكريم........................................23

كود التوراة واختلافه عن النظام الرياضي في القرآن ..........26

الإسلام وتشويه صورته في العالم المعاصر..............................28

القرآن الكريم... الكتاب الذي لا مثيل له في تاريخ البشر......33

الأنبياء وشمول الرسالة الإلهيّة ...............................................35

تفوق القرآن على سائر الكتب السماوية ...............................40

الشبكة الرياضية في القرآن وعدد (١٩)..................................41

سرّ العدد ١٩ في «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ» ..............................44

تقييم طُرق السلوك إلى الله.......................................................55

الشريعة والطريقة.......................................................................77

الوصول إلى الحقيقة بين العلم النظري والعلم العملي ..............81

التصوف بوصفه امتدادًا لسنّة النبي ﷺ .................................85

لماذا يحذّر بعض العلماء من الذكر الكثير؟............................86
ما هي البيعة؟...........................................................94
البيعة في القرآن الكريم ..............................................95
كيف كانت البيعة في زمن النبي ﷺ؟...............................96
البيعة الخاصّة في الطرق الصوفية.....................................97
ما المزية في بيعة الطريقة الإسلامية الأصيلة؟.......................98
كيف نميّز صاحب البيعة (شيخ الطريقة)؟ .........................99
من هم أولو الأمر؟.................................................... 101
مقام الولاية ............................................................ 107
لماذا يجب أن تكون التوبة على يد شيخ الطريقة؟..............110
ما هو دور الأذكار في الطريقة؟.......................................132
انسجام الأذكار مع فطرة الإنسان.....................................134
الذكر الجماعي والحلقات الروحانية في الطريقة....................142
أثرُ أذكار الطريقة في معالجة المشكلات الروحيّة والنفسيّة..144
ماذا يحدث إذا ذكرَ شخصٌ غيرُ مأذونٍ أذكارَ الطريقة؟......147
لماذا يُعَدّ ترتيب الأذكار أمرًا جوهريًا؟.............................175

الحركة والاهتزاز في الذكر........................................176
اتجاه الحركة وعددها... سرُّ النظام الإلهي............................179
دَوْر الدُّفّ والسَّماع ..........................................................180
حديثٌ موسّع عن السَّماع ......................................................183
مقام الدُّفّ والطبول ..............................................................186
السماع عند كبار العارفين.....................................................187
أحوال المكاشفة والسُّكر الروحي..........................................189
لماذا يُطيل أهلُ الباطنِ شعرَهم؟ ............................................189
الشَّعر وبُعده العلميّ ...............................................................190
سلوك الشعر في الأماكن النورانيّة والأماكن الملوّثة..........193
مقدّمة حول الحجاب ضمن سياق الحديث عن الشَّعر .........195
الفوارق بين أهل الطريق وبين عامة المؤمنين.........................200
طريقة إعطاء البيعة  في الطريقة العلية القادرية الكسنزانية......210
كيفية إعطاء البيعة ...................................................................211
رواية عجيبة عن تغريد الكناري أثناء إعطاء البيعة ..............213
بعضُ أسبابِ السقوطِ في الطريقة..........................................217

الأدلّة العملية على حقّانية الطريقة ........................................ 220
البركة وقوانينها............................................................... 240
قوانين البركة وما يكشفه لنا فهمُها ........................................ 245
تطهير البيوت بالذكر.......................................................... 257
أثر الطعام في السلوك الروحي للسالك..................................... 258
الطعام الملعون والطعام المبارك............................................... 261
أنواع الخوارق الخارجة عن العادة ........................................... 262
حقيقة السِّحر وحكمه في الشريعة ............................................ 264
الدعاء على الطعام والماء وتأثيره............................................. 269
أهل العرفان وبنية الوجود المتناغم .......................................... 271
كيف تفقد البركة في الطعام؟ ................................................ 273
رؤية نزول البركات عند أهل السلوك...................................... 274
البركة قوة ذات أثرٍ تجميعي .................................................. 276
أنواع التثاؤب عند أهل المعرفة............................................... 280
شهادات حيّة من مشاركين في البرامج الروحية ........................... 283
لماذا يكون لبعض الأعمال السيّئة نتائجُ حسنة؟ ......................... 305

لماذا يفتح الله للفسّاق أبواب اللذّات والمادّيات؟.............. 311
طبيعة الاعتحان عند الأولياء.......................................... 320
الاعتكاف والخلوة الروحية.................................................. 324
برنامجُ رياضةٍ روحيّة لمن لا يملكون وقتًا لخلوةٍ طويلة ........ 332
البرنامج الغذائي لرياضةٍ روحية مدتها عشرة أيام ................. 333
تأثير التعاليم العرفانيّة في الإبداع والقدرات الفنيّة .................. 339
الحركة نحو الله بالتخطيط العلمي والمنهجي الحديث.................. 357
الطريقة والنور............................................................ 388
رؤية بعد الموت (قصة حقيقية) ........................................... 428